المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية أصول الدين بالرياض
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

منهاج التنزيه والتقديس

في الرد علىالمبطل داود بن سليمان بن جرجيس

للشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ

تحقيقاً ودراسة

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة

إعداد: شريفة بنت مصلح السنيدي
إشراف الدكتور: عبدالعزيز بن إبراهيم الشهوان
الأستاذ المشارك في قسم العقيدة

الجزء الأول

عام 1424 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

(يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (آل عمران:102) .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)(النساء: 1) .

(يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيمـا) (الأحزاب:70-71) .

أما بعد :

فإنه لا يرتاب مسلم في أهمية التوحيد الخالص ، فما أرسل الله رسولا إلا وأمره أن يدعوا الناس إلى إفراد الله بالعبادة ، وينذرهم الشرك ، قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (النحل:36) .

فالشرك خطره عظيم ، بل هو أخطر الذنوب على الإطلاق ، ومن تدبر القرآن الكريم والسنة النبوية ، وجدهما مصرحين ببطلان دين المشركين ، وكفر أهله ، وبيان أنهم أعداء الرسل ، وأنهم أصحاب النار؛ لأن ذنبهم لا يساويه ذنب ، فالشرك هضم لجناب الربوبية ، وإساءة ظن برب البرية ؛ لذا كان آخر ما وصّى به النبي ، وفي آخر لحظات عمره – عليه الصلاة والسلام- ، التحذير من الشرك ووسائله ، فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله في مرضه الذي لم يقم منه : " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " ، وفي رواية " وصالحيهم "[1] .

وقد كان القرون الثلاثة على هذه الوصية النبوية ، ثم أصاب هذه الأمة ما أصاب الأمم قبلها ، فظهرت بدعة القبورية[2]

---

[1] انظر تخريجه (ص 456) .

[2] القبورية ، أوعباد القبور ، أو المقابرية ، أو المقبريون : نسبة للقبور أو المقابر ، ويراد بهم : كل طائفة جاوزت الحد في تعظيم المقبورين .

أواخر القرن الثالث الهجري ، وشاعت بين الرافضة لما صار لهم دويلات ، كدولة بني بويه ، ودويلات الباطنية من عبيدية وإسماعيلية .

ثم في القرن الرابع والخامس الهجري وما بعدهما انتشرت انتشارا كبيرا بين المسلمين ، وسارت الطرق الصوفية على سبيل الرافضة تنشر هذه البدع ، وتنافح عنها ، حتى عمت بها البلوى في أكثر بلاد المسلمين ، وساعد على ذلك الجهل بحقيقة التوحيد الذي جاءت به الرسل ، فأشربوا في قلوبهم الشبهات ، حتى وصل حال كثير من المسلمين كما قال الصنعاني[1]- رحمه الله - :

أعـادوا بها معنى سواع ومثله يغـوث وودا ليس ذلك مـن ودي

وقد هتفوا عند الشدائد باسمهـا كما يهتف المضطر بالواحد الصمد[2]

فتصدى أهل السنة والجماعة لنقض عقائد القبورية ، ومن أشهر من تصدى لهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذته من بعده ، فدحضوا كل شبهة ، وبانت بهم المحجة .

ثم مع تطاول الزمان انتقضت عرى الإسلام ، وعُظمت القبور ، وعبد غير الله ، حتى منّ الله على هذه الأمة عامة ، وهذه البلاد خاصة بالإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فجدد الله به ما درس من أصول الملة والدين، فشمر عن ساعد الجد ، وأعلن النصح لله ولرسوله ولكتابه ، ولسائر عباده ، فدعا إلى مادعت إليه الرسل من إخلاص العبادة لله وحده ، وتحقيق التوحيد ، ونهاهم عن الشرك ، ووسائله وذرائعه .

ثم سار على نهجه ومنهاجه أئمة الدعوة من بعده ، الذين تأخر عصرهم وتقدم فخرهم ، حتى ألحقوا بالسلف الصالح ، وشهد لهم أهل العلم والفضل والتحقيق أنهم جددوا التوحيد .

ولشدة الحاجة لنشر كتب هؤلاء الأعلام عزمت أن يكون موضوع بحثي في هذا المجال ، وخلال البحث وجدت أن أغلب من كتب في هذا الموضوع ينقل أو يحيل إلى كتاب عظيم الفائدة لإمام من أئمة الدعوة ، وهو كتاب **[منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن**

---

[1] هو : أبو إبراهيم محمد بن إسماعيل بن صلاح ، الأمير الصنعاني ، مجتهد من بيت الإمامة باليمن ، محدث ، أصولي ، ولد سنة (1099هـ) ، له عدة مؤلفات ، من أشهرها " سبل السلام "، توفي سنة (1182هـ) . البدر الطالع (2/133) ، الأعلام (6/38) .

[2] ديوان الصنعاني (ص129) .

جرجيس] للشيخ عبد اللطيف ابن عبد الرحمن بن حسن ، وهو من أجل الكتب التي نافحت عن العقيدة الصحيحة، ودرأت الشبهات الشركية ، رد فيه الشيخ على كتاب [**صلح الإخوان من أهل الإيمان ، وتبرئة الشيخين ابن تيمية وابن القيم**] لأحد دعاة القبورية في عصره ، وهو داود بن جرجيس البغدادي .

ومما دعاني إلى اختيار هذا الكتاب بعد الاستخارة والاستشارة ، أمور منها :

أولا : قيمة الكتاب العلمية : فلا شك أن كتاب (منهاج التأسيس) من أهم الكتب التي ألفت في رد شبهات من أجاز صرف شيء من العبادة لغير الله ، وهذه الشبه لا يزال يتناقلها كل من فتن بعبادة القبور ، والتوسل بالبشر ، ويلقونها على العوام ، ويضلون بها عباد الله ، والمؤلف – رحمه الله – قمع هذه الشبه ودحضها ، وبيّن كثيرا من مسائل التوحيد أبلغ بيان[1]، مما جعل هذا الكتاب مرجعا مهما لكل من كتب في هذا الموضوع ، ولا يكاد يخل رد على المبتدعة - بعد الشيخ عبد اللطيف - من النقل عنه : ومن ذلك على سبيل المثال :

الشيخ السهسواني[2] الهندي في (صيانة الإنسان)[3] ، والشيخ محمود شكري الألوسي[4] في (غاية الأماني)[5] ، والشيخ سليمان بن سحمان[6] في أغلب ردوده (كالأسنة الحداد ، و الضياء الشارق) وغيرها.

ثانيا : كثرة الكتب المؤلفة من هؤلاء المبتدعة ، وانتشارها بين الناس ، مما يوجب الاهتمام بنشر كتب الأئمة الذين دحضوا هذه الشبه ، ودافعوا عن السنة حتى لا ترفع للقبوريين راية ، وكتاب (منهاج التأسيس) من أهم الكتب التي هدمت قواعد الشرك بالعلم والدليل ، ودحض الدعاوى والشبهات .

ثالثا : تميز هذا الكتاب بالإضافة إلى قوة عبارته ، ومتانة رده ، بسهولة أسلوبه ، ويسر معانيه ، يفهمه العالم والمتعلم ، فلا بد من العناية به تحقيقا ودراسة ونشرا بين الناس .

---

[1] كما سيتضح من خلال مسائل الدراسة ، والتحقيق .
[2] انظر ترجمته (ص 55) .
[3] قال : قال بعض المحققين ، ونقل نصا من " المنهاج " (ص177) .
[4] انظر ترجمته (ص55) .
[5] (2/92 وما بعدها) .
[6] انظر ترجمته (ص50) .

رابعا : أن هذا الكتاب لا يوجد منه الآن إلا طبعة واحدة فقط ، وهي طبعة دار الهداية[7] بإشراف الشيخ إسماعيل بن سعد بن عتيق ، وقد ذكر أنه اعتمد طبعة أنصار السنة المحمدية التي طبعت في مصر عام (1366هـ) بمراجعة وتصحيح الشيخ محمد حامد الفقي – رحمه الله - ، الذي كان له الجهد المشكور في خدمة كتب السلف ، لكن الكتاب يحتاج إلى مزيد من الخدمة : من تحقيق، ودراسة، وتخريج لأحاديثه ، وترجمة لأعلامه .

وهذا لا يعني أن أدعي بأني سأقوم بأفضل من عمل الشيخ حامد الفقي ، ولكني سأشاركه بجهد المقل ، وأعتذر سلفا عن التقصير ، وأسأل الله العفو والمغفرة .

*** خطة البحث**

وقد جاء البحث في مقدمة ، وتمهيد ، وقسمين ، وفق الخطة التالية :

المقدمة : وتشمل : 1- أهمية الموضوع .
2- سبب اختيار الكتاب .

التمهيد : وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : مقارنة بين شبه المتقدمين ، وشبه المعاصرين .

المبحث الثاني : أهمية نشر كتب السلف في الردود ، وذكر نماذج منها.

المبحث الثالث : سمات وخصائص دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأئمة الدعوة .

القسم الأول : الدراسة

وفيها أربعة فصول :

الفصل الأول : ترجمة الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن ، ومنهجه في الكتاب .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : ترجمة الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بإيجاز.

المبحث الثاني : منهجه في الكتاب بإيجاز .

الفصل الثاني : ترجمة داود بن جرجيس ، ومنهجه في كتابه (صلح الإخوان) .

---

[7] وبعد مقابلة هذه الطبعة مع طبعة أنصار السنة ، وجدت فيها بعض السقط ، والأخطاء ، وحذف بعض النصوص .

وفيه مبحثان :
المبحث الأول : ترجمة داود بن جرجيس .
المبحث الثاني : منهجه في كتابه (صلح الإخوان) .
وفيه مطالب :
المطلب الأول : منهجه في الاستدلال والعرض .
المطلب الثاني : منهجه في تقرير التوحيد .
المطلب الثالث : المآخذ العلمية والمنهجية والعقدية إجمالا .
الفصل الثالث : دراسة لبعض مسائل الكتاب المحقق .
وفيه خمس مسائل :
المسألـة الأولى : الفرق بين توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية .
المسألة الثانيـة : العذر بالجهل .
المسألة الثالثـة : حق الله وحق الرسول ، وخطورة الخلط بينهما .
المسألة الرابعـة: أسباب الشرك ، وذرائعه .
المسألة الخامسة : الأسباب ، المسلك الصحيح فيها ، وعلاقتها بالشرك .

الفصل الرابع : عرض موجز لتتمة الرد على كتاب (صلح الإخوان).
وفيه مبحثان :
المبحث الأول : الاستدلالات والشبه التي لم يسبق الرد عليها .
المبحث الثاني : استعراض مجمل لرد الشيخ الألوسي عليها .

القسم الثاني : التحقيق

وفيه فصلان :
الفصل الأول : التعريف بالكتاب .
الفصل الثاني : تحقيق الكتاب .
الخاتمة : وتتضمن أهم النتائج التي توصلت إليها من هذا البحث .
الفهارس التفصيلية .

منهج التحقيق :

* سلكت في تحقيق النص مسلك اختيار نسخة ، وجعلها أصلا ، وقد اخترت نسخة (م) ، وجعلتها الأصل ، وذلك لقلة أخطائها ، ولأنها مقابلة على أصل المصنف ، وقابلتها بالنسخة (خ) ، وأثبت الفروق في الحاشية ، وإذا كان هناك سقطا من (خ) وضعتـه بين معكوفتين [ ] ، أما إذا كان السقط من (م) فلم أثبته في الأصل إلا في حالات نادرة، إذا كان المعنى لا يتم إلا به ، وبينت ذلك في الحاشية .

* إذا كانت العبارة التي في (م) خلاف الصواب ، أثبتها ، وجعلتها بين معكوفتين [ ] وبينت الصواب في الحاشية . – إلا في حالات قليلة أثبت الصواب في المتن ، وجعلته بين معكوفتين [ ] - .

* اعتمدت الكتابة الإملائية الحديثة في كتابة المخطوط ، وصححت الأخطاء التي وقعت في بعض الآيات دون الإشارة إلى ذلك .

* قابلت النصوص المنقولة من كتب أخرى ، سواء كانت من كتب ابن تيمية أو ابن القيم أو غيرهما ، وإذا وجدت فروقا يحتاج إليها أثبت ذلك في الحاشية .

* أما ما أورده الشيخ عبداللطيف من النقول من " صلح الإخوان " ليرد عليه، فقمت بمقابلته على كتاب " صلح الإخوان " المطبوع ، وإذا كان هناك فروقا يحتاج إليها أثبته في الحاشية .

* ميزت كلام ابن جرجيس عن كلام الشيخ بوضعه بخط مغاير .

* صححت الأخطاء الإملائية ، والنحوية دون الإشارة إلى ذلك في الغالب .

* قابلت النسخ المخطوطة مع النسخة المطبوعة إتماما للفائدة ؛ وذلك لأن المطبوعة نسخة وحيده وتعتبر أصلا ، وستظل كذلك .

* عزوت الآيات بذكر رقم الآية واسم السورة ، وجعلت ذلك في الأصل بين قوسين ( ) حتى لا أثقل الحواشي.

* في تخريج الأحاديث : حاولت قدر الإمكان أن أختصر وأقتصر على القدر الضروري ، تفاديا لتطويل الكتاب ، وإثقال الحواشي ، فالأحاديث الموجودة في الصحيحين أو أحدهما أعزوه إليهما ، وأضيف مصدرا أو مصدرين حسب ما يتيسر ، وإذا كان الحديث في غيرهما توسعت قليلا في تخريجه ، ونقلت كلام الأئمة المتقدمين أو المتأخرين في تصحيحه .

* أما الآثار والنصوص الأخرى التي ينقلها الشيخ ، فإني بذلت جهدي في تخريجها وعزوها إلى مصادرها الموجودة ، أما إذا نقل المؤلف من مصدر أو كتاب لم أجده ، " كالكبائر " لابن القيم ، أو بعض النقول عن ابن تيمية ، فقد حاولت البحث عن نصوص مشابهة في كتب الشيخين ، وعزوت إليهما .

* فيما يتعلق بالمراجع

أ- حرصت كل الحرص على أن أوحد النسخة والطبعة لكل مرجع ، إلا في حالات قليلة ، وبينت ذلك في الهامش ، وذكرت الطبعات في فهرس المراجع .

ب- في الإحالة على تفسير الطبري اعتمدت النسخة التي حققها الشيخ أحمد شاكر –رحمه الله- ، أما ما لم يصل إليه فقد رجعت فيه إلى الطبعة الأخرى ، وذلك إذا كانت الآية في سورة بعد سورة إبراهيم .

ج- إذا تكرر ذكر المرجع ، وأمنت التباسه بغيره ، كتبته مختصرا ، وقد أسقط اسم المؤلف أحيانا ، كمنهاج التأسيس والتقديس ، أقول : المنهاج . وصلح الإخوان ، أقول : الصلح، واقتضاء الصراط المستقيم ، أقول : الاقتضاء، وهكذا .

د- قد أذكر اسم الكتاب بشهرته ، مثل : جامع البيان للطبري ، أقول : تفسير الطبري . وهكذا .

* ترجمت لغير المشهورين من الأعلام عند أول ورودهم في النص المحقق إلا في حالات قليلة ، وعندها أشير إلى مكان الترجمة . وإذا مر ذكر العلم في الدراسة ، وهو ممن ترجمت له في التحقيق فأحيل إلى التحقيق .

* عرفت بالمصطلحات والفرق والغريب التي رأيت أنه يحتاج إليه .

* أحيانا أكرر التخريج للحديث الواحد في أكثر من موضع ، إذا رأيت أن للاستدلال به أهمية .

* وضعت فهارس تفصيلية على النحو التالي :

- فهرس الآيات القرآنية .
- فهرس الأحاديث النبوية والآثار .
- فهرس الأعلام المترجم لهم .
- فهرس الفرق والطوائف.
- فهرس الألفاظ الغريبة ، والمصطلحات العلمية .
- فهرس الأماكن والبلدان .
- فهرس الشواهد الشعرية .
- فهرس المصادر والمراجع .
- فهرس الموضوعات .

وفي الختام أحمد الله –سبحانه وتعالى- على عونه وتوفيقه ، حيث يسر لي إتمام هذا البحث ، وسهل علي صعبه ، ثم الشكر موصول لفضيلة الشيخ/د. عبدالعزيز الشهوان الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث ، فكان لحسن إشرافه ، ودقة متابعته أكبر الأثر في إنجازه ، فله مني خالص الشكر والثناء ، ومن الله المثوبة والجزاء .

كما أتقدم بالشكر وخالص الدعاء لكل من أفادني من مشايخي الكرام ، أسأل الله العلي العظيم أن يجزيهم عني خير الجزاء .

ولا يفوتني أن أتقدم في هذا المقام بالشكر لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ممثلة في عمادة كلية أصول الدين ، وقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة على ما أتاحته لي من فرصة مواصلة طلب العلم الشرعي .

ولقد بذلت وسعي ، وهو جهد المقل ، فلله الحمد على توفيقه ، وأسأله سبحانه أن يوزعنا شكر نعمه ، وأن يرزقنا الإخلاص والسداد في القول والعمل .

والحمد لله رب العالمين . .

* * * * *

التمهيد

إن الصراع بين الحق والباطل سنة من سنن الله الكونية ، يبتلي –سبحانه-أهل الإيمان بأهل الشرك والطغيان ، يقول الشيخ أحمد بن عيسى[1] : " إن خروج المناوئيـن لدعـوة الرسل وأتباعهم ، وإثـارتهم الشبـه تارة ، والأحقاد أخرى ، أمر قدره الله عز وجل وشاءه وقضاه ، وصبغه بحكمته البالغة في الكمال منتهاه ، وسيَّره سنة في الأمم لا تخرج عنه ولا تتعداه .

وقـد سبق في علم الله : أن العاقبة للمتقين ، والدائرة على الضالين المكذبين ، ولكن الله سبحانه أراد أن يمحص المؤمنين ويبلوهم ، ويختبر محبتهم له وصبرهم بتسليط هؤلاء

---

[1] هو : الشيخ العلامة أحمد بن إبراهيم بن حمد بن عيسى من قبيلة بني زيد القضاعية ، ولد في بلدة شقراء سنة (1253هـ) ، ولي قضاء سدير ، وتوفي بها سنة (1329هـ) له عدة مؤلفات منها " شرح نونية بن القيم "، " تنبيه النبيه والغبي في الرد على المدارسي والحلبي " ، " الرد على شبهات المستعينين بغير الله" . انظر: مشاهير علماء نجد وغيرهم لعبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ (ص185) ، الأعلام للزركلي (1/89) .

المناوئين عليهم، وسومهم بأنواع العذاب على أيديهم، قال الله تعالى : (فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ) (الصف:14)"[1].

وقد لبس الشيطان على كثير من الناس فأوقع في قلوبهم الشبهات التي أظهر لهم أنها تدل على جواز صرف العبادة لغير الله تعالى ، ثم سعى بعض أهل الضلال والزيغ بترويج هذه الشبهات فألفوا فيها كتبا ورسائل تدافع عن شرك من عبد مع الله غيره ، وتبحث لهم عن المسوغات ولو كانت أوهى من خيط العنكبوت ، فاغتـر بتلك المؤلفـات بعض جهلـة الخلـق وظنـوا أن فيهـا حججا وبراهينا ، وإنما هي في الحقيقة أوهام وظنون وخيالات ، ومعارضة لآيات بينات ، وحجج قاطعات كلها تمنع من صرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله تعالى .

وتعتبر الشبهات من أهم أسباب انتشار عبادة غير الله – سبحانه وتعالى –

وهذه الشبهات يتناقلها اللاحق عن السابق ، وتتخذ أشكالا مختلفة ، ولكن الحملة واحدة ، والطريق قديمة سابلة ، ولها وراد ودعاة على جنباتها ، إذا صرخ داع تجاوب الجميع بالصراخ[2].

وبعد التتبع لشبههم تبين لي أنه لا يوجد لديهم دليل صحيح صريح ، وإنما يأخذ لاحقهم عن سابقهم تقليداً أعمى ، ويردد ما ردده من قبله دون أي تحقيق .

يقول شيخ الإسلام بن تيمية- رحمه الله - : " وحججهم كلها يشبه بعضها بعضاً ، ليست من حجج علماء المسلمين ولا ينقلونها ولا موجبها عن أحد من أئمة الدين ، بل هي من جنس حجج النصارى والمشركين .

إما نقل عن الأنبياء هو كذب عليهم ، كالأحاديث التي يحتجون بها في أنه رغب في زيارة قبره ، وكلها كذب ...وإما ألفاظ متشابهة يحرفون فيها الكلم عن مواضعه ، ويضعونها على غير موضعها ، ويدعون المحكم المنصوص...وإما احتجاج بقول من ليس قوله حجة ولا يجب اتباعه...، وإما أحوال شيطانية .

وهذه حجج النصارى وأمثالهم ، وأهل الضلال المخالفين للأنبياء وأئمة الهدى ، كما قال تعالى : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا

---

[1] الرد على شبهات المستعينين بغير الله (ص5) .

[2] انظر : هذه مفاهيمنا للشيخ صالح آل الشيخ (ص5) .

تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) (المائدة:77) ، فلا نقل مصدق ولا بحث محقق ، بل هذيان مزوق "[1].

ويقول الشيخ حمد بن معمر[2]: " فمن كان عنده في هذا أثر أو حرف واحد في ذلك فليوقفنا عليه . نعم يمكنهم أن يأتوا عن الخلوف الذين يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون بكثير من المختلقات ، والحكايات الكذوبات ، حتى لقد صنف في ذلك مصنفات ليس فيها حديث صحيح عن رسول الله ، وإنما فيها التمويهات ، والحكايات المخترعات ، والأحاديث المكذوبات"[3].

وقد تبع بعضهم بعضاً حتى بالعزو الخاطئ إلى الكتب ، يقول الشيخ صالح آل الشيخ في الرد على المالكي[4] : " ووهم أيضاً في توثيق النقل من المستدرك، فذكره مرتين (جـ2 ص 651) وهذا قلب وخطأ ، وليس سبق قلم لأنه تكرر مرات ، ثم طالعت رسالة " إعلام النبيل" لواعظ بالبحرين ، فوجدته عزاه كما هنا (جـ2 ص651) وقد طبع قبل المفاهيم ، فتأمل تواردهم على التقليد في كل شيء ! وصواب التوثيق (2/615) ، والمستدرك لم يطبع إلى هذه السنة إلا طبعة هندية واحدة "[5].

لذا كان لزاما على أهل السنة الاهتمام بنشر كتب السلف في الردود ، فهي دافعة لكل ما يورده الخلف من شبه ، وإن كان هذا لا يمنع من استحداث ردود أخرى حسب ما تقتضيه الحاجة ، وكما هو منهج السلف .

---

[1] الرد على الإخنائي بتحقيق أحمد بن مونس العنزي (ص385-386).

[2] هو : الشيخ العلامة حمد بن ناصر بن عثمان بن معمر التميمي ، ولد في العيينة ، وتتلمذ على يد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، وبعثه الإمام سعود بن عبد العزيز إلى مكة مشرفا على أحكام قضاتها ، فتوفي بها سنة (1255هـ) ، له عدة مؤلفات منها " الفواكه العذاب في الرد = =على من لم يحكم السنة والكتاب " ، " الرد على القبوريين" . انظر: و مشاهير علماء نجد (ص157-160) ، الأعلام (2/273-274) .

[3] النبذة الشريفة النفيسة في الرد على القبوريين للشيخ حمد المعمر (ص73) ، وانظر: الرد على شبهات المستعينين بغير الله للشيخ أحمد بن عيسى (ص83-84) .

[4] هو : محمد بن علوي بن عباس المالكي ، تخرج في كلية أصول الدين في الأزهر ونال درجة الدكتوراه في الحديث الشريف ، مؤلف معاصر ، من الدعاة إلى عقائد القبورية ، له عدة مؤلفات.

[5] هذه مفاهيمنا للشيخ صالح آل الشيخ ص21

* * *

المبحث الأول
مقارنة بين شبه المتقدمين ، وشبه المعاصرين

بعد أن جمعت أكثر شبهاتهم التي يتناقلونها وجدت أنها تنقسم أربعة أقسام وبيانها في المطالب التالية :

المطلب الأول : أدلة صحيحة غير صريحة .

وهي قسمان :

القسم الأول : الآيات القرآنية .

القسم الثاني : الأحاديث والآثار .

المطلب الثاني : أدلة صريحة غير صحيحة .

وهي قسمان :

القسم الأول : الأحاديث الضعيفة والموضوعة .

القسم الثاني : الآثار والحكايات والمنامات .

المطلب الثالث : الأقيسة العقلية .

المطلب الرابع : تشنيعهم واتهامهم لأهل السنة . ويسمونه :

" الرد على شبه المانعين ".

وأعني بالمتقدمين أعداء دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذين عاصروه ومن أتى بعدهم ، ومنهم داود بن جرجيس ، وأعني بالمعاصرين من يثير الشبهات في وقتنا الحاضر .

وقد سلكت في هذا التمهيد المنهج التالي :

أذكر الشبهة ، ثم أذكر استدلال داود ابن جرجيس بها في " صلح الإخوان "، ثم أذكر من استدل بها بعده من المبتدعة كالنبهاني[1] ، ودحلان[2] ، والدجوي[3] ، حسب ما يتيسر ، وفي بعض الشبهات أنقل كلام السبكي[4] ؛ لأبين أنهم مقلدون يأخذ اللاحق عن السابق ، ثم أذكر استدلال بعض المعاصرين بها ،

---

[1] هو : يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني " نسبته إلى بني نبهان " من عرب البادية بفلسطين ، ولد في فلسطين ، وتعلم بالأزهر ثم رجع إلى الشام وتوفي بها سنة (1350هـ) . قال صاحب معجم الشيوخ : " له مؤلفات خلط فيها الصالح بالطالح ، وحمل على أعلام الإسلام= =كابن تيمية وابن قيم الجوزية حملات شعواء ، وتناول بمثلها الإمام الألوسي المفسر ، له عدة مؤلفات منها : " شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق" . انظر: معجم المؤلفين (4/145) ، الأعلام للزركلي (8/218) .

[2] هو : أحمد بن زيني دحلان ، كان من ألد خصوم الدعوة السلفية ، ولد بمكة وتولى التدريس والإفتاء فيها، توفي في المدينة سنة (1304هـ) . انظر: الأعلام للزركلي(1/129) ، معجم المؤلفين (   ).

[3] هو : يوسف الدجوي من علماء الأزهر ، له عدة مؤلفات ، كان من أئمة القبورية ، توفي سنة (1365هـ) . انظر : الأعلام (8/216).

[4] انظر ترجمته (ص365) .

واعتمدت على ثلاثة مصادر للمعاصرين ، وإن رجعت إلى غيرها، وهي:

1- كتاب " مفاهيم يجب أن تصحح "[1] لمحمد علوي مالكي .
2- كتاب " الأجوبة الغالية في عقيدة الفرقة الناجية " لزين العابدين العلوي الحسيني[2] .

كتاب " الإغاثة بأدلة الاستغاثة " لحسن السقاف[3].

المطلب الأول : أدلة صحيحة غير صريحة

وأعني بها ما استدلوا به من القرآن وصحيح السنة وزعموا أنه يدل على جواز صرف نوع من العبادة لغير الله ، وسأبين أن اللاحق قلد السابق في ذلك[4].

القسم الأول : **الآيات القرآنية**

لقد تعلق القبوريون بعدة آيات زعموا أنها تدل على ما ذهبوا إليه ، وسلكوا في استخراج هذه الآيات مسلك أهل البدع ، حيث يعتقدون ثم يبحثون عما يؤيد هذا الاعتقاد من الكتاب والسنة ، وما من مبتدع إلا ويدعي أن لديه أدلة من القرآن أو السنة حتى تقبل بدعته ؛ ولذلك لا نجد فرقة من الفرق الضالة ، ولا أحدا من المختلفين يعجز عن الاستدلال على مذهبه

---

[1] وهذا الكتاب له أهمية خاصة عندهم ، يقول شمس الدين الأفغاني في " جهود علماء الحنفية " : "هذا الكتاب لون آخر في الدعوة إلى القبورية بأسلوب ماكر شاطر ، ويتظاهر بالحب لشيخ الإسلام " (3/1822) ، والمالكي من أخطر المبتدعة المعاصرين ، وقد أدرك العلماء خطره وانبروا في الرد على مؤلفاته ، وممن رد عليه :

الشيخ إسماعيل الأنصاري في كتاب " القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل " وهو رد على كتابه " حول الاحتفال بالمولد النبوي ".

والشيخ عبد الله بن منيع في كتاب " حوار مع المالكي في رد منكراته وضلالاته " ، وهو رد على كتابه " الذخائر المحمدية ".

والشيخ صالح آل الشيخ في كتاب " هذه مفاهيمنا " ، وهو رد على كتابه " مفاهيم يجب أن تصحح " .

[2] وهذا الكتاب يوزع على العامة ، مؤلف على طريقة السؤال والجواب ، وهو كتاب ميسر أشبه ما يكون من حيث الترتيب بكتاب " أعلام السنة المنشورة " ، ومؤلفه معاصر يدل على ذلك ما ورد في الكتاب : " وسئل المؤلف نفع الله به " (ص137) ، وعلى الغلاف مكتوب : " السيد= =العلامة الفقيه زين العابدين العلوي الحسيني . نفع الله به " ، وقد بحثت عن الاسم الحقيقي للمؤلف ، فقيل لي : إنه " سالم عمر بن حفيظ " أحد الدعاة المعاصرين إلى القبورية ، وللكتاب طبعة أخرى مثبت عليها اسمه، ولم أتمكن من الاطلاع عليها ، ويحظى هذا الكتاب بأهمية خاصة لديهم ، ويلقنونه للعوام .

[3] وهو قبوري معاصر ، يزعم اهتمامه بالسنة ، له مؤلفات في النيل من الأعلام ، خاصة الألباني -رحمه الله- .

[4] ولن أذكر الرد على هذه الاستدلالات- في الغالب- لأنه موجود في ثنايا البحث .

بظواهر من الأدلة ، والشأن والصواب في صحة الاستدلال لا بمجرد الاستدلال[1].

ولكن – ولله الحمد – لم ولن يجدوا آيات صريحة تجيز ما يفعلونه من شركيات ؛ لأن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلجأوا إلى التأويل الباطل ، وتتبع الشاذ من أقوال المفسرين .

يقول الشيخ مبارك الميلي[2]-رحمه الله- : " فأما تأويل النصوص فأكثره تحريف للكلم عن مواضعه ، وغض من مهابة ظواهرها وعظم مواقعها في النفوس ، وأما صرف أقوال العامة وأفعالها إلى غير ما أرادت منها فتغرير بها وإغراء لها على الباطل"[3].

وقد كرروا الاستدلال ببعض الآيات ، وتناقلوا وجه الاستدلال خلفاً عن سلف، ومما يدل على عدم وجود أدلة صريحة من القرآن تشتبه عليهم : أن مؤلف كتاب " الإغاثة بأدلة الاستغاثة "[4] لم يذكر دليلاً واحداً من القرآن ، بل غاية ما ذكر ورود تلك الأحاديث التي لم تخل من مقال ، كما سيتبين لنا في استدلالهم من السنة.

أما الآيات التي زعموا أنها تدل على جواز الطلب من الأموات والاستغاثة بهم وسؤالهم والتوسل بهم وبجاههم فمنها :

الآية الأولى : قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) (البقرة:89) .

استدلوا بهذه الآية على جواز التوسل بالذوات ، احتجاجاً بعمل اليهود حين استفتحوا بالنبي قبل وجوده أي : توسلوا به .

يقول ابن جرجيس : " ذكـر المفسرون أن اليهود كانوا يحاربون جيرانهم من مشركي العرب ، فتقول : " اللهم بحرمة

---

[1] انظر : هذه مفاهيمنا لصالح آل الشيخ (220).

[2] هو : الشيخ مبارك الميلي ، ولد بميلة في الجزائر ، وولي أمانة سر جمعية علماء الجزائر ، توفي سنة (1375هـ) ، له عدة مؤلفات منها " الشرك و مظاهره " ، " الجزائر" . انظر: معجم المؤلفين(3/13).

[3] الشرك ومظاهره (ص57) .

[4] وهو حسن السقاف –السابق الذكر- مؤلف معاصر من الدعاة إلى البدعة.

هذا النبي الذي يبعث في آخر الزمان إلا ما نصرتنا عليهم ، فينصرون "[1].

وقال المالكي : " أي يستنصرون ، والاستفتاح : الاستنصار . ثم ذكر قصة يهود خيبر ، وذكر الأثر عن ابن عباس " كانت يهود خيبر تقاتل غطفان ... الحديث "[2].

وقد رد هذا الاستدلال الشيخ عبد اللطيف في " المنهاج "[3]، وقبله شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- في " التوسل والوسيلة " ، حيث قال : " ومما يبين ذلك أن قوله تعالى : (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) إنما نزلت باتفاق أهل التفسير والسير في اليهود المجاورين للمدينة أولاً كبني قينقاع، وقريظة والنضير، وهم الذين كانوا يحالفون الأوس والخزرج ، وهم الذين عاهدهم النبي لما قدم المدينة ، ثم لما نقضوا العهد حاربهم ، فحارب أولاً بني قينقاع ، ثم النضير – وفيهم نزلت سورة الحشر – ، ثم قريظة عام الخندق ، فكيف يقال نزلت في يهود خيبر وغطفان ؟ فإن هذا من كذاب جاهل لم يحسن كيف يكذب ، ومما يبين ذلك أنه ذكر فيه انتصار اليهود على غطفان لما دعوا بهذا الدعاء ؛ وهذا مما لم ينقله أحد غير هذا الكذاب "[4].

الآية الثانية : قوله تعالى : (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) (البقرة: 45) .

ويستدلون بهذه الآية على جواز الاستعانة بغير الله ، يقول ابن جرجيس : "وأمرنا بالاستعانة بالأعراض ، قال تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ) ولم يقل : استعينوا بالله "[5]، وبالغ النبهاني في حمل هذه الآية لما يذهب إليه ، بل كفر بها من منع الاستعانة بغير الله حيث قال : " ومن قال : لا ينبغي الاستعانة بغير الله فقد كفر؛ لمخالفته نص الكتاب في قوله تعالى :(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ)"[6].

وتبعهم على ذلك المالكي حيث قال : " وكيف تنكر الاستعانة بغيره تعالى ، وقد جاء الأمر بها في مواضع كثيرة

---

[1] صلح الإخوان (ص47) ، المنحة الوهبية (ص31) .
[2] مفاهيم يجب أن تصحح (ص51) ، وينظر في تخريجه (ص 709) من هذا البحث.
[3] انظر (ص 709-ومابعدها) .
[4] مجموع الفتاوى (1/ 299-300) .
[5] صلح الإخوان (ص138) .
[6] شواهد الحق للنبهاني (451) .

من الكتاب والسنة ، قال تعالى : (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ) ".[1]

وقد تشبثت القبورية بكل نص من نصوص الكتاب والسنة يدل على جواز استغاثة بعض الناس ببعضهم ، والاستنصار والاستعانة فيما هو داخل تحت القدرة والاستطاعة ، وبرروا بها شركهم ، وبمثل هذا الاستدلال استدلوا بقوله تعالى: (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ) (القصص: 15)[2].

الآية الثالثة : قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً) (النساء:64).

استدلوا بهذه الآية على جواز طلب الدعاء من الرسول – صلى الله علية وسلم- بعد موته[3] ، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب القبورية من الاستدلال بهذه الآية ، بل هي عمدتهم في الاستدلال ، وينقل وجه الاستدلال خلفهم عن سلفهم فمثلاً : يذكرون قصة العتبي[4] ، ويزعمون أن السلف نقلوها في كتبهم.

يقول ابن جرجيس : " فلو كان نداء الأموات والطلب منهم للشفاعة محذوراً، لم يستحسنها العلماء المتقدمون ، ولا يستحسن نقلها في كتاب "[5].

ويقول المالكي : " هذه قصة العتبي وهؤلاء الذين نقولها ، وسواء أكانت صحيحة أم ضعيفة من ناحية السند الذي يعتمد عليه المحدثون في الحكم على أي خبر ، فإننا نتساءل ونقول ، هل نقل هؤلاء الكفر والضلال ..؟ أو نقلوا ما يدعو إلى الوثنية وعبادة القبور؟! إذا كان الأمر كذلك فأي ثقة فيهم أو في كتبهم. سبحانك هذا بهتان عظيم"[6].

---

[1] مفاهيم يجب أن تصحح لمحمد علوي المالكي (ص96) ، وممن استدل بهذه الآية أيضاً القضاغي في البراهين (ص383) .

[2] استدل بها ابن جرجيس في صلح الإخوان (ص46) ، والنبهاني في شواهد الحق (ص) .

[3] استدل بها السبكي في شفاء السقام (86-87 ، 182) ، وزيني دحلان في خلاصة الكلام (ص247) ، والغماري في الرد المحكم (ص44) ، والمالكي في المفاهيم(ص) ، وزين العابدين العلوي الحسيني في الأجوبة الغالية (ص 55-57) ، وعبد الحميد طهماز في الفقه الحنفي في ثوبه الجديد (1/523) .

[4] انظر القصة وتفصيل الرد عليها (ص 365- ومابعدها) من هذا البحث .

[5] صلح الإخوان (ص54) .

[6] المفاهيم للمالكي (72- 73) .

وقال الحسيني: " وهذا صريح في اتخاذه وسيلة إلى الله تعالى؛ لقوله: "جاءوك" وقوله : "واستغفر لهم الرسول" ، ولولا ذلك فما الفائدة من قوله جاءوك؟!"[1].

الآية الرابعة : قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة:35).

وقد استدلوا بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة بالصالحين ، وجعلهم وسيلة بين الله تعالى وبين العباد ، والقسم على الله تعالى بهم ، وعلى الطلب من الموتى والغائبين دعاء الله تعالى[2] .

يقول ابن جرجيس : " فظاهر الآية عام في الأفعال والذوات ومن ادعى التخصيص بأحدهما فقد تحكم "[3] .

ويقول صاحب " المفاهيم " : " ولفظ الوسيلة عام في الآية كما ترى ؛ فهو شامل للتوسل بالذوات الفاضلة من الأنبياء والصالحين في الحياة وبعد الممات ، وبالإتيان بالأعمال الصالحة على الوجه المأمور به ، وللتوسل بها بعد وقوعها"[4].

ويقول الحسيني : " فهذا أمر من الله تعالى بابتغاء الوسيلة ، وهي كل ما جعله الله سبباً للزلفى عنده ، ووصلة إلى قضاء الحوائج منه.

ثم قال : والآية عامة فتشمل وسائل الأعمال الصالحة ، والعمال الصالحين، أي : الذوات الفاضلة ؛ كالنبي ، وسائر الأولياء المتقين "[5].

القسم الثاني : الأحاديث والآثار الصحيحة

الدليل الأول : ما روى أنس بن مالك رضي الله عنه : " أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس... الحديث"[6].

---

[1] الأجوبة الغالية (ص55-57) .

[2] منهم : داود بن جرجيس في المنحة الوهبية (ص25-30) ، صلح الإخوان (ص45) ، والنبهاني في شواهد الحق (ص41-42) ، والكوثري في المقالات (378- 379) ، القضاعي في البراهين (ص392) ، المالكي في المفاهيم (ص 54) .

[3] صلح الإخوان (ص45).

[4] هذه مفاهيمنا (ص45) .

[5] الأجوبة الغالية (ص54).

[6] حديث صحيح رواه البخاري ، وسيأتي تخريجه ص (454) .

وقد احتج بهذا الحديث كثيرون لإثبات جواز التوسل بالذوات ، وبعضهم احتج به على جواز الاستغاثة بغير الله تعالى[1].

قال ابن جرجيس : " فإن ظاهره أن التوسل بذاته "[2] .

ويقول في موضع آخر: "ولو كان المقصود الدعاء لم يكن لتخصيص العباس فائدة، لأن في الصحابة من هو أفضل من العباس ، كعمر وعثمان وعلي وغيرهم، وإنما خص العباس لقربه من ذات رسول الله ، فكان التوسل به أنجح في المطلوب ، وكان التوسل به توسلاً بالنبي "[3].

وقرر المالكي هذا الاستدلال بقوله: " وهو بذلك قد توسل برسول الله على أبلغ الوجوه "[4].

وقال الحسيني : " وإنما توسل عمر بالعباس دون النبي ليبين للناس أن التوسل بغير النبي جائز لا حرج فيه "[5].

الدليل الثاني :- ما رواه عبد الله بن عمر في حديث الشفاعة ، وفيه أن رسول الله قال: " إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد، فيشفع ليقضى بين الخلق .. الحديث "[6].

يقول بن جرجيس : " فلو أن الاستغاثة بالمخلوق ممنوعة لما ذكرها النبي لأصحابه ولأمته ، ولذكرها بغير هذا اللفظ "[7].

ويقول السقاف : " وهذا تصريح بالاستغاثة بغير الله تعالى في أمر لا يملك تفريجه يومئذ إلا الله تعالى وحده ، وكلنا يعتقد أن النبي عبد من عبيد الله ليس له الملك يومئذ لأن (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) (غافر:16) ، واستغاثة الناس به بعد اتضاح الشرك من الإيمان يومئذ، وخصوصاً بسيدنا آدم الذي يعترف بأنه لا يستطيع ذلك ، ثم بمن بعده، من أكبر

---

[1] انظر: شفاء السقام للسبكي (ص71) ، صلح الإخوان لابن جرجيس (ص 79) ، شواهد الحق للنبهاني (137-138) ، المقالات للكوثري (380-388) ، اتحـاف الأذكيـاء للغماري (15-6) ، البراهين للقضاعي (ص342) ، التوسل لابن مرزوق (ص191) ، المفاهيـم للمالكي (69-71) .

[2] صلح الإخوان ص84 .

[3] المرجع السابق ص85 .

[4] مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي ص71 .

[5] الأجوبة الغالية ص58 .

[6] رواه البخاري [كتاب الزكاة / باب من سأل الناس تكثرا] (2/536) . انظر تخريجه : (ص593) .

[7] صلح الإخوان ص51 .

الأدلة وأنصعها وأصحها على أن الاستغاثة بغير الله تعالى ولو لم يكن المستغيث يملك النفع ليس شركاً ولا كفراً "[1].

وبالغ المالكي في بيان وجه الاستدلال من هذا الحديث حيث قال : " فهذا إجماع من الأنبياء، والمرسلين، وسائر المؤمنين، وتقرير من رب العالمين، بأن الاستغاثة عند الشدائد بأكابر المقربين من أعظم مفاتيح الفرج ، ومن موجبات رضا رب العالمين "[2].

ويقول الحسيني : " وفي ذلك أدل دليل على مشروعية الاستغاثة بغير الله "[3]. وقبلهم قال السبكي : " وفي التجاء الناس إلى الأنبياء في ذلك اليوم أدل دليل على التوسل بهم في الدنيا والآخرة ، وأن كل مذنب يتوسل إلى الله عز وجل بمن هو أقرب منه وهذا لم ينكره أحد "[4].

الدليل الثالث : - ويستدلون على بطلان وقوع الشرك بالحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي يقول : " إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم "[5].

يقول سليمان بن عبدالوهاب[6] : " ومما يدل على بطلان مذهبكم ما روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبدالله عن النبي .. الحديث "[7].

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن[8] : " وممن أورد هذه الشبهة عليه عبدالله المويس راعي حرمة ، وابن إسماعيل في

---

[1] الإغاثة بأدلة الاستغاثة ص19 ، وممن استدل بهذا الحديث : النبهاني في شواهد الحق (127-128)، القضاعي في البراهين (417) ، والكوثري في المقالات ص395. وانظر : المفاهيم للمالكي (69-71).

[2] مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي ص54 . وانظر ص86 . وقد ذكره السبكي في شفاء السقام ص220-232 .

[3] الأجوبة الغالية ص66.

[4] المرجع السابق ص333 .

[5] رواه مسلم [كتاب : صفة الجنة والنار/ باب : تحريش الشيطان](4/2166) ، والترمذي في السنن [كتاب البر والصلة / باب : ما جاء في التباغض] (4/330) ، والإمام أحمد في المسند (4/330) ، وابن حبان في صحيحه (3/270) .

[6] انظر ترجمته (448) .

[7] الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية لسليمان بن عبد الوهاب (ص45) .

[8] هو : الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ، يعد المجدد الثاني للدعوة السلفية، ولد في الدرعية (سنة1193هـ) ، وتوفي في الرياض (سنة1285هـ)، له عدة مؤلفات.
انظر: مشاهير علماء نجد (58) ، علماء نجد خلال ستة قرون (1/56) .

الوشم ، وسليمان بن عبدالوهاب في العارض ، وزعموا أن الأمة لا يقع فيها الشرك "[1].

وتابعهم على هذا محمد علوي المالكي حيث قال : " لأن هذه البلاد وبفضل الله طاهرة من كل رجس ، سالمة من كل شرك ، بإخبار رسول الله إذ قال : " إن الشيطان قد أيس أن يعبد في جزيرتكم – جزيرة العرب "[2].

ويقول الحسيني : " فقد صح الخبر عن سيد البشر أنه قال : " إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون ولكن في التحريش بينهم " رواه مسلم والترمذي والإمام أحمد . فهذه بشارة من الشارع عليه السلام ، بأن الله حفظ المصلين من عبادة غير الله ، فكان كما أخبر وهو الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى "[3].

وما من حديث صحيح يورده القبوريون إلا وقد حرفوا في وجه الاستدلال به ، ثم يتناقلون هذا التحريف .

الدليل الرابع : استدلالهم بأحاديث تبرك الصحابة بآثار الرسول ، على جواز التبرك بآثار الصالحين ، و الاستشفاع بهم وبآثارهم ، ويتناقلون هذا الاستدلال، يقول الحسيني : " يجوز التبرك بآثار الصالحين ، ولذلك أدلة كثيرة من جملتها ما ثبت من تبرك الصحابة رضي الله عنهم ، واستشفاعهم بآثار النبي في حياته وبعد مماته ، وفي ذلك أحاديث وآثار كثيرة ثم ذكر أحاديث تبرك الصحابة بآثار النبي "[4].

وقبله ذكر ابن جرجيس : " أن التوسل بالذوات بل والجمادات وقع كثيراً من الصحابة، بحضرة النبي ، وبعد وفاته، ومن الصحابة، والتابعين، فلنذكر منها ما اطلعنا عليه"[5] ، ثم ذكر أحاديث: الصحيح منها يدل على تبرك الصحابة بآثار النبي ، وهذا لا خلاف في جوازه .

ويقول المالكي : " ثبت أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتبركون بآثاره وهذا التبرك ليس له إلا معنى واحد ، ألا وهو : التوسل بآثاره إلى الله تعالى؛ لأن التوسل يقع على وجوه كثيرة لا على وجه واحد "[6].

---

[1] مجموعة الرسائل والمسائل (2/53) ، وقد استدل به السبكي في شفاء السقام (ص130) ، وابن جرجيس في صلح الإخوان (ص170) .
[2] المفاهيم للمالكي (ص27) .
[3] الأجوبة الغالية (ص89) .
[4] الأجوبة الغالية (ص47).
[5] صلح الإخوان (ص77) .
[6] المفاهيم للمالكي (ص62) .

الدليل الخامس : استدلالهم بأحاديث ترغيب المسلم في قضاء حاجة أخيه المسلم، والتيسير على المعسر ، والتفريج عن المكروب ؛ على جواز طلب الاستعانة والاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله[1].

الدليل السادس : استدلالهم بالأحاديث الدالة على سماع الأموات مثل حديث مخاطبة النبي لقتلى بدر ، وحديث سماع الميت لقرع النعال ليتوصلوا بذلك إلى جواز الاستغاثة بهم عند الكربات[2] .

وقد أفرد السبكي الباب التاسع من كتابه "شفاء السقام " لإثبات حياة الأنبياء والشهداء وسائر الموتى[3] ، وتبعه القبوريون إلى يومنا هذا .

فعقد ابن جرجيس " فصلاً فيما ورد عن النبي وأصحابه من معاملة الأموات معاملة الأحياء وطلب الاستخبار منهم" ، وأول حديث استدل به حديث أهل القليب[4]- قتلى بدر - .

ثم يأتي السقاف من المعاصرين ويكرر نفس الاستدلال حيث يقول : " فلا بد من عقد فرع لإثبات حياة الأنبياء في قبورهم فإذا اتضح ذلك تبين جواز خطابهم ومناداتهم لأنهم يسمعون"[5]، ثم يعقد فرعا آخرا – كما يسميه – في إثبات حياة سائر الأموات ، واستدل بما استدل به بن جرجيس ، ومن ذلك حديث أهل القليب السابق الذكر[6].

ويقول الحسيني : " وقد ثبت بأنهم أحياء في قبورهم ، وأن أرواحهم في حضرة ربهم ، فمن توسل بهم وتوجه إليهم توجهوا إلى الله تعالى في حصول مطلوبه ، فالمسؤل في الحقيقة هو الله وهو الفاعل الخالق دون سواه "[7] .

---

[1] انظر: صلح الإخوان (44-51) ، شواهد الحق للنبهاني (127-128) ، براهين القضاعي (ص442) ، مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي (ص86، 97) .
وانظر: جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية لشمس الدين الأفغاني(3/ 1256) .

[2] لنظر : (ص421) من هذا البحث .

[3] شفاء السقام (ص179) .

[4] صلح الإخوان (60 – 65) . والسبكي في شفاء السقام (ص179) .

[5] الإغاثة للسقاف (ص5) .

[6] المرجع السابق (ص8) ، وانظر البراهين للقضاعي (ص386) .

[7] الأجوبة الغالية (ص55) .

الدليل السابع : حديث الضرير – الأعمى- : وهو ما روي عن عثمان بن حنيف : أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي فقال : ادع الله أن يعافيني ، قال: " إن شئت دعوت لك ، وإن شئت أخرت ذلك فهو خير لك" . وفي رواية : "وإن شئت صبرت فهو خير لك " . فقال : ادع .

فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ، فيصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : "اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني توجهت بك إلى ربك في حاجتي هذه فتقضى لي ، اللهم فشفعه في وشفعني فيه ، قال : ففعل الرجل فبرأ "[1] .

استدلوا بهذا الحديث على جواز السؤال بالذوات الفاضلة ، كما استدلوا به على جواز دعاء الموتى والاستغاثة بهم ، ويذكرون معه قصة عثمان بن حنيف وتعليمه الرجل التوسل بهذا الدعاء بعد وفاة النبي ، وذكر بعضهم أن هذا الحديث أصرح حديث في الباب ، وأنه حجة قاصمة[2].

وقد اعتنوا بهذا الحديث عناية عظيمة ، وتشبثوا به ، ظناً منهم أنه يدل على ما ذهبوا إليه ، ولأهل السنة كلام في سند الحديث ، ومدى صحته ، وعلى توجيه الحديث لو صح ، وليس هذا مقام الرد عليه[3] - ولا يكاد يخل كتاب من كتبهم في القديم والحديث من الاستدلال بحديث الأعمى[4].

يقول ابن جرجيس : " قال المجوزون : فقوله يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي هذا نداء منه للنبي ، وطلب منه ، واستغاثة به ، وتوسل وتوجه ، والنبي كان غائباً ، فلو كان نداء الغائب شرك لكان النبي شرع لأمته الشرك "[5] .

ويقول السقاف : " ومن هذا الباب – سؤال الغير والاستغاثة بالأنبياء – ما جاء في الحديث الصحيح : أن الأعمى

---

[1] رواه الترمذي [كتاب الدعوات] (5/569) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وانظر للتوسع في تخريجه (ص 634) .

[2] ذكره إبراهيم السمنودي في : " سعادة الدارين في الرد على الفرقتين الوهابية والظاهرية" (179 – 180) .

[3] انظر : ص (634) وما بعدها .

[4] استدل به السبكي في شفاء السقام (175 – 179) ، عثمان بن منصور نقلاً عن " مصباح الظلام " (296) ، و زيني دحلان في : " خلاصة الكلام " (241 – 258) ، والكوثري في : "محق التقول" (379 ، 389) ، الغماري في : " إتحاف الأذكياء " (4 – 5) .

[5] صلح الإخوان (48 – 49) .

استغاث برسول الله أن يدعو الله له في رد بصره ، فلم يدع له وإنما علمه التوسل والاستغاثة بجاهه "[1] .

وقال في موضع آخر : " وأما قول من قال " إن ذلك ذريعة إلى الشرك والأفضل تركه" فنقول له : ليس كذلك لأن النبي لا يعلم الأمة ما يؤدي للشرك ، وفي ذلك تعطيل العمل بالأحاديث الصحيحة بحجة أنها ذريعة للشرك وهو كلام خطير جداً "[2] .

ويقول الحسيني : " ففي ذلك تصريح على استحباب التوسل والاستغاثة بذات النبي ، وليس هذا خاص بالرجل المذكور بل هو عام له ولغيره ، في حياته وبعد وفاته "[3].

المطلب الثاني : أدلة صريحة غير صحيحة

وهذه هي مادتهم ، وما يشحنون به كتبهم ، وغاية ما يستندون عليه :

القسم الأول : الأحاديث الضعيفة والموضوعة

الدليل الأول : حديث عرض الأعمال على النبي : وهو ما روي مرفوعاً عن سعد بن أبي وقاص-رضي الله عنه-: " حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، ووفاتي خير لكم تعرض أعمالكم علي فما رأيت من خير حمدت الله ، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم "[4] .

وقد احتجوا به على جواز دعاء النبي والطلب منه لعلمه بذلك ، ثم استدلوا بهذا الحديث على أن الموتى يعلمون بدعائهم فيجوز دعاؤهم[5] .

فقد عقد السبكي فصلاً في علم النبي بمن يسلم عليه واستدل بأحاديث منها حديث عرض الأعمال[6].

وعقد ابن جرجيس باباً في أن الأموات يعرفون من يسلم عليهم في قبورهم وتعرض أعمال الأحياء عليهم ، وتبين من نقوله أن حديث " عرض الأعمال " هو عمدة عامة القبورية

---

[1] الإغاثة بأدلة الاستغاثة للسقاف (ص20) . وانظر: مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي (ص52) .

[2] المرجع السابق ص3 .

[3] الأجوبة الغالية ص62.

[4] انظر تخريجه (ص684) .

[5] وممن استدل به السبكي في " شفاء السقام " (45 – 52) ، وعثمان بن منصور كما في "مصباح الظلام" (206) ، والنبهاني في " شواهد الحق " (ص 138) ، والغماري في " الرد المحكم" (ص181 – 186) .

[6] شفاء السقام (ص45) .

في استدلالهم[1]، ثم قال : " ويظهر لك من أحاديث العرض أن الأموات يدعون للأحياء ، ويتسببون لهم في جلب خير أو دفع سوء، هذا هو السنة الصحيحة الواجبة الاعتقاد ، ولم يعلم لهذا نكير إلا من جهل هذه الأخبار"[2].

ويقول المالكي : " فالحديث صحيح لا مطعن فيه ، وهو يدل على أن النبي يعلم أعمالنا بعرضها عليه ، ويستغفر الله لنا على ما فعلنا من سيء وقبيح، وإذا كان كذلك فإنه يجوز لنا أن نتوسل به إلى الله ، ونستشفع به لديه ؛ لأنه يعلم بذلك فيشفع فينا ويدعو لنا .. "[3]

وكذلك ذكره السقاف من ضمن الأدلة في جواز الاستغاثة ، حيث قال : "وإني أذكر حديث عرض الأعمال فيما يلي بين يدي أدلة الاستغاثة "[4].

وقد تعسف في محاولة تصحيحه[5].

الدليل الثاني : ما روي عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه - أنه قال: قال رسول الله : " إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : يا عباد الله احبسوا ، يا عباد الله احبسوا ، فإن لله حاضرا في الأرض سيحبسه "[6] .

قال ابن جرجيس : " كيف يعلم النبي أمته أن يطلبوا العون والدلالة من غير الله تعالى ، والله سبحانه أقرب من عباده ، فكيف ينادون العباد ويتركون القادر الذي بيده كل شيء ؟ ولكن النبي أعرف بالله من جميع خلقه ، يعلم أن الله يجري الأشياء بحسب العوائد ، ولهذا ترى العبد يطلب من الله سبحانه الشيء سنين فلا يعطيه إياه حتى يسببه على يد مخلوقه وهذا كثير جداً "[7]

---

[1] المرجع السابق (ص73) .

[2] المرجع السابق ص73 .

[3] المفاهيم (ص33) .

[4] الإغاثة (ص11 – 18) .

[5] وقد صنف عبدالله بن الصديق الغماري جزءاً حديثيا سماه " نهاية الآمال في صحة وشرح حديث عرض الأعمال" نقلاً عن الإغاثة للسقاف (ص13) .

[6] رواه أبو يعلى الموصلي في المسند (9/177) ، وابن السني في عمل اليوم والليلة (239-240) برقم (508) ، والطبراني بمعناه (10/267) . والحديث في سنده انقطاع ، وممن ضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (10/232) ، والألباني في الضعيفة برقم (655) .

[7] صلح الإخوان (ص52 – 53) ، وانظر شواهد الحق للنبهاني (ص174) ، وبراهين القضاعي (ص445) .

وقال السقاف : " ولو فرضنا جدلاً أن هذا الحديث الحسن موضوع، فكيف يجوز علماء الأمة وأهل الحديث هذا الأمر ويقولون : وقد جرب ذلك "[1].

وعنون له المالكي بعنوان " التوسل بغير النبي ﷺ " ، وقال : " فهذا توسل في صورة النداء "[2] .

الدليل الثالث : حديث توسل آدم بالنبي ﷺ : وهو ما رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر-رضي الله عنه - مرفوعاً : " لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لي ، فقال : يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال : يارب لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك فقال : غفرت لك ، ولولا محمد لما خلقتك "[3].

وقد احتج المبتدعة بهذا الحديث على جواز التوسل بذات النبي ﷺ، وقالوا: إنه توسل به قبل وجوده[4].

قال السبكي : " التوسل بالنبي ﷺ جائز في كل حال قبل خلقه وبعد خلقه ، ثم ذكر حالات ، وقال : أما الحالة الأولى قبل خلقه ويدل على ذلك آثار ثم ذكر هذا الحديث[5].

وقال الحسيني معقباً على هذا الحديث : " فآدم أول من توسل به ﷺ "[6].

وجعل المالكي هذا الحديث من نوع التوسل بالنبي ﷺ قبل وجوده موافقاً بذلك السبكي ، حيث قال : " وفي الحديث التوسل برسول الله ﷺ قبل أن يتشرف العالم بوجوده فيه "[7] .

القسم الثاني : الآثار والحكايات والمنامات

والآثار والحكايات غاية ما يتمسكون به ، فهي التي شحنت كتبهم ، وتناقلوها خلفا عن سلف لإثبات جواز الاستغاثة بالأموات عند الكربات ، بل لإثبات وجوبها وترجيحها على الاستغاثة بالله عز وجل ، فيذكرون أن فلاناً استغاث بالولي

---

[1] الإغاثة (ص22) .
[2] المفاهيم (ص69) . وانظر : جهود علماء الحنفية (3/ 1271) .
[3] الحديث موضوع ، انظر : تخريجه (ص704) .
[4] انظر : الرد على البكري (1/398) ، والإتحاف للغماري (ص5 – 7) .
[5] شفاء السقام (ص161 – 163) ، صلح الإخوان (ص47، 86) .
[6] الأجوبة الغالية (ص60) .
[7] المفاهيم (ص46 – 50) .

الفلاني فأغاثة ، وفلانا ذهب إلى قبر فلان فتعافى وقضى حاجته، موهمين الناس أنه لو لم تكن الاستغاثة بالأموات عند الكربات جائزة ونافعة في تحصيل المطلوب لما قضيت الحوائج عند قبورهم[1] .

والقوم لهم ولع عظيم بالحكايات ، وتقديس للرؤى والمنامات ، وتقديم لها على حكم الله ورسوله .

ومما يجدر ذكره أن غالب هذه الحكايات والمنامات لا تصح عمن نقلت عنه ، وإنما هي من اختلاق سدنة القبور ليأكلوا بها أموال الناس بالباطل ، قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : " المنقول في ذلك : إما أن يكون كذباً على صاحبه ، وإما أن يكون المنقول من هذه الحكايات عن مجهول لا يعرف "[2].

ومنها :

الأثر الأول : أثر فتح الكوة[3]

وهو ما روي أن أهل المدينة قحطوا قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت : " انظروا قبر النبي فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف " ، قال : ففعلوا ، فمطروا مطراً حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمي عام الفتق[4] .

---

[1] جهود علماء الحنفية (3/ 1237) .

[2] منهاج السنة (2/ 451) .

[3] وهذا الأثر لم يرد عليه الشيخ عبد اللطيف ، إلا أنه رد على قصة فتح تستر وهي مشابهة له ، فيقول داود : " وهذا شبيه بصنيع سيدتنا عائشة بإبراز قبره الشريف " ص56 .

[4] رواه الدارمي في سننه (1/43) ، جاء في " تلخيص الاستغاثة " : " ما روي عن عائشة – رضي الله عنها – من فتح الكوة من قبره إلى السماء لينزل المطر فليس بصحيح ، ولا يثبت إسناده ، وإنما نقل ذلك من هو معروف بالكذب ، ومما يبين كذب هذا أنه في مدة حياة عائشة لم يكن للبيت كوة بل كان على عهد النبي بعضه مسقوف وبعضه مكشوف ، وكانت الشمس تنزل فيه كما ثبت في الصحيحين عن عائشة " أن النبي كان يصلي العصر والشمس في حجرتها لم يظهر الفيء من حجرتها " صحيح البخاري (كتاب مواقيت الصلاة/ باب وقت صلاة العصر) (2/201).

ولم تزل الحجرة كذلك حتى زاد الوليد بن عبد الملك في المسجد...، وإلا فهي قبل ذلك كانت خارج المسجد في حياة النبي وبعد موته." (68-69) .

وقال الألباني : وهذا سند ضعيف لا تقوم به حجة . " التوسل أنواعه وأحكامه ص 139 ".

وقد احتجت به القبورية على جواز التوسل بالذوات[1] ، يقول ابن جرجيس : " ولم تكن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تفعل هذا من قبل نفسها إذ ليس للرأي في هذا مجال فلا بد أنها سمعت ذلك من رسول الله "[2].

وقال المالكي : " فهذا توسل بقبره لا من حيث كونه قبراً ، بل من حيث كونه ضم جسد أشرف المخلوقين ، وحبيب رب العالمين ، فتشرف بهذه المجاورة العظيمة "[3].

وقال السقاف : " قلت : وهذا صريح أيضاً بإسناد صحيح بأن السيدة عائشة رضي الله عنها استغاثت بالنبي بعد موته ، وكذا جميع الصحابة الذين كانوا هناك وافقوها وفعلوا ما أرشدتهم إليه "[4].

الأثر الثاني : أثر خازن عمر - مالك الدار -

وهو ما روي عن مالك الدار – وكان خازن عمر على الطعام – قال : أصاب الناس قحط في زمن عمر فجاء رجل إلى قبر النبي فقال : يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا ، فأتي الرجل في المنام فقيل له ائت عمر فأقرئه السلام ، وأخبره أنكم مسقون ، وقل له : عليك الكيس الكيس ، فأتى الرجل عمر فأخبره ، فبكى عمر رضي الله عنه ، ثم قال : " يارب ما آلو إلا ما عجزت عنه "[5] .

وروى سيف بن عمر التميمي في الفتوح أن الذي رأى المنام هو : بلال ابن الحارث المزني أحد الصحابة .

واستدلوا بهذا الأثر[6] على جواز طلب الدعاء من الرسول بعد وفاته ، ثم قاسوا عليه غيره .

---

[1] انظر : الرد على البكري (1/402) ، شفاء السقام للسبكي ص172 ، براهين القضاعي ص412 ، مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي ص66 – 67 ، صلح الإخوان ص55 – 56 .

[2] صلح الإخوان ص56.

[3] مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي ص66 .

[4] الإغاثة ص25 .

[5] ?ذكره الطبري في التاريخ (4/99) ، والبيهقي في دلائل النبوة (7/47) ، وابن كثير في البداية والنهاية (10/72-74) ، والذهبي في السير (17/429) . وانظر تخريجه (ص).

[6] استدل به السبكي في شفاء السقام ص174 – 175 ، وعثمان بن منصور كما في مصباح الظلام ص302 ، والقضاعي في البراهين ص411 ، والكوثري في محق التقول ص380 ، والمالكي في المفاهيم ص66 -67 ، والغماري في إتحاف الأذكياء ص10 .

يقول السبكي : " ومحل الاستشهاد من هذا الأثر طلبه الاستسقاء من النبي بعد موته في مدة البرزخ ، ولا مانع من ذلك فإن دعاء النبي لربه تعالى في هذه الحالة غير ممتنع "[1]

وقال ابن جرجيس : " فهو بعد وفاته ثبت أنه يدعو ، فما جاز طلبه في حياته لا مانع من طلبه بعده مع أنه قد ورد عن الصحابة الطلب منه بعد وفاته كما في حديث الرمادة وغيره ولم يرد نهي "[2].

وقال السقاف : " فهذا الحديث يثبت بلا شك ولا ريب إجماع من حضر من الصحابة في زمن سيدنا عمر مع سيدنا عمر رضي الله عنهم على جواز الاستغاثة بالنبي بعد موته ، ونحن مقتدون بالصحابة في ذلك "[3].

وقال الحسيني: " ومحل الاستدلال منه هو فعل بلال وهو صحابي ، ولم ينكر عليه عمر ذلك ، ولا غيره من أصحاب رسول الله ، ورضي الله عنهم"[4] .

المطلب الثالث : الأقيسة العقلية

وللمبتدعة الداعين للتوسل بغير الله ، ودعاء الموتى ، والاعتقاد بالقبور، والاستغاثة بأصحابها ، والمدافعين عن كل من يعبد مع الله غيره إذا كان يتسمى بالإسلام أقيسة عقلية ، أرادوا بها إثبات مشروعية ما يقومون به وما يقوم به عوامهم من شركيات .

وسأذكر بعض أقيستهم الفاسدة وأبين كيف تلقفها خلفهم عن سلفهم[5] تاركة الرد – في الغالب - على ذلك في ثنايا التحقيق ودراسة المسائل .

الشبهة الأولى : شبهة الشفاعة

ولهذه الشبهة عندهم عدة صور :

1-أن الصالحين يشفعون لمن استغاث بهم عند الله ، والله يقبل شفاعتهم فتقضى حوائجهم .

2-أن هناك فرقا بين المشركين الذين اتخذوا أصناما شفعاء لهم لتقربهم إلى الله زلفى ، وبين المسلمين الذين يطلبون الشفاعة من الأنبياء والأولياء ، فالأصنام لا كرامة

---

[1] شفاء السقام ص174 .

[2] صلح الإخوان ص47 ، وانظر ص50 – 51 .

[3] الإغاثة ص25 .

[4] الأجوبة الغالية ص59 .

[5] لن أتعرض للرد على الشبه هنا ، إذ سيأتي تفصيل ذلك في ثنايا التحقيق ودراسة المسائل .

لها عند الله ، فلا يصح قياس موحد يستغيث بالأولياء على مشرك يعبد الأحجار .

3-أن شرك المشركين بسبب اعتقادهم أن أصنامهم لها تأثير من دون الله أما نحن – المبتدعة – فلا نعتقد التأثير إلا لله وحده .

4-أن الله أعطى الشفاعة لبعض خلقه وملكها إياهم ، فلا مانع من طلبها منهم[1]، يقول السبكي: " والمقصود جواز أن يسأل العبد الله تعالى بمن يقطع أن له عند الله قدر أو مرتبة "[2].

وقال ابن جرجيس : " (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً) (الزمر: 44) ، فهي رد على الكفار لا على المسلمين الذين يتشفعون بالأنبياء والصالحين الذين أثبت الله لهم الشفاعة "[3]. وقال في موضع آخر: " فأهل لا إله إلا الله يشفعون ، والله سبحانه ملكهم ذلك وأعطاهم ، وسؤال من يملك شيئاً مما يملكه ليس يمتنع ، بخلاف الكفار فإنهم جعلوا الشفاعة في غير موضعها وهي الأصنام من أحجار وأخشاب ، ولهذا رد الله عليهم أنهم لا يملكون الشفاعة "[4].

ويقول : " فكيف يشبهون هؤلاء[5] الإسلام بأولئك الكفار المعتقدين أن مع الله آلهة أخرى ، ويشبهون الأنبياء والشهداء بالأنصاب والأصنام ، يا ويلهم من الله وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون !!"[6].

وبمثل هذا القول قال المالكي في " مفاهيمه " : " كذلك الشفاعة كلها له – أي لله – وقد أعطاها للأنبياء وعباده الصالحين ، بل وكثير من عامة المؤمنين كما نطقت به صحاح الأحاديث المتواترة معنوياً ، وأي حرج في أن يطلب الإنسان من المالك بعض ما يملكه "[7].

---

[1] وممن أورد هذه الشبهة : السبكي في شفاء السقام (ص 146) ، والعراقي في صلح الإخوان (136-144) ، النبهاني في شواهد الحق (151-152) ، القضاعي في البراهين (387-390) ، ابن مرزوق في التوسل (ص37) . وانظر في تفنيدها : المجموع المفيد في نقض القبورية ونصرة التوحيد للدكتور: محمد الخميس (ص18-19).

[2] شفاء السقام ص163 .

[3] صلح الإخوان ص136 .

[4] صلح الإخوان ص136 .

[5] هكذا في المطبوع ولعلها "أهل" .

[6] صلح الإخوان (141 – 149) .

[7] مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي ص78 .

ويقول في موضع آخر : " وقد عرفت أن اتخاذ المعظم وسيلة إلى الله تعالى لا يكون عبادة للوسيلة إلا إذا اعتقد أنه رب ، كما كان ذلك شأن عباد الأوثان مع أوثانهم ".[1]

الشبهة الثانية : شبهة الوساطة

وفحوى هذه الشبهة : أن الإنسان إذا كان ملطخا بالذنوب فهو بعيد عن الله لا يصل إليه إلا بواسطة أحبابه .

يقول ابن جرجيس : " أما أولياء الله الذين أخبر الله عنهم أنهم أولياءه فمما وجب على المسلمين اتخاذهم " . ويقول : " وأما التقريب إلى الله تعالى فلا يشك فيه مسلم . فهل يشك أحد أن الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ما قربوا إلى الله زلفى ؟! وقد نسب الله التقريب زلفى إلى كل مؤمن .."[2].

وبمثل هذا القول أجاب الحسيني في " الأجوبة الغالية " ، حيث قال : " كما أنه يجوز للإنسان أن يرفع مسألته إلى الله بلا توسط أحد ، يجوز أيضاً أن يوسط في ذلك من جعله الله سبباً لقضاء حوائج عباده من أحبابه تعالى ، وأيضاً فإن الإنسان يرى نفسه ملطخاً بالمعاصي أبعدته عن الله تعالى ، فهو جدير بالحرمان من تحقيق مطالبه وقضاء حاجاته ، فلأجل هذا يتقدم إليه تعالى بالمحبوبين عنده مبتهلاً إليه بجاههم وحرماتهم لديه أن يقضي له حاجاته لأجل هؤلاء الأحباب الذين لا يعرفون إلا طاعة الله "[3].

ويقول المالكي: " فالواسطة لا بد منها وهي ليست شركاً، وليس كل من اتخذ بينه وبين الله واسطة يعتبر مشركاً"[4].
ويقول أيضا: " أن المتوسل ما توسل بهذه الواسطة إلا لمحبته لها واعتقاده أن الله سبحانه وتعالى يحبها "[5].

الشبهة الثالثة : المجاز العقلي

أكثر القبوريون من تبرير فعل من يطلب من غير الله ، وتسويغ ما يقوله المتوسلون بالذوات والجاه والحرمة ونحوها ، وكذا ما يقوله المتخذون رسول الله والصالحين واسطة بينهم

---

[1] المرجع السابق ص71 .
[2] صلح الإخوان ص142 .
[3] الأجوبة الغالية (ص63 – 64) .
[4] المفاهيم (27 – 28) .
[5] المرجع السابق (ص43) . وانظر في هذه الشبهة : التوسل لابن مرزوق ص193 ، شواهد الحق للنبهاني ص139 – 141 .

وبين الله في الدعاء والشفاعة وغير ذلك من جلب خير أو دفع ضر بحجة المجاز العقلي .

وقد تصوروا بعقولهم أن من دعا غير الله تعالى ، فتلفظ بألفاظ توهم أنه يعتقد التأثير لغير الله تعالى ، فإنما يريد المجاز العقلي ، والقرينة على ذلك أنه مسلم موحد لا يعتقد التأثير إلا لله .

وقالوا : ينبغي حمل كلام المسلم على محمل حسن ، فإذا أسند فعلاً إلى غير الله تعالى وهو مما لا يصح إسناده إلا إلى الله تعالى ينبغي حمله على المجاز العقلي[1].

وهذه الشبهة من أعظم شبهاتهم قديماً وحديثاً ، وقد أكثر من ذكرها ابن جرجيس في "صلح الإخوان" ، وغيره من أئمة القبورية[2]، يقول ابن جرجيس : " وإذا لم تنسب الإغاثة إلى الله على الحقيقة ، ولغيره على التسبب والمجاز تكون ممنوعة "[3] .

ويقول دحلان : " مع أن تلك الألفاظ الموهمة يمكن حملها على الإسناد المجازي مجازا عقليا ، كما يحمل على ذلك قول : هذا الطعام أشبعني ، وهذا الماء أرواني ..كله عند أهل السنة محمول على المجاز العقلي ، فإن الطعام لا يشبع ، والمشبع الله ..فالمسلم الموحد متى صدر منه إسناد الشيء لغير من

---

[1] المجاز في اللغة : مكان الجواز.

وفي الاصطلاح : اللفظ المستعمل في غير ما وضع له ، لعلاقة بينهما مع قرينة صارفة عن قصد المعنى الأصلي . وقيل : اسم لما أريد به غير ما وضع له، لمناسبة بينهما ؛كتسمية الشجاع أسدا ، من جاز إذا تعدى ، سمي به لأنه متعد من محل الحقيقة إلى محل المجاز .

= وقيل : هو إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له ، أي : غير الملابس الذي ذلك الفعل أو معناه له ، يعني غير الفاعل فيما بني للفاعل وغير المفعول به فيما بني للمفعول .

وقيل : كل نسبة وضعت في غير موضعها بعلاقة فهي مجاز عقلي ، سمي به لتجاوزه عن مكانه الأصلي بحكم العقل ، ويسمى عقليا لا لغويا لعدم رجوعه إلى الوضع .

ويسمى مجازا حكميا ، ومجازا في الإثبات ، وإسنادا مجازيا ، يقول السكاكي في " مفتاح العلوم " : فالحكم في أنبت الربيع البقل ، يكون الإنبات فعلا للربيع مكانه الأصلي عند العقل كونه فعلا لله – عز وجل- .

انظر: التعريفات (315) ، الكليات (804-805) ، مفتاح العلوم للسكاكي (393).

[2] انظر على سبيل المثال البصائر للدجوي (50 – 53) ، جهود علماء الحنفية (2/ 1022) .

[3] الصلح (46) .

هو له ، يجب حمله على المجاز العقلي ، وإسلامه وتوحيده قرينة على ذلك "[1].

وتابعهم على ذلك متأخروهم ، مثل المالكي في "مفاهيمه" حيث يقول : "الاعتقاد الصحيح : أن الخالق للعباد وأفعالهم هو الله وحده ، فهو الخالق للعباد وأفعالهم ، لا تأثير لأحد سواه ، لا لحي ، ولا لميت ، فهذا الاعتقاد هو التوحيد المحض بخلاف ما لو اعتقد غير هذا فإنه يقع في الإشراك "[2] .

ويقول في موضع آخر : " وإذا وجد في كلام المؤمنين إسناد شيء لغير الله تعالى يجب حمله على المجاز العقلي ، ولا سبيل إلى تكفيرهم "[3].

الشبهة الرابعة : قياس حال الموت على حال الحياة

فيقولون يجوز التوسل والتشفع والتوجه بالأموات كما يجوز بالأحياء ؛ لأنه لافرق بينهما ، فليس للحي تأثير كما أنه ليس للميت تأثير ، ولأن المؤثر والفاعل هو الله وحده ، كما أن الأموات أحياء في قبورهم ، بل إن حياتهم وإدراكهم أكمل مما كان في الدنيا[4].

يقول داود : " وقد خلق الله فيهم قوة كاسبة أقلها الدعاء لمن تسبب بهم في إنفاذ مسؤلهم وهم في برازخهم و دار كرامتهم ، وقد تفضل الله بكل ذلك عليهم، وقد جعل الله الإغاثة في غيره قال تعالى : (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ) (القصص:15) ، فإن قال قائل هذا في الحي وهو له قدرة ، قلنا : لا يجوز نسبة الأفعال إلى أحد حي أو ميت على أنه الفاعل استقلالاً من دون الله ... "[5]

ويردد المالكي ما قاله أشياخه، حيث يقول : " إن الاستغاثة والتوسل إن كان المصحح لطلبها هو الحياة كما يقولون ؛ فالأنبياء أحياء في قبورهم ، وغيرهم من عباد الله المرضيين ، ولو لم يكن للفقيه من الدليل على صحة التوسل والاستغاثة به إلا قياسه على التوسل والاستغاثة به في حياته الدنيا لكفى ،

---

[1] خلاصة الكلام (245) .

[2] المفاهيم (ص16) .

[3] مفاهيم يجب أن تصحح (ص25) .

[4] انظر: دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لعبد العزيز آل عبد اللطيف (242). وقد سبق في نقل شبههم النقلية استدلالهم بأحاديث عرض الأعمال ، وحياة الأنبياء على جواز التوسل بهم .

[5] صلح الإخوان ص44-45 .

فإنه حي في الدارين ، دائم العناية بأمته ، متصرف بإذن الله في شؤونها ..."[1]

وقال الحسيني مقرا لما قاله دحلان في " خلاصة الكلام " : " والحاصل أن مذهب أهل السنة والجماعة جواز التوسل والاستغاثة بالأحياء والأموات ، لأننا لا نعتقد تأثيراً لهم في شيء وإنما يتبرك بهم ويستغاث بمقامهم لكونهم أحباء الله تعالى ، والذين يفرقون بين الأحياء والأموات هم الذين يعتقدون التأثير للأحياء دون الأموات"[2].

ويقول السقاف : " الاستغاثة عندي : هي الطلب من النبي قبل وفاته أو بعد وفاته – لأنه بعد وفاته حي كما أخبر يسمع وتعرض عليه أعمال أمته – أن يدعو الله تعالى في تلبية حاجة لصاحب الحاجة "[3].

ويقول : " فلابد من عقد فرع لإثبات حياة الأنبياء في قبورهم ، فإذا اتضح ذلك تبين جواز خطابهم ومناداتهم ؛ لأنهم يسمعون "[4].

الشبهة الخامسة : إنكار التفريق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية

وزعموا أن كفار قريش كفروا بربوبية الله عز وجل ولم يثبت لهم توحيدا ، وأنهم – أي عباد القبور – ينتفي عنهم الشرك لأنهم يقرون بربوبية الله عز وجل , وأن التفريق بين توحيد الربوبية والألوهية من ابتداع ابن تيمية وتابعه عليه محمد بن عبدالوهاب[5]، يقول ابن جرجيس : " اعلم أن الكفار والمشركين كانوا مشركين بالله أصنامهم في الربوبية والعبادة كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث ... فمن قال : إن الكفار يوحدون الله توحيد الربوبية أخذا من ظاهر بعض الآيات فقد أخطأ وما أصاب ، ولا مارس السنة ولا الكتاب وتدبر ما فيهما فالربوبية والألوهية متلازمان الرب والإله معناهما و مفادهما واحد ... والكفار لجهلهم بالله أشركوا غيره في الربوبية ... "[6]

---

[1] المفاهيم (ص91) .

[2] الأجوبة الغالية (ص66) . وانظر : خلاصة الكلام (344-345) .

[3] الإغاثة (ص4) ، وانظر: شفاء السقام (ص171-201) ، البراهين للقضاعي (ص386) ، التوسل لابن مرزوق (ص193) .

[4] المرجع السابق (ص5).

[5] انظر التفصيل في المسألة الأولى من الفصل الثالث .

[6] صلح الإخوان ص124. وانظر : الدرر السنية لزيني دحلان (40-41) – سعادة الدارين للسمنودي (20/2-23) ، مصباح الأنام للحداد (ص17) ، التوسل لابن مرزوق (20-54).

وقال الدجوي معلقا على قوله تعالى : (وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ) (الأنعام: 108) : " إن هذه الآية أدل الأدلة على هذا – عدم إقرار الكفار بالربوبية – فهل ترى للمشركين توحيداً بعد ذلك، أما التيميون[1] فيقولون بعد هذا كله إنهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية "[2].

واستدل المالكي أحد رؤساء القبورية المعاصرين بهذه الآية لإثبات أن المشركين لم يعترفوا بأن الله هو الخالق وحده ، وإثبات أن المشركين أشركوا آلهتهم في خالقية الله تعالى ، وذكر أن الكفار إذا غضبوا قابلوا المسلمين بالمثل فيسبون الله تعالى غيرة على تلك الأحجار التي كانوا يعبدونها ، يعتقدون أنها تنفع وتضر ، فيرمون الله بالنقائص ، وهذا واضح جدا في أن الله تعالى أقل منزلة في نفوسهم من تلك الأحجار التي كانوا يعبدونها ، ولو كانوا يعتقدون حقاً أن الله تعالى هو الخالق وحده ، وأن أصنامهم لا تخلق لكان على الأقل احترامهم له تعالى فوق احترامهم لتلك الأحجار.[3]

ويقول السقاف : " فليس في ذلك ما يتعلق في العقيدة ولا في التوحيد البتة ، إلا عند من يقول أن هناك توحيدان : توحيد ألوهية ، وتوحيد ربوبية ، وأنه من وحد توحيد ربوبية، ولم يوحد توحيد ألوهية فهو كافر . وهـذه مسألة اخترعها ابن تيمية ليكفر بها عباد الله تعالى وتبعه عليها محمد بن عبدالوهاب"[4].

الشبهة الخامسة: شبهة السبب

وهي زعمهم أن الاستغاثة بالأنبياء والأولياء من أعظم الأسباب لاجتلاب البركات واستنزال الخيرات ، والتوسل بهم من قبيل الأخذ بالأسباب ، وليس ذلك من باب الشرك بالله ، وذلك أن الله تعالى جعل الأولياء مفاتيح للخير ومنابع للبر ، وغاية ما يعتقد الناس في الأموات أنهم متسببون ومكتسبون كالأحياء . لا أنهم خالقون موجدون ، وقد تشبثت القبورية بهذه الشبهة قديما وحديثا[5].

---

[1] نسبة لابن تيمية .
[2] مقالات الدجوي (1/254).
[3] انظر : مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي (26-27).
[4] الإغاثة بأدلة الاستغاثة لحسن السقاف ص3 .
[5] انظر: شفاء السقام للسبكي ص176 – صلح الإخوان ص43 ، شواهد الحق للنبهاني ص138، المفاهيم (16-21).

يقول دحلان : " فالمؤثر والموجد حقيقة هو الله ، وهؤلاء سبب عادي في ذلك ، لا تأثير لهم ، وذلك مثل السبب العادي ، لا تأثير له "[6] .

ويقول الحسيني " إنما يتبرك بهم ، ويستغاث بمقامهم ، لكونهم أحباء الله تعالى الذين بسببهم يرحم الله عباده ، فلا فرق حينئذ بين كونهم أحياء أو أمواتا، فالفاعل في الحالتين هو الله على الحقيقة "[2].

الشبهة السادسة : حصر العبادة في بعض الأعمال الظاهرة

ومفادها أن العبادة محصورة في بعض الأعمال الظاهرة ، كالصلاة والزكاة والصوم وغيرها، وبناءً على ذلك أخرجوا الدعاء والاستغاثة من مفهوم العبادة، ووضعوا قيد آخرا في معنى العبادة ، وهو : اعتقاد الربوبية ، والاستقلال بالنفع والضر في المعبود .

قال ابن جرجيس : " ولكن أعداء الله الخوارج –الوهابية-... ترويجاً لبدعتهم، وحرصا على تكفيرهم المسلمين ، بنوا قواعد مذهبهم على أن نداء أهل القبور والتشفع بهم إلى الله عبادة ، وهو خطأ محض ، لأن النبي علمنا العبادة ، وهي الدين كما في حديث جبريل...ولا يتصور أن أحداً يؤمن بالله – يفعل شيئاً من هذه لأحد غير الله ، ولم يقل أحد إن النداء والتوسل عبادة ولا اخبرنا الرسول بذلك"[3].

ويقول الحسيني : " وأما ابتغاء المسلم إلى الله وسيلة ، وسؤاله إياه مستشفعا برسوله ، ونداؤه مستغيثا به، ونذره وذبحه لأحد من الأنبياء والأولياء بقصد التصدق عنه ، وتمسحه ، وطوافه بقبره ، فليس ذلك كله من عبادة غير الله بشيء، إذ لا يوجد في أحد من المسلمين من يعتقد ربوبية غير الله ، أو يعتقد النفع والضر والتأثير لأحد سواه"[4] .

المطلب الرابع : تشنيعهم واتهامهم لأهل السنة ، ويسمونه

" الرد على شبه المانعين "

---

[6] خلاصة الكلام لدحلان (245) .

[2] الأجوبة الغالية ص55 ، وانظر : شبهات أهل الفتنة وأجوبة أهل السنة لعبد الرحمن دمشقية ص37.

[3] صلح الإخوان ص144 .

[4] الأجوبة الغالية (43-44) .

ولأهل البدع منهج يسيرون عليه في الترويج لبدعتهم من خلال التشنيع على أهل السنة ويتضح ذلك من خلال ما يأتي :

1- التظاهر بالدعوة إلى وحدة المسلمين وعدم تفريق كلمتهم ، واتهامهم لأهل السنة بتفريق الكلمة ، وهذه دعوى براقة افتتح بها ابن جرجيس كتابه حتى سماه " صلح الإخوان " ، وفي الوقت الحاضر كل من رد على أهل السنة ، عاب عليهم تفريق الكلمة ، وإثارة الخلافات ، فالمالكي لما ألف " المفاهيم " زعم ما زعمه ابن جرجيس من إرادة الإصلاح ، حيث قال : " وليس لنا من وراء ذلك إلا الإصلاح وتوخي الصواب "[1]، ثم سمى من يدعو إلى العقيدة الصحيحة بما سماهم به أسلافه : من أنهم دعاة فتنة ، وفرقه حيث قال : "ولكن بعض المتطفلين من الدخلاء والعملاء الأجانب يحبون أن يصيدوا في الماء العكر ، فيشوهون الصورة ، ويشيعون الفتنة ، ويلبسون البرآء الذين لا يعرفون النفاق ثوب السوء وإرادة الشر وهم بهذا يفتحون باباً آخرا نحن في غنى عنه ويوجهون الأنظار إلى ما هي غافلة عنه"[2].

وكل من قرَّظ كتابه " مفاهيم يجب أن تصحح " رفع هذا الشعار ، يقول أحدهم : " ولكن أبى الشيطان إلا أن يبعثها جذعة بين المسلمين في الوقت الذي هم فيه أحوج ما يكون إلى الوفاق ونبذ الخلاف ، والتصدي لعدو دينهم كما أمرهم الله سبحانه وتعالى في قوله : (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) (التوبة:36) "[3].

2- تشنيعهم على أهل السنة فتح باب الاجتهاد ، والاستهانة بعلم السلف –زعموا–، وذلك أنه لا يتأتى لهم ترويج خرافاتهم إلا بالدعوة إلى التقليد الأعمى ، وزعمهم أن هذا اعترافا منهم بفضل السلف .

يقول بن جرجيس : " ولسنا من أهل الاجتهاد والادعاء ، ولا ممن يحكم عقله ويترك نصوص العلماء الذين هم نقلة الدين لنا خلفاً عن سلف ، ولولاهم ما عرفنا ديننا ، فمن ترك أقوالهم وركن إلى صرف عقله ، أو ظن بهم سوءً، أو خونهم فقد نبذ الدين وراء ظهره "[4].

---

[1] المفاهيم ص30 . وانظر في هذا الانحرافات لعلي الزهراني ص222 .

[2] المفاهيم ص28 .

[3] المفاهيم ص6 .

[4] صلح الإخوان ص4.

ويقول عبد الحميد طهماز – من المعاصرين - : " فعلينا أن نلتزم بأقوالهم وآرائهم، فهي دين الله تعالى وشريعته ، وهي أحسن ما نستطيع أن نصل إليه"[1].

ويقول صاحب الأجوبة الغالية : " ولم يبق لمن بعدهم إلا الرجوع إلى تلك الأحكام ، وتقليد هؤلاء العلماء والأعلام المشهورين بعلمهم لدى الخاص والعام"[2].

3- إنكارهم وجود الشرك في المنتسبين إلى الإسلام إنكـاراً قاطعاً ؛ لأن الشرك والعبادة لا يتحققان إلا باعتقاد الربوبية لغيره تعالى ، والاستقلال بالنفع والضر والإيجاد والخلق ، ونفوذ المشيئة لا محالة ، والتأثير بالذات دون الحاجة إلى الغير[3].

واتهامهم أهل السنة بتكفير المسلمين ، واستدلالهم بأحاديث عصمة الأمة على عدم وقوع الشرك ، ويقولون : إن المسلم الذي يقول : " لا إله إلا الله محمد رسول الله " ، ويصلي ، ويقيم الأركان الظاهرة ، لا يمكن أن يكفر أبداً ، وكيف يكفر وهو قائم بالأركان ؟ ولا يتصورون أن للإسلام نواقض تبطله ، وتناقض أصله ، ويقولون : أيكفر من نطق بالشهادتين ، وصلى ، وصام ، وزكى ، وحج ؟! لا يكفر أبداً ، ولو دعا غير الله .

ويستدلون بهذه المقدمة الفاسدة على إنكار أن يكون صرف بعض أنواع العبادة للموتى شركاً ، وإنما المشرك عندهم من زعم أن غير الله يتصرف بالاستقلال ، وأنه مؤثر بالذات دون الحاجة إلى غيره[4].

يقول الحسيني : " لا عبرة بمن شذ وفارق الجماعة ، فزعموا أن التوسل شرك أو حرام ، وحكموا على المتوسلين بكونهم مشركين ، وهذا واضح البطلان ؛ لأنه يؤدي إلى إجماع معظم الأمة على الحرام أو الإشراك ، وذلك محال ؛ لثبوت عصمة هذه الأمة المحمدية من الاجتماع على الضلالة ، بإخبار رسول الله ﷺ ، حيث قال : " سألت ربي أن لا تجتمع أمتي على ضلالة فأعطانيها"[5] "[6].

---

[1] الفقه الحنفي في ثوبه الجديد لعبد الحميد طهماز (1/17) .

[2] الأجوبة الغالية (ص32-33) .

[3] شفاء السقام (175،146) ، مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي 25 ، الرد المحكم للغماري 90 .

[4] انظر : شفاء السقام للسبكي (146،175) ، براهين القضاعي (375-378) ، التوسل لابن مرزوق (20-21 ،24) ، مقالات الدجوي (1/162-167) ، مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي (49-74) . وانظر في ردها : نقض القبورية لمحمد الخميس (43-44) .

ويقول المالكي : " لأن هذه البلاد بفضل الله طاهرة من كل رجس ، سالمة من كل شرك ، بإخبار رسول الله إذ قال : " لا يجتمع دينان في جزيرة العرب "[1] ، وقال : " إن الشيطان قد أيس أن يعبد في جزيرتكم – جزيرة العرب"، ودعاؤه مستجاب"[2].

* * *

[5] رواه الإمام أحمد في المسند (6/396) ، والطبراني في المعجم الكبير (2/280) ، وقال الهيثمي في " مجمع الزوائد " (1/177) : رواه أحمد وفيه رجل لم يسم " .

[6] ص53 .

[1] رواه مالك في الموطأ (2/892) ، والبيهقي في السنن الكبرى (9/208) ، وابن أبي شيبة في " المصنف " (6/468) .

[2] مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي ص27 ، وانظر : صلح الإخوان (149-151) ، فصل الخطاب لسليمان بن عبدالوهاب ص25 .

المبحث الثاني
أهمية نشر كتب السلف في الردود ، وذكر نماذج منها

بعد أن تبين في المبحث السابق تشابه الشبه التي يتمسك بها المبتدعة ، وأنها تورد من إناء واحد ؛ لزم بالمقابل الاهتمام بدحض هذه الشبه ، بنشر كتب السلف التي تصدت لردها ، وهذا المقام – الرد على أهل البدع – من أعظم أنواع الجهاد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : " فالمرصدون للعلم عليهم للأمة حفظ علم الدين وتبليغه ، فإذا لم يبلغوهم علم الدين ، أو ضيعوا حفظه ، كان ذلك من الظلم للمسلمين ، ولهذا قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ) (البقرة:159) ، فإن ضرر كتمانهم تعدى إلى البهائم وغيرها، فلعنهم اللاعنون حتى البهائم"[1].

ويقول الشيخ بكر أبو زيد – حفظه الله - : " كل هذا لحراسة الدين وحمايته من العاديات عليه وعلى أهله ، من خلال هذه الوظيفة الجهادية التي دأبها: الحنين إلى الدين والرحمة بالإنسانية ؛ لتعيش تحت مظلته ، تكف العدوان وتصد المعتدين ، وتقيم سوق الأمر بالمعروف ورأسه "التوحيد" ، والنهي عن المنكر وأصله "الشرك" ، وتحافظ على وحدة الصف وجمع الكلمة ، ومد بشاشة الإيمان ، وسقيا ترقرق ماء الحياء ، وتقيم طول الإسلام وقوته وظهوره على الدين كله ولو كره المشركون ، وتحطم الأهواء ولو كره المبتدعون ، والفجور ولو كره الفاسقون ، والجور ولو كره الظالمون "[2] .

وكان للسلف الصالح جهود عظيمة في سبيل الدفاع عن عقيدة المسلمين وذلك من خلال الرد على أهل البدع ، وقد ارتبط الرد على أهل البدع بظهورها فكان أول الردود في المائة الأولى عندما ظهرت الخوارج والشيعة ، ثم تلتها بدعة القدرية والتجهم والإرجاء والاعتزال والأشعرية ، ثم انتشر في المائة الثالثة بدع القبورية ومظاهر الشرك في الألوهية ، فانبرى السلف يردون ويفندون هذه الشبة وكان الرد على أنواع :

---

[1] الفتاوى (28/187).
[2] الرد على المخالف ص 6.

1- الرد على رجل تمثل بدعة يدعوا إليها.

2- الرد على كتاب من كتب أهل البدع له قيمة عندهم.

3- الرد على شبه يلقيها المبتدعة.

4- نظم القصائد سواء في الردود أو لبيان عقيدة السلف.

وفي الوقت الحاضر " وفي كل صقع من الأرض وجد فيه عباد القبور تجد فيه غالبا طائفة على هدي النبي محمد سائرة لا يخدعهم تسيد ، ولا تؤثر فيهم شبهة ، وأولئك غرباء في كثير من البلاد يدلون الناس على السنة ويهدونهم إلى التوحيد... يسمون أنفسهم أتباع السلف الصالح.. ويسميهم أعداؤهم : الوهابيين أو المتطرفين ، ويسعى أعداؤهم في نشر الكتب الناقضة دعوة الشيخ المصلح محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله تعالى – ردا عليهم وعلى أتباع الدعوة السلفية الخالصة. وتتخذ هذه الردود أشكالا .. والحملة واحدة ، والطريق قديمة سابلة"[1].

ومع هذه الجهود فلابد من العناية والاهتمام بنشر كتب السلف في الردود واستحداث ردود أخرى وذلك للآتي :

1- كثرة المؤلفات والرسائل التي صنفت ضد معتقد أهل السنة بصفة عامة ، وضد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية بصفة خاصة ، فقد سود الخصوم كميات هائلة من الكتب والمؤلفات – سـواء المطبوع منها أو المخطوط – ونحن في عصر فشا فيه الجهل ، واستحكم عليه التقليد الأعمى وفشت البدع ، وعمت الشركيات بمختلف أنواعها، مما جعل لمثل تلك المؤلفات قبولا وانتشارا عند طوائف من المسلمين .

وفي المقابل لا نجد كثرة وانتشارا للكتب والرسائل التي سطرها السلف بصفة عامة ، وأئمة الدعوة السلفية بصفة خاصة في الرد على اعتراضات المناوئين ، بل إن الكثير من كتب أئمة الدعوة خاصة أصبح الآن عزيز المنال، نادر الوجود ، ومنها على سبيل المثال : كتاب " تأسيس التقديس في الرد على داود بن جرجيس " للشـيخ عبد الله أبو بطين– رحمه الله-[2] ، وكتاب " منهاج التأسيس " الذي بين أيدينا ، وكذلك

---

[1] هذه مفاهيمنا صالح آل الشيخ ص 5 باختصار.

[2] هو : الشيخ العلامة الفقيه عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد العزيز ابن سلطان بن خميس ، الملقب " أبا بطين " ، ولد في سدير (سنة 1194هـ) ، تولى القضاء على الطائف ، ثم على الوشم ، ثم على القصيم ، له عدة

كتب الشيخ سليمان بن سحمان[1] ، وغيرها، والرد على هؤلاء هو رد على أولئك كما مر في المبحث الأول[2].

2- أن الرد على أهل البدع من أعظم حق الله على عباده ، وحق المسلمين على علمائهم ، فهو من أوجب الواجبات على العلماء في رد كل مخالف ومخالفته ، ومضل وضلالته ، وزلة عالم وشذوذه ، حتى لا تتداعى الأهواء على المسلمين ، ويحرف الدين ، وهذا سير على أصل الاعتقاد ومتابعة لمسيرة السلف الجهادية في رد كيد المبطلين[3].

يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن : " فمن الواجب على من عرف الحق بدليله أن يسعى فيما يبطل دعواه – بن جرجيس – ويهدم ما أسسه من الزيغ وبناه"[4]

3- أن في الرد على المبطلين رفعا لغربة الدين ، يقول ابن تيمية-رحمه الله- : " فإن هذا الصنف يكثرون ويظهرون إذا كثرت الجاهلية وأهلها، ولم يكن هناك من أهل العلم بالنبوة والمتابعة لها من يظهر أنوارها الماحية لظلمة الضلال ويكشف ما في خلافها من الإفك والشرك والمحال."[5]

4- الاقتداء بأهل السنة حيث دأبوا على الرد على أهل البدع، يقول ابن القيم -رحمه الله -: " واشتد نكير السلف والأئمة لها، وصاحوا بأهلها ، من أقطار الأرض وحذروا فتنتهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش، والظلم ، والعدوان ، إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد"[6]

5- أن في نشر كتب السلف إبقاء للإسلام نقيا صافيا ، و نصحا للمخالف ، ونصحا للمسلمين ، وكشف الغشاوة عنهم.

مؤلفات ، توفي في شقراء (سنة 1282هـ) .
انظر : مشاهير علماء نجد (176) ، علماء نجد خلال ستة قرون (1/235) .

[1] هو : الشيخ سليمان بن سحمان بن مصلح بن حمدان الخثعمي بالولاء ، ولد في عسير (1268هـ) ، انتقل إلى الرياض أيام فيصل بن تركي فتلقى عن علمائها ، له عدة مؤلفات ، منها (الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق ، تبرئة الشيخين ، الأسنة الحداد) ، وغيرها كثير، توفي في الرياض سنة(1349هـ) . انظر: مشاهير علماء نجد (229-322) ، علماء نجد (1/279) .

[2] انظر: دعاوى المناوئين لعبد العزيز آل عبد اللطيف (ص9-10).

[3] انظر : الرد على المخالف من أصول الإسلام لبكر أبو زيد (ص 9 – 11) .

[4] القول الفصل النفيس (ص 14).

[5] منهاج السنة (1/6).

[6] مدارج السالكين (1/372) .

6- التحذير من الوقوع في شراك أهل البدعة ، وكف لباسهم عن المسلمين.

7- أن السكوت عن أهل البدع وانقطاع الردود أو ندرتها من أعظم أسباب انتشار الشبه ، وظهور المبطلين ، واستمراء الباطل ، ومن ثم يستعصى إصلاح العوام على العلماء ، ويصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا ،
كما أن فيه خذلانا للمؤمنين ، يقول ابن تيمية: " فلما ألحوا في طلب الرد لهذا الضلال المبين ، ذاكرين أن الإعراض عن ذلك خذلانا للمؤمنين، وظن أهل الطغيان نوعا من العجز عن رد هذا البهتان ، فكتبت ما يسره الله من البيان ، وفاء بما أخذه الله من الميثاق على أهل العلم والإيمان ، وقياما بالقسط وشهادة لله كما قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) (النساء:135)"[1].

*** نماذج من كتب الردود**

1 - كتاب " الاستغاثة في الرد على البكري" لابن تيمية :

وهو من أوفى الكتب في مسألة " الاستغاثة بالأموات " ، ومن أجل الكتب التي دافعت عن العقيدة الصحيحة ، رد فيه شيخ الإسلام على أحد دعاة القبورية في عصره ، وهو علي بن يعقوب البكري[2] (توفي 724هـ) ، وغالب من كتب في الرد على أهل البدع ينقل منه أو يحيل عليه ، وهو أول كتاب في الرد على من أجاز الاستغاثة بالأموات.

2- " الإخنائيـة " أو " الـرد علـى الإخنائي "[3] لشيـخ الإسـلام ابـن تيمية-رحمه الله- :

تناول فيه مسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين عموما، وقبر النبي خصوصا ، وما يتعلق بها من التوسل، والاستعانة، والاستغاثة، والذبح، إليها من دون الله وما إلى ذلك .

كما تعرض لقضايا وجوانب أخرى مهمة ، كمسألة التفريق بين الغرباء، والمقيمين بالمدينة في السلام على النبي خارج

---

[1] منهاج السنة (1/15-16) .
[2] انظر : ترجمته (ص382) .
[3] انظر : ترجمته (ص 685) .

الحجرة ، وما كان عليه المسجد النبوي ، وتاريخ توسعته إلى خلافة الوليد بن عبد الملك[1] .

3- " الصارم المنكي في الرد على السبكي " للحافظ الإمام ابن عبد الهادي-رحمه الله-[2] :

رد فيه على كتاب السبكي " شفاء السقام في زيارة خير الأنام " ، وقد اخترمته المنية قبل إتمامه ، وهو كتاب قيم ، ذكر في مقدمته منهج السبكي في "شفاء السقام " ، وقرر أنه لم يخرج عن منهج أهل البدع : من الاستدلال بالأحاديث الواهية ، وتحريف الكلام عن مواضعه .

والكتاب المردود عليه هو في الأصل رد على شيخ الإسـلام ابـن تيمية – رحمه الله - في منع شد الرحال لزيارة القبور، وقد جعله السبكي عشرة أبواب ، رد ابن عبد الهادي على خمسة منها ثم توفى – رحمه الله-.

و الأبواب المردود عليها هي :-

الباب الأول : في الأحاديث الواردة في الزيارة نصا.

الباب الثاني : في الأحاديث الدالة على ذلك وإن لم يكن فيها لفظ الزيارة.

الباب الثالث : فيما ورد في السفر إليها.

الباب الرابع : في نصوص العلماء على استحبابها.

الباب الخامس: في تقرير كونها قربة.

4- " مفيد المستفيد في حكم تارك التوحيد " : للشيخ محمد بن عبد الوهـاب-رحمه الله - رد فيه على رسالة أخيه سليمان .

5- " سيف الله على من كذب على أولياء الله " لصنع الله بن صنع الله الحلبي المكي الحنفي (ت 1120هـ)[3].

---

[1] مقدمة تحقيق الرد على الإخنائي ص 78.

[2] انظر : ترجمته (ص330) .

[3] انظر ترجمته (ص 445) .

يقول المؤلف – رحمه الله تعالى – : " هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدّعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات ، ويُستغاث بهم في الشدائد والبليات ، وبهممهم تنكشف المهمات .

فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات... إلى أن قال : وها أنا أفيض عليكم ما تطمئن به النفوس الذكية ، وترتاح له الأرواح التقية ، لا سيما وقد كثر القيل والقال في هذا السؤال ، وتزيا أهل الزور بزي أهل الكمال ... وسأشير إلى رد ما توهموه ، وأزيف لهم ما تصوروه ورسموه..."[1].

6- "مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام" للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن :

رد فيه على عثمان بن عبد العزيز بن منصور الناصري[2] ، الذي ألف كتاب " جلاء الغمة عن تكفير هذه الأمة " ، وهو من تلاميذ ابن جرجيس ، وقد حمل في هذا الكتاب على الدعوة السلفية وأئمتها ، وخاصة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

7- "صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان" لمحمد بشير السهسواني[3] الهندي (ت 1326) :

رد فيه على مفتي مكة أحمد زيني دحلان (ت 1304هـ) ، لما نال من الدعوة السلفية ، وكان الشيخ محمد بشير السهسواني من كبار رجال الحديث في الهند ، وقد اجتمع بأحمد دحلان ، وناظره في التوحيد الذي هو أساس الدعوة الإصلاحية ، وأقام عليه الحجة ، فلما عاد إلى الهند ألف هذا الكتاب وفضح به جهل دحلان بعلم الحديث ، وأثبت أنه غير ثقة ولا صادق في النقل[4].

---

[1] سيف الله (ص 8) .

[2] ولد في سدير ، ورحل إلى العراق لطلب العلم ، تولى القضاء في نجد ، وكان من أشد خصوم الدعوة ، ويقال أنه رجع إلى الحق – والله أعلم بحقيقة الحال - ، له عدة مؤلفات ، توفي في سدير سنة (1282هـ) .علماء نجد للبسام (3/693) ، الأعلام (4/208) .

[3] هو : محمد بشير بن محمد السهسواني ، عالم بالحديث والفقه ، ولد في لكهنوء بالهند سنة (1250هـ) ، وتوفي في دلهي سنة (1326هـ) . انظر: الأعلام (5/36) ، ومقدمة كتاب "صيانة الإنسان" .

[4] انظر مقدمة صيانة الإنسان للشيخ رشيد رضا (ص 9 – 10).

8- "غاية الأماني في الرد على النبهاني" للعلامة أبي المعالي محمود شكري الألوسي[1] (توفي1342هـ) :

رد فيه على " شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق " للنبهاني ، يقول الشيخ الألوسي في مقدمته : " أما بعد : فقد وصل إلي كتاب قد اشتمل على بهتان عظيم ، وعدول عن الصراط المستقيم ، ألفه بعض الجهلة لمصادمة الحق، ..ومناقضة ما جاءت به رسل الله ، وصدحت به الكتب المنزّلة ، ودلت عليه الدلائل القطعية وهو توحيد الله وإفراده بخصائص الربوبية ، وتخصيصه بالالتجاء إليه ، والتوكل عليه ، والاستعانة به في كل كلية وجزئية ، فجاء هذا الغبي الجاهل المكابر، وأعرض عن الحق الصريح الظاهر، وجمع كتابا سماه : " شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق " ، وحشاه من الكذب والافتراء .. وشتم أهل الحق ونصرة التوحيد ، والحكايات الكاذبة...، وكان الرأي عندي أن يعرض عن جهله المستأصل لشأفته ، ولا يتعرض لغثاثته وسخافته ، غير أن بعض الأخوان لما علم مقصدي ، ووقف على ما تقرر عندي التمس مني ذلك ، وطلب إبطال ما هنالك ، وذكر لي أن النبي لما قال أبو سفيان يوم أحد : أفيكم محمد ؟ أفيكم أبو بكر ؟ أفيكم ابن الخطاب ؟ قال لأصحابه : " لا تجيبوه". تهاونا به وتحقيرا لشأنه .

فلما قال أعل هبل . قال لهم رسول الله : " قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم " . فحينئذ جردت أسنة العزائم والرد ، واستعنت على رد أباطيله بالواحد الفرد"[2].

9- " الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق " لسليمان بن سحمان-رحمه الله- (ت 1349هـ) :

---

[1] هو : محمود شكري بن عبدالله بن شهاب الدين ، محمود الألوسي ، أبو المعالي ، ولد في رصافة بغداد ، وأخذ العلم عن أبيه ، وعمه ، وغيرهما ، حمل على أهل البدع فعاداه كثيرون، فنفي من بغداد ، ثم قدم إلى نجد عام 1333هـ . توفي في بغداد سنة 1342 هـ ، له عدة مؤلفات منها : " غاية الأماني في الرد على النبهاني " ، " المسك الإذفر في تراجم علماء القرن الثالث عشر " ، " فتح المنان تتمة الرد على صلح الأخوان " ، و غيرها . انظر : مشاهير علماء نجد (286) ، الأعلام للزركلي (7/173) ، وترجمته في مقدمه الرد على النبهاني للشيخ محمد بن عبدالله السبيل .

[2] غاية الأماني (1/14-15) .

رد فيه على جميل صدقي الزهاوي[1] في طعنه على الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والدعوة السلفية .

10- "حكم من استغاث بغير الله" للشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله-:

وهو تعليق على أبيات نشرت في ذكرى المولد النبوي الشريف تضمنت الاستغاثة بالنبي .

11- " القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل " للشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري ، رد فيه على كتاب " حول الاحتفال بالمولد النبوي " لمحمد بن علوي المالكي ، وهو كتاب عظيم النفع في رد ودحض جميع شبهات من أجاز الاحتفال بالمولد النبوي ، أو أباحه .

12- " جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية " لشمس الدين السلفي الأفغاني ، قال فيه : " ثم كان أكثر القبوريين المنتسبين إلى الأئمة هم الحنفية أردت أن أضرب أعناق معانديهم بسيوف أهل مذهبهم تنكيلا لهم ، وأرشد جهالهم بنصوص أئمتهم نصحا لهم ...

ويقول أيضا : إن كثيرا من القبورية يزعمون أن الرد على القبورية من خصائص طائفة ظنوها شاذة محصورة في أمثال : شيخ الإسلام ، وابن القيم الهمام، ومجدد الدعوة الإمام ، ونبزوهم بلقب منفر " الوهابية " تحذيرا للناس منهم ، وإضلالا للعوام ، وإغواء للجهال بهذه الحيلة الماكرة...فأردت إبطال هذا الزعم الباطل بجمع جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ، ليعلم القبورية أن أهل الحديث وأئمة السنة ليسوا شذاذا ولا متفردين بالرد على القبورية ، بل شاركهم في ذك أعلام هذه الأمة ، ولاسيما علماء الحنفية "[2].

* * *

[1] هو : أحد شعراء العراق ، ولد و توفي في بغداد ، تهجم على الشريعة وطعن فيها ، له عدة مؤلفات ، توفي سنة (1354) . الأعلام (2/137) .
[2] جهود علماء الحنفية (1/34-36) .

المبحث الثالث

سمات وخصائص دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأئمة الدعوة

إن كل منصف متجرد عالم بأصول الإسلام وأهدافه وأحكامه ومقاصده العظام، يعلم أن ما دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في دعوته السلفية الإصلاحية ليس سوى العودة إلى الإسلام بكل مبادئه وتعاليمه الخالصة من شوائب الشرك والوثنية .

فالشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – لم يدع لمذهب جديد ، بل دعا لتنقية التوحيد من كل شوائب الشرك ، وإخلاص الدين لله ، ونبذ البدع والخرافات والانحرافات ، فلم يدع إلا لعقيدة السلف الصالح في جميع أبواب الاعتقاد ، يشهد لذلك سيرته ، ومؤلفاته ، ورسائله وما قام به تلاميذه من أئمة الدعوة من بعده ، كما أن ما كتبه تلاميذه وبعض معاصريه يبين بجلاء لكل من أراد الحق ما اتصف به الشيخ من تمسك والتزام بمنهج أهل السنة والجماعة ، ويظهر حال وشأن أولئك الأتباع وما كانوا عليه من التمسك الصادق بعقيدة الفرقة الناجية سواء في أقوالهم أو أفعالهم .

ومما تجدر الإشارة إليه زيف من أطلق على هذه الدعوة السلفية المباركة "الوهابية" ، فهذا لقب لم يختاره الشيخ ولا أتباع الدعوة ، بل أطلق عليهم من قبل خصومهم تنفيرا للناس منهم ، وإيهاما للسامع أنهم جاءوا بمذهب جديد يخالف المذاهب الإسلامية الأربعة.

يقول د/ عبد الله العثيمين : "من المعروف أن الغرض من اختلاق المعارضين تلك التسمية تنفير الناس من دعوة الشيخ ، وهو بتعبير آخر اتهامه بأنه يدعو إلى دين جديد ، أو مذهب خامس ، كما يقولون أحيانا"[1].

وينفي هذه التسمية كل منصف فيقول الشيخ رشيد رضا[2]: "إن هذه الدعوة ليست ذات مذهب خاص بها ، وإنما هي

---

[1] محمد بن عبد الوهاب ، حياته وفكره للدكتور عبد الله العثيمين (ص 114) .

[2] هو : محمد بن رشيد بن علي رضا القلموني ، بغدادي الأصل ، ولد ونشأ في الشام ، عالم ومفسر ، صاحب مجلة المنار ، من الدعاة إلى الإصلاح ، توفي في القاهرة سنة (1354هـ) .
انظر : مشاهير علماء نجد (288) ، الأعلام (6/126) .

الدعوة إلى الإسلام بكل مبادئه وتعاليمه الخالصة من شوائب الشرك والوثنية والبدع "[1].

ويقول الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي-رحمه الله-: "ومن معاملة الله لهم – أي خصوم الدعوة – بنقيض مقصدهم، هو أنهم قصدوا بلقب "الوهابية" ذمهم، وأنهم مبتدعة، ولا يحبون الرسول كما زعموا، صار الآن لقبا لكل من يدعو إلى الكتاب والسنة وإلى الأخذ بالدليل، وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة البدع والخرافات والتمسك بمذهب السلف"[2].

أما في العصر الحاضر فلا يتحرج أتباع الدعوة من التسمية بهذا الاسم ؛ وذلك لانتشار حقيقتها ، وتأكد سلفيتها .

لذا أردت في هذا المبحث أن أنقل نماذج من أقوال الشيخ التي تبين منهجه في الاعتقاد ، ثم نماذج من كلام أئمة الدعوة تبين أنهم على منهج أهل السنة والجماعة ، ثم أورد بعض شهادات المنصفين ممن عرف الدعوة وشهد أنها دعوة سلفيه، وكذلك بعض النقول من أعداء الدعوة الذين شهدوا بها على سلفيتها، وموافقتها لمذهب أهل السنة والجماعة ، وسأختم هذا المبحث بذكر بعض سمات وخصائص هذه الدعوة المباركة ، مستشهدة لذلك بما قاله الشيخ عبد اللطيف في هذا الكتاب أو غيره من الأئمة الأعلام.

وذلك حسب المطالب التالية :

المطلب الأول : عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأئمة الدعوة

لعل من أبرز رسائل الشيخ التي تبين عقيدته–رحمه الله– تلك الرسالة التي أرسلها إلى أهل القصيم إجابة عن سؤالهم عن معتقده ، ونظرا لأهمية الرسالة في بيان معتقد الشيخ أوردها كاملة ، يقول الشيخ : " أشهد الله ومن حضرني من الملائكة وأشهدكم أني أعتقد ما اعتقدته الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، ومن الإيمان بالله : الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه على لسان

---

[1] رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لمحمد بن عبد الله السلمان (ص50).

[2] الشيخ محمد بن عبد الوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية وثناء العلماء عليه للشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي ص 67.

رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، بل أعتقد أن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فلا أنفي عنه ما وصف به نفسه ولا أحرف الكلم عن مواضعه ، ولا ألحد في أسمائه وآياته ، ولا أكيف ولا أمثل صفاته تعالى بصفات خلقه لأنه تعالى لا سميَّ له ولا كفؤ ، ولا ند له ، ولا يقاس بخلقه فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً فنزه نفسه عما وصفه به المخالفون من أهل التكييف والتمثيل وعما نفاه عنه النافون من أهل التحريف والتعطيل فقال : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) (الصافات:180).

والفرقة الناجية وسط في باب أفعاله تعالى بين القدرية والجبرية ، وهم في باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية ؛ وهم وسط في باب الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة ، وبين المرجئة والجهمية ، وهم وسط في باب أصحاب رسول الله بين الروافض والخوارج .

وأعتقد أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود ؛ وأنه تكلم به حقيقة وأنزله على عبده ورسوله وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده نبينا محمد .

وأومن بأن الله فعال لما يريد ، ولا يكون شيء إلا بإرادته ، ولا يخرج شيء عن مشيئته ، وليس شيء في العالم يخرج عن تقديره ولا يصدر إلا عن تدبيره ، ولا محيد لأحد عن القدر المحدود ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المسطور .

وأعتقد الإيمان بكل ما أخبر به النبي مما يكون بعد الموت ، فأومن بفتنة القبر ونعيمه ، وبإعادة الأرواح إلى الأجساد ، فيقوم الناس لرب العالمين حفاة عراة غرلا تدنو منهم الشمس ، وتنصب الموازين وتوزن بها أعمال العباد فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ،وتنشر الدواوين فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله.

وأومن بحوض نبينا محمد بعرصة القيامة ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ،آنيته عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، وأومن بأن الصراط منصوب على شفير جهنم يمر به الناس على قدر أعمالهم .

وأومن بشفاعة النبي وأنه أول شافع وأول مشفع ، ولا ينكر شفاعة النبي إلا أهل البدع والضلال ، ولكنها لا تكون إلا من بعد الإذن والرضى ، كما قال تعالى : (وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ

ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (الانبياء:28) ، وقال تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) (البقرة:255) ، وقال تعالى : (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) (لنجم:26) ، وهو لا يرضى إلا التوحيد ؛ ولا يأذن إلا لأهله ، وأما المشركون فليس لهم من الشفاعة نصيب ؛ كما قال تعالى : (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) (المدثر:48).

وأومن بأن الجنة والنار مخلوقتان ، وأنهما اليوم موجودتان ، وأنهما لا يفنيان ؛ وأن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم يوم القيامة كما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته .

وأومن بأن نبينا محمداً خاتم النبيين والمرسلين ، ولا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ويشهد بنبوته ، وأن أفضل أمته أبو بكر الصديق ، ثم عمر الفاروق، ثم عثمان ذو النورين ، ثم علي المرتضى ، ثم بقية العشرة ، ثم أهل بدر، ثم أهل الشجرة أهل بيعة الرضوان ، ثم سائر الصحابة رضي الله عنهم .

وأتولى أصحاب رسول الله وأذكر محاسنهم وأترضى عنهم وأستغفر لهم وأكف عن مساويهم وأسكت عما شجر بينهم ، وأعتقد فضلهم عملا بقوله تعالى : (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْأِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (الحشر:10).

وأترضى عن أمهات المؤمنين المطهرات من كل سوء ،وأقرّ بكرامات الأولياء ومالهم من المكاشفات إلا أنهم لا يستحقون من حق الله تعالى شيئاً ولا يطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله ، ولا أشهد لأحد من المسلمين بجنة ولا نار إلا من شهد له رسول الله ، ولكني أرجو للمحسن وأخاف على المسيء ، ولا أكفر أحداً من المسلمين بذنب ، ولا أخرجه من دائرة الإسلام ، وأرى الجهاد ماضيا مع كل إمام براً كان أو فاجراً ، وصلاة الجماعة خلفهم جائزة ، والجهاد ماض منذ بعث الله محمداً إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل.

وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين برهم وفاجرهم ما لم يأمروا بمعصية الله ، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به وغلبهم بسيفه حتى صار خليفة وجبت

طاعته ؛ وحرم الخروج عليه ، وأرى هجر أهل البدع ومباينتهم حتى يتوبوا ، وأحكم عليهم بالظاهر وأكل سرائرهم إلى الله .

وأعتقد أن كل محدثة في الدين بدعة ، وأعتقد أن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجنان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وهو بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، وأرى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما توجبه الشريعة المحمدية الطاهرة .

فهذه عقيدة وجيزة حررتها وأنا مشتغل البال لتطلعوا على ما عندي والله على ما نقول وكيل"[1].

ويوضح الشيخ – محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – في إحدى رسـائله لعبد الرحمن بن عبد الله السويدي[2] أحد علماء العراق حقيقة دعوته بقوله: " أخبرك أني ولله الحمد متبع ولست بمبتدع ، عقيدتي وديني الذي أدين الله به : مذهب أهل السنة والجماعة الذي عليه أئمة المسلمين مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة، لكنني بينت للناس إخلاص الدين لله ، ونهيتهم عن دعوة الأحياء والأموات من الصالحين ، وغيرهم ، وعن إشراكهم فيما يعبد الله به من الذبح والنذر والتوكل والسجود وغير ذلك مما هو حق الله الذي لا يشركه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، وهو الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم ، وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة ، وبينت لهم أن أول من أدخل الشرك في هذه الأمة هم الرافضة الملعونة الذين يدعون علياً وغيره ويطلبون منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات - وأنا صاحب منصب في قريتي مسموع الكلمة- فأنكر هذا بعض الرؤساء لأنه خالف عادة نشأوا عليها وأيضاً ألزمت من تحت يدي بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من فرائض الله ، ونهيتهم عن الربا وشرب المسكر ، وأنواع من المنكرات فلم يمكن الرؤساء القدح في هذا وعيبه لكونه مستحسناً عند العوام فجعلوا قدحهم وعداوتهم فيما آمر به

---

[1] مجموع مؤلفات الشيخ (المجلد الثالث / قسم الرسائل الشخصية /الرسالة الأولى (ص5)) .

[2] هو الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله زين الدين البغدادي أبو الخير السويدي ، ففيه، مؤرخ أديب، عراقي ، له عدة مؤلفات ، توفي في بغداد سنة (1200هـ).
انظر: الأعلام (3/314) ، المسك الإذفر (131-133).

من التوحيد وأنهي عنه من الشرك ، ولبسوا على العوام أن هذا خلاف ما عليه أكثر الناس.." [1]

ويزيد الأمر وضوحا رسالة ابنيه حسين وعبد الله حين يبينان عقيدة الشيخ – رحمه الله – التي يدين بها: "عقيدة الشيخ – رحمه الله – التي يدين الله بها، هي : عقيدتنا، وديننا الذي ندين الله به، وهي: عقيدة سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهو: إتباع ما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله ، وعرض أقوال العلماء على ذلك فما وافق كتاب الله وسنة رسوله قبلناه، وأفتينا به، وما خالف ذلك، رددناه على قائله"[2]

ويقول الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمهما الله – في رسالته التي كتبها بعد دخوله مكة سنة 1218هـ مع الأمير سعود[3] – رحمه الله - : "ولما تمت عمرتنا: جمعنا الناس يوم الأحد ، وعرض الأمير – رحمه الله – على العلماء ما نطلب من الناس ونقاتلهم عليه ، وهو: إخلاص التوحيد لله تعالى وحده، وعرفهم أنه لم يكن بيننا وبينهم خلاف له وقع إلا في أمرين، أحدهما: إخلاص التوحيد لله تعالى، ومعرفة أنواع العبادة، وأن الدعاء من جملتها، وتحقيق معنى الشرك، الذي قاتل الناس عليه نبينا محمد .... فوافقونا على استحسان ما نحن عليه جملة وتفصيلا وبايعوا الأمير على الكتاب والسنة"[4].

وقال في موضع آخر: "مذهبنا في أصول الدين مذهب أهل السنة والجماعة، وطريقتنا طريقة السلف التي هي الطريق الأسلم بل والأعلم والاحكمـ"[5].

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن: " فمن المعلوم لديكم أن شيخنا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله تعالى، وعفى عنه – تبين بدعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وأن لا يصرف من العبادة شيء لأحد سواه،

---

[1] مجموع مؤلفات الشيخ (المجلد الثالث / قسم الرسائل الشخصية /الرسالة الخامسة(ص21))

[2] الدرر السنية (1/219 ، 1/12) .

[3] هو الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود ، من حكام الدولة السعودية الأولى ، يعرف بسعود الكبير ، له مجالس علم معروفة ، وهو من تلاميذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب . توفي سنة (1229هـ).
انظر: عنوان المجد (1/167)، الأعلام (3/90).

[4] الدرر السنية (1/223) .

[5] الدرر السنة (1/226) .

كما قال تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ*أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) (الزمر:2-3) "[1].

ويقول الشيخ عبد اللطيف في بيان حقيقة دعوة الشيخ محمد: " إن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – إنما دعا الناس إلى أن يعبدون الله لا شريك له ولا يشركون به شيئا وهذا لا يرتاب فيه مسلم أنه دين الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه" [2].

ويقول في موضع آخر: " ثم إن شيخنا رحمه الله كان يدعو الناس إلى الصلوات الخمس والمحافظة عليها حيث ينادى لها، وهذا من سنن الهدى ومعالم الدين كما دل على ذلك الكتاب والسنة، ويأمر بالزكاة والصيام والحج، ويأمر بالمعروف ويأتيه ويأمر الناس أن يأتوه ويأمروا به ، وينهي عن المنكر ويتركه ويأمر الناس بتركه والنهي عنه، وقد تتبع العلماء مصنفاته – رحمه الله – من أهل زمانه وغيرهم فأعجزهم أن يجدوا فيها ما يعاب ، وأقواله في أصول الدين مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة"[3]

ويبين الشيخ محمد بن عبد اللطيف[4] في رسالته التي بعثها إلى أهل الحجاز وعسير واليمن معتقدهم، وما يدعون إليه، فيقول : " اعلموا أن الذي نعتقده، وندين الله به، وندعو الناس إليه ونجاهدهم عليه هو دين الإسلام الذي أوجبه الله على عباده وهو حقه عليهم الذي خلقهم لأجله، فإن الله خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به في عبادته أحدا من المخلوقين لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلا عن غيرهما.... إلى أن قال : وبالجملة فإنا نأمر بما أمر الله به في كتابه ، وأمر به رسوله ﷺ ، وننهى عما نهى الله عنه ، ونهى عنه رسوله"[5].

وأختم هذه النقول بما شهد به علماء مكة حيث قالوا : " نشهد ونحن علماء مكة الواضعون خطوطنا وأختامنا في هذا الرقيم – أن هذا الدين الذي قام به الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – ، ودعا إليه إمام المسلمين – سعود ابن عبد العزيز – ، من توحيد الله ، ونفي الشرك الذي ذكره في

---

[1] الدرر السنية (1/323) .

[2] الرسائل والمسائل النجدية (3/367) .

[3] مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (3/372).

[4] ولد الشيخ محمد في الرياض سنة 1282هـ ، وتوفى بها سنة 1367هـ ، تولى القضاء ورحل إلى عسير داعيا إلى الله. أنظر : مشاهير علماء نجد ص 146 – علماء نجد (3/849) .

[5] الدرر السنية (1/577 – 578) باختصار.

هذا الكتاب أنه هو الحق الذي لاشك فيه ولاريب... ومن لم يدخل في هذا الدين ويعمل به ويوالي أهله ويعادي أعداءه فهو عندنا كافر بالله واليوم الآخر، وواجب على إمام المسلمين والمسلمين جهاده وقتاله "[1].

وبهذا يعلم أن الشيخ الإمام وأئمة الدعوة – من بعده – يدعون إلى التمسك بمنهج السلف الصالح ، سواء كان ذلك في العقائد أو السلوك والشرائع.

المطلب الثاني : نماذج من كلام المنصفين تشهد بسلفية هذه الدعوة

وقد شهد بعض العلماء المنصفين في الشرق والغرب ، وفي أزمان متفاوتة ، بل ومن ديانات ومذاهب متنوعة أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله– يدعو إلى الإسلام كما كان عليه أول ظهوره ، من صفاء، ونقاء، ووضوح، بعيدا عن لوثات الفلسفة، وأدران الشرك، وخرافات التصوف، ومحدثات البدع .

وسأذكر بعض هذه الأقوال مرتبة حسب تناسقها مع السياق دون التزام بترتيب معين .

يقول طه حسين[2]: " قلت إن هذا المذهب جديد وقديم معا، والواقع أنه جديد بالنسبة إلى المعاصرين ، ولكنه قديم في حقيقة الأمر ؛ لأنه ليس إلا الدعوة القويمة إلى الإسلام الخالص النقي المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية ، هو الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي خالصا لله وحده ، ملغيا كل واسطة بين الله والناس"[3].

ويقول الراهب هيوجس : " وبعد أن ترك الإمارة أهل نجد ، عمرت المساجد حتى أن هذا المنظر من الزهد والطاعة لم ير له مثيل في هذا البلد الأمين بعد عهد النبوة "[4].

---

[1] انظر الدرر (1/314) ، ووقع عليها كل من : عبد الملك بن عبد المنعم القلعي الحنفي مفتي مكة، ومحمد بن صالح بن إبراهيم مفتي الشافعية بمكة ، ومحمد بن محمد الأبناني مفتي المالكية بمكة ، ومحمد بن أحمد المالكي – ومحمد بن يحيى مفتي الحنابلة بمكة ، وغيرهم ، والشريف غالب .

[2] أديب عربي ، ولد في مصر ، وله مؤلفات كثيرة ، كثير منها غير مرضي ، توفي في القاهرة سنة (1393هـ) . انظر : الأعلام (3/231) .

[3] الحياة الأدبية في جزيرة العرب لطه حسين ص 13 وما بعدها . نقلا عن رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لمحمد بن عبد الله السلمان .

[4] قاموس الإسلام ص 660 . نقلا عن : محمد بن عبد الوهاب مصالح مظلوم ومفترى عليه لمسعود الندوي ص 109.

وقال محمد كرد[1] – علامة الشام - : " وما ابن عبد الوهاب إلا داعية ، هداهم من الضلال ، وساقهم إلى الدين السمح ، وإذا بدت شدة من بعضهم فهي ناشئة من نشأة البادية ، وقلما رأينا شعبا من أهل الإسلام يغلب عليه التدين والصدق والإخلاص مثل هؤلاء القوم ، وقد اختبرنا عامتهم وخاصتهم سنين طويلة فلم نرهم حادوا عن الإسلام "[2].

ويقول الزركلي[3] في ترجمته للشيخ محمد بن عبد الوهاب : " وكانت دعوته: الشعلة الأولى للنهضة الحديثة في العالم الإسلامي كله ، تأثر بها رجال الإصلاح في الهند ، ومصر ، والعراق ، والشام وغيرها "[4].

ويقول الرحالة جوهان بوركهارت : " لم تكن مبادىء محمد بن عبد الوهاب مبادىء ديانة جديدة ؛ بل كانت جهوده موجهة فقط لإصلاح المفاسد التي تفشت بين المسلمين ، ونشر العقيدة الصافية بين البدو الذين كانوا مسلمين اسميا، لكنهم جهلاء بالدين ، وغير مبالين بكل فروضه التي أوجبها "[5].

ويقول جولد زيهر في كتابه " العقيدة والشريعة ": " يجب على من ينصب نفسه للحكم على الحوادث الإسلامية أن يعتبر الوهابيين أنصارا للديانة الإسلامية على الصورة التي وضعها النبي والصحابة ، فمراد الوهابيين وغايتهم هي إعادة الإسلام كما كان "[6].

وقال حافظ وهبة[7] في كتابه "جزيرة العرب" بعد أن ذكر نبذة يسيرة من تاريخ الشيخ ، قال : " لم يكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب نبيا كما ادعى ينبهر الدانمركي ، ولكنه مصلح

---

[1] هو : محمد بن عبد الرزاق بن محمد بن كرد علي ، رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ، ومؤسسه ، له مؤلفات كثيرة ، توفي بدمشق سنة(1372هـ) . انظر: الأعلام (6/202) .

[2] القديم والحديث لمحمد كرد علي ص 120. نقلا عن حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لسليمان الحقيل ص 209 ، والشيخ محمد بن عبد الوهاب لأحمد بن حجر آل بوطامي ص 123 .

[3] هو : خير الدين محمود بن محمد الزركلي الدمشقي ، نسبة إلى قبيلة تركية ، ولد في بيروت ، وتوفي بالقاهرة سنة (1396هـ) ، له عدة مؤلفات ، أشهرها الأعلام .انظر : الأعلام (8/267)، تتمة الأعلام (1/166) .

[4] الأعلام للزركلي (6/ 257) .

[5] مواد لتاريخ الوهابيين للرحالة جوهان لودفيج بوركهارت (ص13) .

[6] المرجع السابق ص 214.

[7] من مؤرخي الدولة السعودية ، مصري الأصل والمولد والمنشأ ، قدم إلى الرياض في عهد الملك عبد العزيز، وعينه سفيرا في لندن ، توفي في روما سنة (1387هـ) . انظر : الأعلام (2/160) .

مجدد ، داع إلى الرجوع إلى الدين الحق ، فليس للشيخ محمد تعاليم خاصة ، ولا آراء خاصة ، وكل ما يطبق في نجد هو طبق مذهب الإمام أحمد بن حنبل-رحمه الله- وأما في العقائد فهم يتبعون السلف الصالح ، ويخالفون من عداهم "[1].

بل شهد بالحق من تصدى لانتقاد الدعوة ولمزها ، يقول د. محمد البهي[2] : "إذا تنادي هذه الحركة بالرجوع إلى مذهب السلف لا تعني أكثر من إبعاد القياس والعرف مع التزام نصوص القرآن والحديث الصحيح في الفقه في دائرة التشريع وبذلك تستمر في مجال الخصومة المذهبية ".

ويقول في موضع آخر: " إن دعوتها إلى القرآن والسنة صاحبها تفسير تطبيقي عملي لها أبعدها عن الوضع والهدف يوم أن نادى بها ابن تيمية ، مما يشير إلى أنها الدعوة إلى الحياة الصحراوية على عهد الجماعة الإسلامية الأولى ، وليست الدعوة إلى الإسلام الواضح كما يمثله القرآن والسنة الصحيحة، ذلك الإسلام الذي أرق الحضارة الصناعية....". فهو يلمز دعوة الشيخ بما هو من مآثرها ، وهو التطبيق العملي لما تدعو إليه من العودة إلى القرآن والسنة والتشبه بحياة الرعيل الأول ، وهذه هي حقيقة الدعوة.

ويقول الشيخ محمد خليل هراس في معرض نقده لهذا الكلام : " فإذا لم يكن هؤلاء الرعيل الأول على الإسلام الواضح وهم الذين عاصروا نزول الوحي وتلقوه من فم الرسول غضا طريا ، فمن يكون إذا يا معالي الدكتور ؟! "[3].

المطلب الثالث : سمات وخصائص دعوة الشيخ محمد بن

---

[1] نقلا عن : الشيخ محمد بن عبد الوهاب وعقيدته السلفية ، للشيخ أحمد آل بوطامي ص 120.

[2] مفكر إسلامي ، ولد في محافظة البحيرة في مصر ، عمل وزيرا للأوقاف وشؤون الأزهر ، له عدة مؤلفات ، توفي سنة (1403هـ) . انظر : تتمة الأعلام لمحمد خير رمضان (2/53) .

وقد كتب في كتابه " الفكر الإسلامي في تطوره " فصلا عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وقد تحامل فيه – عفا الله عنه – على الوهابية ، ورد عليه الشيخ محمد خليل هراس بكتاب سماه " الحركة الوهابية " كشف فيه الحق ، وأزال اللبس . انظر: دعاوى المناوئين (ص9).

[3] انظر : الحركة الوهابية لمحمد خليل هراس ص 57 – 60 .

عبدالوهاب- رحمه الله -

اعتمد الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – منهجا واضحا نهجه هو ومن بعده أئمة الدعوة، ومن أبرز سماته وخصائصه ما يأتي:-

أولا: الأصالة والثبات

ويتمثل ذلك بعدة أمور منها :

1- اقتصار هذه الدعوة في التلقي على الكتاب والسنة واعتماد آثار السلف الصالح، وهذا من سمات وخصائص أهل السنة والجماعة ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله–: " ليس الاعتقاد لي ولا لمن هو أكبر مني ، بل الاعتقاد يؤخذ عن الله سبحانه وتعالى ورسوله وما أجمع عليه سلف الأمة".[1]

ويقول الشيخ عبد اللطيف : " فاعلم أن مستند المسلمين في العقائد ومرجعهم في أصول الدين وفروعه إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله وإجماع من سلف من علماء الأمة."[2]

ويقول الشيخ ابن عيسى : " اعلم أرشدك الله تعالى أنه قد قام البرهان والإجماع على أنه لا يجوز لأحد أن يعدل عما في الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها إلى ما أحدثه بعض الناس مما يتضمن خلاف ذلك ، ويوقع الناس في تلك المهالك ، وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده، بل عليه أن يتبع ولا يبتدع ، ويقتدي ولا يبتدي ، فإن الله سبحانه بعث رسوله محمد بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وقال له : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (يوسف:108)"[3] .

ولذلك عدة مظاهر منها:-

1- المطلع على مؤلفاتهم ورسائلهم يرى استدلالهم بالقرآن واضحا جليا عن طريق سرد الآيات القرآنية التي تؤيد آراؤهم .

2- إنكارهم على مخالفيهم اهتمامهم بكتب أخرى أكثر من اهتمامهم بالقرآن الكريم " كدلائل الخيرات " و " روض الرياحين ".

---

[1] مجموع الفتاوى (3/203) .

[2] منهاج التأسيس ص 17 .

[3] الرد على شبهات المستعينين بغير الله لابن عيسى ص 21

ج- استفادتهم من أسلوب القرآن الكريم سواء في تقرير العقيدة أو الرد على الخصوم ، يقول الشيخ مسعود الندوي[1] : " ولكن أسلوب الشيخ أسلوب قرآني محض وأدلته كلها مأخوذة من القرآن والسنة "[2].

د- الاستعانة على فهم الآيات بالتفاسير المتداولة والتي تلقتها الأمة بالقبول ، وعدم تتبع الشاذ من أقوال المفسرين كما تفعل المبتدعة ، ومن أجل كتب التفسير لديهم تفسير الطبري وابن كثير والبغوي[3].

هـ- التزام قول النبي ، والاهتمام بتصحيح الأحاديث وتضعيفها ، والعمل بالسنة إذا بانت لهم ، ودعوة الناس إلى ذلك ، يقول الشيخ محمد –رحمه الله- في إحدى رسائله: " إني أذكر لمن خالفني : أن الواجب على الناس اتباع ما وصى به النبي أمته ، وأقول لهم : الكتب عندكم ، انظروا فيها ، ولا تأخذوا من كلامي شيئا ، لكن إذا عرفتم كلام رسول الله الذي في كتبكم فاتبعوه ولو خالفه أكثر الناس"[4].

و- اهتمامهم بآثار السلف : فكثيرا ما يجد الباحث في مؤلفات الشيخ ، وعلماء الدعوة -رحمهم الله- أقوالا للأئمة، وغيرهم، مسرودة في مؤلفاتهم ورسائلهم ، لتأييد ما يوردونه من آراء[5].

2- عدم التقديم بين يدي الله ورسوله ، وقد أكد الشيخ – رحمه الله – في مواضع كثيرة من رسائله وفتاواه وكتبه ضرورة الرجوع إلى الكتاب والسنة حتى لا تطغى آراء العقول على الوحي والأصول.[6]

يقول الشيخ عمن كان ديدنهم التقليد : " فعكسه أن تبتدع بدعة بآراء الرجال وتأويلاتهم ، ثم تجعل ما جاء به الرسول تبعا لها وتحرف ألفاظه وتؤول على وفق ما أصلوه"[7].

ويقول الشيخ عبداللطيف -رحمه الله- : " وقد تقدم أن العمدة عندهم في مسائل أصول الدين وفروعه على كتاب

---

[1] هو باحث وداعية إسلامي ، من كبار العاملين في الدعوة في باكستان ، نسبته إلى دار الندوة ، له عدة مؤلفات ، (1328-1373هـ) . الأعلام (7/221) .

[2] محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم للندوي ص 163.

[3] نظر : عقيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب للدكتور صالح العبود (1/371)

[4] مجموع مؤلفات الشيخ (3/ الرسائل الشخصية/الرسالة الرابعة ص19)

[5] انظر : رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب للسلمان ص 53 .

[6] انظر: تأملات في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لعبد المحسن التركي ص 86 .

[7] الدرر السنية (2/8) .

الله وسنة رسوله وإجماع أهل العلم من هذه الأمة ، ولا تذكر أقوال أهل العلم إلا تبعا وبيانا لا أنها المقصودة "[1].

ويقول في موضع آخر : "وليس المعول على كلام الآحاد من أهل العلم والدين وإن علت درجتهم وارتفعت رتبهم ، ولا تصلح المعارضة بقول فلان وفلان من أهل العلم والدين ، ولا ينتقص الدليل بمخالفة أحد كائنا من كان"[2].

3- عدم تأثرها بأي ثقافة أجنبية ، ونتج عن ذلك بعدها عن المصطلحات الكلامية ، والعبارات الصوفية ، يقول الشيخ مسعود الندوي-رحمه الله- : "فكتبه واضحة كما أن الواحد مع الواحد يساوي اثنين ، وهي تشهد على جرأة مؤلفها وصدقه ، وعلى سبيل المثال : اقرأ كتاب التوحيد كاملا ، من أوله إلى آخره ، لا تجد فيه أي غموض ، ولا تجد أدنى شائبة من التصوف، والتوهمات، والأبحاث البعيدة التي لا طائل تحتها ، ولا ترى فيه أي أثر للاستدلال الفلسفي ، ولا السفسطة اليونانية ، فهو بعيد كل البعد من كل هذه الترهات "[3].

ويقول في موضع آخر : " فلا توجد في هذه المكتوبات تنطعات المتكلمين ، ولا تكلفات الفقهاء المتأخرين ، الذين سيطرت عليهم العلوم اليونانية .

ولكنها على طريق المحدثين تماما ، فكل ما قاله في كلمات واضحة ، مستدلا بنصوص من الكتاب والسنة وكفى"[4].

4- دقة الالتزام بالمنهج ، يقول الشيخ أحمد آل بوطامي-رحمه الله- : "فيقال للمخالفين وللمغترين : أرونا هذه المفتريات أو بعضها في شيء من مؤلفات الشيخ ، أو من مؤلفات أتباعه ، أو مؤلفات أئمة الدعوة ، ولاشك أنهم لا يستطيعون أن يثبتوا حرفا واحدا في كتب الشيخ وأتباعه"[5].

ويقول الشيخ عبد اللطيف مؤكدا التزامهم بمنهجهم : " أما الحلف : فنطلق عليه ما أطلق رسول الله من تسميته شركا وكفرا ، ولا نقول : شركا أكبر"[6].

---

[1] منهاج التأسيس ص 79 .
[2] ? المنهاج ص 22 .
[3] محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ص 67 – 68 .
[4] المرجع السابق ص 163 .
[5] المرجع سابق ص 78 .
[6] منهاج التأسيس ص 299 .

5- الجمع بين الأدلة ، والتأكيد على أن الأدلة الصحيحة لا تتناقض .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - : " إن الكتاب والسنة يحصل فيهما الكمال والهدى والنور لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه ، وقصد اتباع الحق، وأعرض عن تحريف الكلام عن مواضعه ، والإلحاد في أسماء الله وآياته، ولا يحسب الحاسب أن شيئا من ذلك يناقض بعضه بعضا البتة "[1].

ويقول الشاطبي-رحمه الله-[2] : " فإن الذي عليه كل موفق بالشريعة أنه لا تناقض فيها ولا اختلاف ، فمن توهم ذلك فيها ، فلم يمعن النظر ولا أعطى وحي الله حقه"[3]. ويؤكد ذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب-رحمه الله- حيث يقول: " إذا اختلف كلام أحمد وكلام أصحابه ، فنقول في محل النزاع : التراد إلى الله ورسوله لا إلى كلام أحمد ، ولا إلى كلام أصحابه ، وقولك : إذا استدل كل منهما بدليل ، فالدلائل الصحيحة لا تتناقض بل يصدق بعضها بعضا ، لكن قد يكون أحدهما أخطأ في الدليل: إما استدل بحديث لا يصح ، وإما فهم من كلمة صحيحة مفهوما مخطئا"[4].

ثانيا: التركيز على التوحيد .

يمكن القول أن مسألة التوحيد هي أهم المسائل التي قامت من أجلها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وكل ما عداها من المسائل فهو منضو تحتها أو فرع منها، وقد ركز الشيخ محمد وعلماء الدعوة-رحمهم الله- على التوحيد ، وأخذ الحديث عنه القسم الأكبر من مؤلفاتهم ورسائلهم ؛ وذلك لأن هذا القسم هو مثار الجدل بينهم وبين خصومهم ، يقول الشيخ عبد اللطيف : " إن هذا الباب – أي باب عبادة الله وحده لا شريك له – هو خلاصة الكتب الإلهية و زبدة الدعوة النبوية"[5]. ومن مظاهر تركيزهم على التوحيد ما يأتي :

1- التأكيد على أن التوحيد هو أول واجب على المكلف .

---

[1] العقيدة الحموية (ص 79) .

[2] هو : إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي ، المشهور بالشاطبي ، أصولي حافظ ، كان من أئمة المالكية ، له عدة مؤلفات ، منها : (الموافقات في أصول الفقه ، الاعتصام) وغيرها ، توفي سنة (790هـ) . انظر : نيل الابتهاج بتطريز الديباج لابن التنابكي (46) ، الأعلام للزركلي (1/75) .

[3] الاعتصام (2/317).

[4] روضة الأفكار (2/287) لابن غنام.

[5] المنهاج ص 249 .

يقول الشيخ-رحمه الله- : "واعلم أن التوحيد هو إفراد الله سبحانه بالعبادة ، وهو دين الرسل الذين أرسلهم الله به إلى عباده ، فأولهم نوح – عليه السلام – أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين ... وآخر الرسل محمد ﷺ وهو الذي كسر صور الصالحين"[1].

2- أن الإقرار بتوحيد الربوبية فقط لا يكفي في الدخول في الإسلام : يقول الشيخ في القواعد الأربع : " القاعدة الأولى: وهي أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا مقرين لله بتوحيد الربوبية وأن الله هو الخالق الرازق المحيى المميت المدبر لجميع الأمور، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام"[2] .

3- نفي خصائص الألوهية عن كل ما سوى الله : حيث شاع في ذلك الوقت صرف بعض خصائص الألوهية ، كالدعاء والاستغاثة والذبح وغير ذلك لغيره سبحانه ، سئل الشيخ محمد-رحمه الله- عن معنى كلمة : لا إله إلا الله ، فقال: " اعلم أن هذه الكلمة نفي وإثبات: نفي الألوهية عما سوى الله – تعالى – من المخلوقات ، حتى محمد ﷺ حتى جبريل فضلا عن غيرهما من الأولياء والصالحين"[3].

4- حرصهم على سد باب الذرائع المؤدية إلى الشرك ، يقول الشيخ محمد –رحمه الله- : " وأول ما جرى من هذا أن بني أمية - لما بنوا مسجد الرسول ﷺ وسّعوه واشتروا بيوتاً حوله ، ولم يمكنهم إدخال بيت النبي ﷺ الذي فيه قبره وقبر صاحبيه، ولكن أدخلوا البيت في المسجد ، لأجل توسيع المسجد ولم يقصدوا تعظيم الحجرة بذلك ، لكن قصدوا تعظيم المسجد ، ومع هذا أنكره علماء المدينة حتى قتل خبيب بن عبد الله بن الزبير بسبب إنكاره ذلك ،فانظر إلى سد العلماء الذرائع"[4] .
5- التأكيد على معرفة قواعد الدين على التفصيل : فالشيخ يبين أن أهم وأنفع شيء هو معرفة قواعد الدين على التفصيل فإن أكثر الناس يفهم القواعد ويقر بها على الإجمال ويدعها عند التفصيل. فمثلا يقول: " التوحيد زين ، والدين حق . فإذا تبين له أن التوحيد والدين تكفير المشرك وقتاله على ذلك ، ترك هذا الأمر لأنه لا يوافق هواه."[5]

---

[1] مؤلفات الشيخ (5/65 ، 152 ، 153) .
[2] مجموعة التوحيد ص 107 ، وانظر : روضة الأفكار لابن غنام (2/232) .
[3] مجموعة التوحيد ص 107 ، وانظر : روضة الأفكار لابن غنام (2/232) .
[4] مجموع مؤلفات الشيخ (المجلد الثاني/ قسم الفتاوى / المسألة الرابعة عشر) .

6- البراءة من ضروب الشرك ، والتكفير والقتال لكل من خالف التوحيد : وبما أن الكلام على التوحيد لا يكتمل إلا ببيان ضده وهو الشرك وكل الأمور الموصلة إليه ، لذلك اهتم أئمة الدعوة ببيان ضروب الشرك وحكمه ، ورفعوا راية الجهاد على كل من خالفه . يقول الشيخ عبد اللطيف حاكيا عن سمات دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب-رحمهم الله- ومنهجه في التكفير : "سألني الشريف عما نقاتل عليه ، وعما نكفر الرجل به ؟ فأقول : أركان الإسلام خمسة ، أولها : الشهادتان ، ثم الأركان الأربعة ، فالأربعة إذا أقر العبد بها وتركها تهاونا فنحن وإن قاتلناه على فعلها فلا نكفره.."[1].

ويقول الشيخ-رحمه الله- في الرسائل الشخصية "وإنما نكفر من أشرك بالله في إلهيته بعدما تبين له الحجة على بطلان الشرك ، وكذلك نكفر من حسنه للناس ، أو أقام الشبه الباطلة على إباحته ، وكذلك من قام بسيفه دون هذه المشاهد التي يشرك بالله عندها ، وقاتل من أنكرها وسعى في إزالتها والله المستعان والسلام "[2].

ويرد الشيخ عبد اللطيف على من اتهمهم بقتال المسلمين واستحلال دمائهم حيث يقول : " نقول هذا العراقي جاهل بأصل هذه الدعوة النجدية وبحال شيخهم – رحمه الله – والله تعالى قد حكم في دماء المشركين وأموالهم وبين ذلك ووضحه في كتابه أتم بيان وأحسن توضيح ، قال تعالى: "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة" والفتنة هي الشرك"[3].

7- التفريق بين حقوق الله ، وحقوق المخلوقين : يقول الشيخ عبد اللطيف : "وأما حصول الشفاعة وسؤاله يوم القيامة فهذا لا ينكر وهو من جنس ما كان يطلب منه في حياته ، وأما بعد موته فلم يعرف أحد من أصحابه ولا عن أحد من أئمة الإسلام بعدهم أنه دعاه وطلب منه شفاعة أو غيرها ، وإنما فعله بعض الخلوف الذين لا يرجع إليهم في مسائل الأحكام"[4].

ثالثا- الدعوة إلى الاجتهاد ومحاربة التقليد :

[5] انظر : مؤلفات الشيخ (القسم الثاني /الفتاوى ص 31) ، (الجزء الثاني / الفقه ص 10) ، (القسم الثالث / الرسائل الشخصية /رقم 27 ص 101) . وانظر: عقيدة الشيخ محمد عبد الوهاب للعبود (1/292 – 293) .

[1] منهاج التأسيس ص 68 .

[2] مؤلفات الشيخ (3/الرسالة التاسعة /33) .

[3] المنهاج ص 26 – 27.

[4] منهاج التأسيس ص 213.

ومع أن أئمة الدعوة يصرحون في أن مذهبهم في أصول الدين مذهب أهل السنة والجماعة ، وفي الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، فإنهم يصرحون أيضا أن أصول الدين لا اجتهاد فيها ، أما الفروع فإن الشيخ محمد-رحمه الله- صرح بأنه يتقبل فيها كلمة الحق من أي إمام ، ويترك ما عداه حاشا رسول الله[1].

وكان أيضا يذم التقليد ويبين أن دين المشركين مبني على أصول أعظمها التقليد، فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار أولهم وآخرهم.[2]

وتتمثل هذه السمة من سمات الدعوة من خلال:

1- التأكيد على عدم الاغترار بالكثرة ، حيث يقول الشيخ : " وأما المسائل التي ذكرت ، فاعلم أولا : أن الحق إذا لاح واتضح لم يضره كثرة المخالف ولا قلة الموافق ، وقد عرفت بعض غربة التوحيد الذي هو أوضح من الصلاة والصوم ولم يضره ذلك ...."[3].

2- وزن أقوال الناس بأقوال الرسول ﷺ: - وقد بين هذا الأصل العظيم الشيخ وتلاميذه من بعده ، فقد جاء في رسالة ابني الشيخ حسن وعبد الله-رحمهم الله- قولهما: "عقيدة الشيخ رحمه الله التي يدين بها هي عقيدتنا وديننا الذي ندين الله به ، وهي عقيدة سلف الأمة وأئمتها والصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهو اتباع ما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وعرض أقوال العلماء على ذلك ، فما وافق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قبلناه وأفتينا به ، وما خالف ذلك رددناه على قائله ، وهذا هو الأصل الذي أوصانا به في كتابه حيث قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) (النساء:59) "[4].

ويقول الشيخ محمد-رحمه الله-: " فتوزن أقوال الناس وأفعالهم الظاهرة والباطنة في عبادة الله تعالى بأقوال

---

[1] انظر : تاريخ ابن غنام ص 423.
[2] انظر : مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبد الوهاب
[3] مختصر السيرة ص 88 .
[4] الدرر السنية 4/12 .

الرسول وأفعاله ، فما وافق منها أقوال الرسول وأفعاله قبل ، وما خالف رد على فاعله كائنا من كان"[1].

3- نهيه عن التقليد ونبذه للتعصب لأحد من العلماء دون الدليل كائنا من كان ، ومع إجلاله -رحمه الله- للإمام أحمد وابن تيمية وابن القيم وغيرهم من أئمة السلف- رحمهم الله - إلا أنه يكرر أنه لن يوافق رجلا بما يخالف الدليل ، يقول في أحد رسائله : " على أن الذي نعتقده وندين الله به ونرجو أن يثبتنا عليه ، أنه لو غلط هو – يعني ابن تيمية – أو أجل منه في هذه المسألة ، وهي مسألة إشراك المسلم بالله بعد بلوغ الحجة ، أو المسلم الذي يفضل هذا على الموحدين ، أو يزعم أنه على حق ، أو غير ذلك من الكفر الصريح الظاهر الذي بينه الله ورسوله، وبينه علماء الأمة ؛ أنا نؤمن بما جاءنا عن الله وعن رسوله من تكفيره ، ولو غلط من غلط ، فكيف والحمد لله ونحن لانعلم عن واحد من العلماء خلافا في هذه المسألة"[2].

ويقول في موضع آخر ناهيا عن التقليد ، ونابذا للتعصب لأحد العلماء دون دليل : " ولا خلاف بيني وبينكم أن أهل العلم إذا أجمعوا وجب اتباعهم ، وإنما الشأن إذا إختلفوا، هل يجب علي أن أقبل الحق ممن جاء به وأرد المسألة إلى الله والرسول مقتديا بأهل العلم ، أوانتحل بعضهم من غير حجة ، وأزعم أن الصواب في قوله ؟ فأنتم على هذا الثاني ، وهو الذي ذمه الله وسماه شركا، وهو اتخاذ العلماء أربابا، وأنا على الأول أدعو إليه، وأناظر عليه"[3].

رابعا- الإخلاص :

وهذه السمة من أبرز سمات الدعوة ، فطريقة الشيخ وأئمة الدعوة من بعده في العلم والدين هي : إخلاص القصد لله تعالى، والاتباع، ومجانبة الابتداع، وتعلم العلم النافع، يقولون بما يعلمون، ويكلون علم ما لم يعلموا إلى عالمه، ولا يقولون بغير علم[4].

يقول الندوي-رحمه الله- : " وقد حاول بعض أدعياء العلم نسبة بعض التهم من هذا القبيل إليهم ولكن أتباعه وأحفاده

---

[1] مؤلفات الشيخ (3/ الرسائل الشخصية رقم (16) ص 59) .
[2] مؤلفات الشيخ – قسم العقيدة – مفيد المستفيد ص 290 – 291.
[3] الرسائل الشخصية رقم (37) (3/138) .
[4] انظر :عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لصالح العبود (1/263) .

كانوا معلنين ومخلصين في عقيدتهم ، ولذلك لم تضرهم هذه الافتراءات شيئا"[1].

ومن دلائل إخلاصهم – رحمهم الله – ما يلي :

1- الإعراض عن الرد على من نال من أعراضهم ، ويتصدون بالرد على من يثير الشبهات حول دعوتهم فقط لكي لا يضل الناس.

يقول الشيخ عبد اللطيف في أحد رسائله : " فأما ما صدر في حقي من الغيبة والقدح والاعتراض والمسبة ونسبتي إلى الهوى والعصبية ، فتلك أعراض انتهكت وهتكت في ذات الله أعدها لديه جل وعلا ليوم فقري وفاقتي ، وليس الكلام فيها ، والقصد بيان ما أشكل على الخواص."[2]

2- اقتران العلم بالعمل ، والحرص على تطبيق الشرع .

يقول الشيخ محمد خليل هراس: "بل لا نعرف حركة إسلامية كانت أمينة على مبادئها وملتزمة بها في مجال التطبيق مثل الحركة الوهابية ، ولعل هذا هو الذي ضمن لها البقاء والرسوخ "[3].

ويقول الشوكاني-رحمه الله-[4] : " ومن دخل تحت حوزته – الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود[5] – أقام الصلاة والزكاة والصيام وسائر شعار الإسلام ، ودخل في طاعته من عرب الشام الساكنين مابين الحجاز وصعدة غالبهم إما رغبة وإما رهبة ، وصاروا مقيمين لفرائض الدين بعد أن كانوا لا يعرفون من الإسلام شيئا، ولا يقومون بشيء من واجباته إلا مجرد التكلم بلفظ الشهادتين على ما في لفظهم من عوج "[6].

---

[1] محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ص 67 .
[2] مجموعة الرسائل والمسائل (3/69) .
[3] الحركة الوهابية لمحمد خليل هراس ص 69 .
[4] انظر ترجمته : ص(419) .
[5] هو الإمام الذي تولى قيادة الدولة السعودية الأولى بعد وفاة والده ، اتسع نطاق الدولة في عهده ، اشتهر رحمه الله بالعدل والتقوى ، مات مقتولا على يد رافضي وهو يصلي . انظر: عنوان المجد لابن بشر (1/125) ، الأعلام (4/27) .
[6] البدر الطالع للشوكاني (2/5) .

3- الابتعاد عن المجادلة واللجج في الخصومة .

4- الحرص على تعليم العامة ما ينفعهم ، وهذا من أبرز ما يميز دعوة الشيخ ويؤكد فاعليتها : اهتمامها بالحديث إلى عامة الناس وتفهيمهم دينهم كما اهتمت بالحديث إلى العلماء والخاصة.

وكان -رحمه الله- يحدث الناس بلغتهم ، فينزل إلى مستوى تفكيرهم ، كما كان يخاطب الناس على قدر عقولهم ، وهذا من علامات الإخلاص في الدعوة، ومن البراهين التي تثبت أن قصده إيصال حقائق هذا الدين إلى عـامـة الناس[1].

كما كان – رحمه الله – لا يحقر في التعليم أحدا ، يقول في تفسير سورة يوسف : "وينبغي للعالم إذا سأله العامي عما لا يحتاج إليه أو سأله عما غيره أهم منه أن يفتح له بابا إلى المهم ، ولا يحقر عن التعليم من يظنه أبعد الناس عنه ، ولا يستبعد فضل الله عليه فإن الرجلين الذين مع يوسف في السجن من خدام الملوك الكفرة ، بخلاف من يقول: ليس هذا بأهل للعلم، وتعليمه إضاعة للعلم"[2].

وكان - رحمه الله – يحث على تعليم الناس ما ينفعهم ، يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن : " وقد كان شيخنا المصنف – رحمه الله – لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم وعبادتهم ومعاملاتهم ، الذي لا غنى لهم عن معرفته"[3].

وكان يلقنهم على طريقة السؤال والجواب ، وذلك أدعى لفهمهم وحفظهم وعلى هذا سار من بعده من أئمة الدعوة.

5- النهي عن التفرق والاختلاف : وكذلك يكون من سار على منهج أهل السنة والجماعة لأنهم ليسوا أصحاب هوى ، يقول الشيخ عمر الأشقر – واصفا مميزات أهل السنة والجماعة : " فهم دعاة وحدة لا دعاة فرقة ، ولكنها وحدة تقوم على أصول وضوابط تميزهم عن الفرق الضالة"[4].

خامسا: التوسط والاعتدال :

---

[1] انظر: السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لعلي عبد الحليم محمود ص 113.

[2] مؤلفات الشيخ – القسم الرابع – تفسير سورة يوسف ص 147 – 148.

[3] فتح المجيد ص 414.

[4] عقيدة أهل السنة والجماعة لعمر الأشقر ص 73.

ولذلك معالم تتضح فيما يأتي:

1- الحكم على الناس بالعدل : فهم لا يخرجون من دائرة الإسلام إلا من كفر بمعلوم من الدين بالضرورة بعد أن تقام عليه الحجة ، حتى الفرق المناوئة لهم لم يبادروا إلى تكفيرهم ، ولم يكفروا العصاة.[1]

يقول الشيخ عبد اللطيف-رحمه الله-: " والشيخ محمد – رحمه الله – من أعظم الناس توقفا وإحجاما عن إطلاق الكفر، حتى أنه لم يجزم بتكفير الجاهل الذي يدعو غير الله من أهل القبور أو غيرهم إذا لم يتيسر له من ينصحه ويبلغه الحجة التي يكفر تاركها"[2].

2- احترام العلماء ومعرفة قدرهم ، وعدم رفعهم إلى غير منازلهم ، يقول الشيخ محمد – رحمه الله - : " فينبغي للمؤمن أن يجعل همه وقصده معرفة أمر الله ورسوله في مسائل الخلاف والعمل بذلك ، ويحترم أهل العلم ويوقرهم ولو أخطأوا ، ولكن لا يتخذهم أربابا من دون الله ، هذا طريق المنعم عليهم ، وأما اطراح كلامهم وعدم توقيرهم فهو طريق المغضوب عليهم"[3].

كما أنهم يقرون بما ورد من كراماتهم ؛ حيث يقول الشيخ : "وأقر بكرامات الأولياء ومالهم من المكاشفات إلا أنهم لا يستحقون من حق الله تعالى شيئا، ولا يطلب منهم مالا يقدر عليه إلا الله"[4].

3- ترك التعصب لمذهب أو شيخ أو طريقة : فهي دعوة عامة لأتباع المذاهب الأربعة وغيرهم ، هدفها تطهير العقائد من الشرك ومحاربة الخرافات والبدع[5].

ويقول الشيخ محمد-رحمه الله- : "ونحن أيضا في الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، ولا ننكر على من قلد أحد الأئمة الأربعة دون الغير، لعدم ضبط مذاهب الغير كالرافضة..."[6].

---

[1] المرجع سابق ص 74.
[2] منهاج التأسيس ص 98 – 99.
[3] القسم الثالث – مختصر السيرة ص 10 – 12.
[4] رسائل الشيخ (1/14 – 17)
[5] الحركة الوهابية لمحمد خليل هراس ص 30.
[6] تاريخ نجد للألوسي ص (89) .

ويقول الندوي في معرض حديثه عن الشيخ ونبذه للتعصب لمذهب معين ، وعدم تفريقه بين المذاهب : " ويطلب من الشافعي أن يكون شافعيا ، ومن الحنفي أن يكون حنفيا"[1].

ويقول في موضع آخر ناهيا عن التقليد ، ونابذا للتعصب لأحد العلماء دون دليل : "ولا خلاف بيني وبينكم أن أهل العلم إذا أجمعوا وجب اتباعهم ، وإنما الشأن إذا اختلفوا، هل يجب على أن أقبل الحق ممن جاء به وأرد المسألة إلى الله والرسول مقتديا بأهل العلم ، أو انتحل بعضهم من غير حجة، وأرغم أن الصواب في قوله؟ فأنتم على هذا الثاني وهو الذي ذمه الله وسماه شركا، وهو اتخاذ العلماء أربابا، وأنا على الأول أدعو إليه، وأناظر عليه"[2].

4- التوسط بين الفرق : يقول الشيخ عبد اللطيف : "وأن أهل السنة والجماعة هم المتمسكون بما كان عليه رسول الله ﷺ من المعتقد والدين الذين خالفوا به أهل البدع وباينوهم ، فلم يذهبوا إلى ما ذهبت إليه الجهمية المعطلة ، ولا إلى ما ذهبت إليه القدرية النفاة ، والقدرية المجبرة ، ولا إلى ما ذهبت إليه الخوارج والمعتزلة ، ولا إلى ما ذهب إليه الرافضة والمرجئة.. ولم يذهبوا إلى ما افتراه الغلاة في الأولياء والصالحين من عباد القبور ونحوهم"[3].

سادسا: الوضـــــوح:

وذلك بترك التعقيد ، والابتعاد عن الغموض والفلسفة ، فكانت هذه الدعوة واضحة في تناول العقيدة ، وفي طريقة الاستدلال .

يقول الشيخ محمد خليل هراس : " ثم إن هذه الحركة لا تجعل من صفات الله تعالى مشكلة كما فعل غيرها ، ولا تجعلها موضوع مناقشة جدلية ، بل تأخذ فيها بالبساطة المعروفة عن العقيدة الإسلامية الأولى قبل أن تنشأ تلك التعقيدات التي أثارها المتكلمون"[4].

---

[1] الشيخ محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم ص 181.
[2] الرسائل الشخصية رقم (37) (3/138) .
[3] المنهاج ص 34 .
[4] الحركة الوهابية لمحمد خليل هراس ص 27.

كما تميز أئمة الدعوة بوضوح الرؤية واستبانة الطريق ، فأصبح لديهم القدرة على تحديد الألفاظ المتنازع عليها وتبيين مدلولاتها ،ونتج عن ذلك قدرتهم على الاختصار والإيجاز ، فلأئمة الدعوة والشيخ محمد بن عبد الوهاب منهجهم المميز في الاختصار المفيد ، والتلخيص السديد[1] . يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب : "ما قل وكفى خير مما كثر وألهى"[2].

سابعا : الاهتمام بإصلاح المجتمع الإسلامي :

إن من أبرز سمات هذه الدعوة حملها راية الإصلاح ، وتوجيه الناس الوجهة الصالحة في العبادة وغيرها ، ومعرفة واقعهم وما يحتاجون إليه وهذه من سمات دعوة الرسل عليهم السلام ومن يقتدي بهم . وتتبين هذه السمة من خلال:

1- الاهتمام بجمع شمل المسلمين ، والنهي عن التفرق والاختلاف.

2- نشر العلم بين العامة والخاصة ، والرجال والنساء.

3- إحياء شعائر الدين كصلاة الجماعة وغيرها ، وأبرز شعيرة اهتم أئمة الدعوة بإحيائها هي شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى عرفوا بذلك. يقول الندوي: " كان ابن عبد الوهاب مولعا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منذ صغر سنه ، وصارت البدع تقلق باله منذ دراسته الابتدائية في الفقه والحديث في العينية ، واتخذ خطوات عملية للقضاء على البدع التي دخلت في الطريقة المسنونة في زيارة القبور"[3].

4- الحرص على تطبيق شرع الله تعالى بين العباد ، يقول الشيخ ابن سحمان-رحمه الله-: " وقد أجبر الناس كلهم على الصلاة مع الجماعة ، ودمرت آلات التنباك ، والملابس الحريرية ، وألغيت المكوس ، والرسوم التي لا يقرها الشرع الإسلامي"[4].

5- إحياء شعيرة الجهاد في سبيل الله ، يقول ابن بشر-رحمه الله-: " ثم أمر الشيخ بالجهاد لمن عادى أهل التوحيد ، وسبه وسب أهله ، وحضهم عليه ما امتثلوا "[5].

---

[1] انظر : مجمل اعتقاد السلف للتركي ص 103.
[2] الدرر السنية (1/61) .
[3] محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم (41 – 43) .
[4] الهدية السنية (ص 43) .
[5] عنوان المجد (1/45) .

الفصل الأول

ترجمة الشيخ عبداللطيف ومنهجه في كتاب (منهاج التأسيس)

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : ترجمة الشيخ عبداللطيف بإيجاز .

المبحث الثاني : منهجه في الكتاب بإيجاز .

المبحث الأول
ترجمة الشيخ عبداللطيف بإيجاز

*** اسمه و نسبه و نشأته**

هو الشيخ العالم العلامة أبو عبدالله عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب الوهبي التميمي النجدي ، ولد في الدرعية سنة 1225 هـ ، وكانت آهلة بالعلماء الأجلاء ، فنشأ وتعلم في الكتاتيب المنتشرة في تلك البلدة ، وحفظ القرآن الكريم ، وتربى تربية إسلامية في بيت والده وأعمامه ، ولما بلغ الثامنة من عمره دُمرت الدرعية بقيادة " إبراهيم باشا"[1]، ونقل أعيان الأسرتين [آل سعود وآل الشيخ] إلى مصر ، وكان الشيخ مع والده وعائلته من المنقولين ، وأقام هناك ما يزيد على إحدى وثلاثين سنة ، قضاها في العلم والمدارسة ، حتى لم يدع علما إلا وأدرك فيه إدراكا جيدا ، وصار من أشهر علماء الأزهر ، و تولى تدريس المذهب الحنبلي فيه ، وترأس رواق الحنابلة.

كان من مشايخه النجديين : الشيخ عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب – جده لأمه– ، ووالده الشيخ عبدالرحمن بن حسن (ت 1285هـ) ، و خاله الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله (ت 1274 هـ) ، والشيخ أحمد بن حسن بن رشيد المشهور بالحنبلي[2] .

---

[1] هو : إبراهيم بن محمد بن علي باشا , من ولاة مصر , أرسله أبوه محمد علي سنة : 1231هـ بحملة إلى الحجاز ونجد ، فعاث فيها فسادا , وحارب الدعوة السلفية , وأرسل أعيان أسرتي آل الشيخ و آل سعود إلى مصر . توفي بمصر قبل وفاة أبيه سنة 1264 هـ . انظر: الأعلام للزركلي (1/70) ، عنوان المجد لابن بشر (1/186) .

[2] هو : أحمد بن حسن بن رشيد بن عفالق ، النجدي أصلا ، الأحسائي مولدا و منشأ ، الحنبلي مذهبا، ولد في الأحساء سنة 1180 هـ ، ثم جاور بالمدينة ، و درس بالمسجد النبوي ، وتولى قضاء المدينة ، فلما استولى إبراهيم باشا على الحجاز أرسله إلى مصر ، وتوفي هناك سنة (1257 هـ) رحمه الله . انظر : تتمة النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد (ص362) ، مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص228) .

ومن مشايخه غير النجديين : شيخ الأزهر الشيخ إبراهيم الباجوري[1]، والشيخ محمد بن محمود الجزائري الحنفي[2] ، والشيخ مصطفى بن عبد الباقي الأزهري[3].

ثم لما تركت الجيوش العثمانية بلاد نجد ، وسكنت الفتن ، و ضعفت الرقابة على النجديين في مصر خرج الشيخ منها متوجها إلى نجد ، وكان وصوله عام 1264هـ في إمامة فيصل بن تركي ، فاعتمد عليه في جميع أموره ، واتخذ الشيخ المسجد الكبير مدرسة يرتادها طلاب العلم .

ثم بعثه الإمام فيصل إلى الأحساء بعد فتحها معلما ومفتيا وداعيا ، فأقام بها سنتين ، وبعد ذلك رجع إلى الرياض ، فعمل هو ووالده على مؤازرة الإمام فيصل ابن تركي ، فملآ نجدا في زمانهما علما ، وأعادا إلى الدعوة السلفية قوتها ونشاطها بعد ما حصل لها من الفتن والاضطرابات .

يقول فيلبي[4] في " تاريخ نجد " : " ثم وصل من مصر شخص آخر بارز ، هو الشيخ عبدالرحمن بن حسن حفيد محمد بن عبد الوهاب ، فاحتل منصب قاضي الرياض ، ذلك المنصب الذي قدر للشيخ أن يشغله سنوات عديدة يشاركه ابنه عبداللطيف ، وقد لعب الوالد وابنه دورا مهما في جعل الدين عاملا له أثره في حياة العرب "[5].

وكان رحمه الله قوي الحجة بارعا في المناظرة ، فصيح اللسان ، صادق اللهجة ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر.

وقد أخذ عنه العلم خلائق من أهل نجد ، منهم ابنه الشيخ عبدالله بن عبداللطيف (ت 1339 هـ) ، وأخوه الشيخ إسحاق بن عبدالرحمن (ت 1319هـ)، والشيخ سليمان بن سحمان[6](ت

---

[1] هو : إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري ، شيخ الجامع الأزهر ، من فقهاء الشافعية نسبته إلى الباجور (من قرى المنوفية بمصر) كتب حواشي كثيرة ، و له عدة مؤلفات ، تقلد مشيخة الأزهر سنة 1263هـ و توفي بالقاهرة سنه 1277 هـ . الأعلام (1/71) ، هدية العارفين (1/41) .

[2] هو : محمد بن محمود بن محمد الجزائري الحنفي ، يعرف بابن العنابي ، نسبة إلى مدينة عنابة في الجزائر ، ولي الإفتاء في الإسكندرية ، وتوفي بها سنة (1267هـ) . انظر : الأعلام للزركلي (7/89) .

[3] لم أعثر له على ترجمة – فيما بين يدي من المراجع - .

[4] هو : هاري سانت فيلبي ، ويدعى اختصارا " جاك "، ويسمى الحاج عبدالله فيلبي ، رحالة بريطاني ، اهتم بجزيرة العرب ، يقال : إنه اعتنق الدين الإسلامي ، وكان يحضر مؤتمرات المستشرقين ، مات في بيروت سنة (1380هـ) . انظر ترجمته في : مقدمة كتاب " بعثة إلى نجد " لفيليبي ، لعبدالله العثيمين (ص46-63) .

[5] تاريخ نجد (ص178) ، نقلا عن : مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص61) .

[6] انظر ترجمته : (ص50) .

1349هـ) ، والشيخ حمد بن عتيق[1]، وغيرهم كثير –رحمهم الله رحمة واسعة-.

*** عرض موجز لعصره ، والفتن التي حصلت فيه**

عاصر الشيخ أحداثا جساما مرت بها البلاد النجدية ؛ ففي صغره هاجم إبراهيم باشا بلاد نجد لاستئصال الدعوة السلفية ، وانتهت هذه الحملة بسقوط الدرعية ، ونهاية الدولة السعودية الأولى ، ودخول المصريون إلى الدرعية، فعاثوا فيها فسادا من الناحية الأخلاقية والاقتصادية.

ولما رجع إبراهيم باشا إلى مصر أخذ مجموعة من رجال آل سعود وآل الشيخ إلى مصر وأجبرهم على الإقامة هناك ، وكان ممن أخذ أسرة الشيخ عبداللطيف[2] .

ثم في عام (1235هـ) تولى الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود مقاليد الأمور في بلاد نجد ، وكانت بداية الدولة السعودية الثانية ، ثم تولى بعده ابنه الإمام فيصل بن تركي ، وفي عهده قدم الشيخ من مصر وكان ذلك سنة (

كان عصر الإمام فيصل عصر استقرار ، حيث استعاد المناطق التي فقدت إبان الفوضى ، فضم إليه الشرقية والبحرين وأجزاء من عمان وبعض المناطق الجنوبية ، وكان للشيخ عبداللطيف مكانة كبيرة ومنزلة عالية ، حتى وصفه بعض المؤرخين بأنه الرجل الثاني في الدولة[4] .

ثم توفي الإمام فيصل ، وتولى بعده ابنه عبدالله (1282-1307هـ) ، وكان في هذا العصر تنافسا شديدا على السلطة بين أبناء الإمام فيصل (سعود وعبدالرحمن ومحمد والإمام

---

[1] هو : الشيخ حمد بن علي بن محمد بن عتيق ، ولد سنة (1227 هـ) في الزلفي ، وقدم إلى الرياض في عهد الإمام فيصل بن تركي ، ولازم الشيخ عبدالرحمن بن حسن ، وقرأ على الشيخ عبداللطيف، له عدة مؤلفات منها : " إبطال التنديد شرح كتاب التوحيد ، النجاة والفكاك ، الدفاع عن أهل السنة والاتباع " وغيرها ، توفي في الأفلاج سنة (1301هـ) .

انظر: علماء نجد خلال ستة قرون للشيخ عبدالله البسام (1/228-232) ، مشاهير علماء نجد (244) .

[2] انظر : عنوان المجد (1/208-210) ، الدولة السعودية الثانية لعبد الفتاح أبو علية (27) .

[3] انظر : عنوان المجد (2/8) ، الدولة السعودية الثانية (40) .

[4] السعوديون والحل الإسلامي لمحمد جلال كشك ص 226 ، وانظر : عنوان المجد (2/121) ، الدولة السعودية الثانية لعبد الفتاح أبو علية (47) .

عبدالله) فوقعت فتنة عظيمة بين الأخوين عبدالله و سعود ، حيث كان سعود يريد انتزاع السلطة من أخيه عبدالله ، فجرت بينهما معارك شديدة ، وفتن عديدة أدت إلى دخول العساكر التركية إلى الأحساء ، وتطلع من كان قد قبع من رؤوس شياطين النفاق[1] ، وقد عاصر الشيخ هذه الفتنة وناله ما ناله بسببها ، وكان- رحمه الله – منشغلا بإخمادها ، يقول في إحدى رسائله التي أرسلها للشيخ حمد بن عتيق واصفا ما حدث من الفتنة ، ومبينا موقفه منها : " إني استعظمت ما فعل سعود من الخروج على الأمة و إمامها ، يضرب برها وفاجرها إلا من أطاعه وانتظم في سلكه ، و(عبدالله) له بيعة ، وله ولاية شرعيه في الجملة ، ثم بعد ذلك بدا لي أنه-عبدالله- كاتب الدولة الكافرة الفاجرة ، واستنصرها واستجلبها على ديار المسلمين فصار كما قيل:

والمستجير بعمرو بعد كربته   كالمستجير من الرمضاء بالنار

فخاطبته شفاها بالإنكار ، والبراءة ، وأغلظت له بالقول أن هذا هو هدم لأصول الإسلام، وهدم لقواعده ، وفيه ، وفيه ، وفيه مما لا يحضرني تفصيله الآن، فأظهر التوبة، وأكثر الاستغفار ، وكتبت على لسانه لوالي بغداد : أن الله قد أغنى ويسر، وانقاد لنا من أهل نجد والبوادي ما يحصل به المقصود إن شاء الله ، ولا حاجة لنا بعساكر الدولة ، وكلام من هذا الجنس ، وأرسل الخط فيما أرى وتبرأ مما جرى ، فاشتبه علي أمره، وتعارضا عندي موجب إمامته، ومبيح خلعه ، حتى نزل سعود بمن معه من أشرار نجد وفجارها ومنافقيها ، فعثا في الأرض بسفك الدماء ، وقطع الثمار، وإخافة الأرامل والمحصنات ، وانتهك حرمة اليتامى والأيامى .

هذا وأخوه منحصر في شعب الحائر ، وقد ظهر عجزه واشتهر ، وأهل البلد معهم من الخوف، ومحبة المسارعة إليه ماقد عرف ، فرأيت من المتعين على مثلي الأخذ على يد أهل البلد، والنزول على هذا الرجل ، والتوثق منه ودفع صولته حقنا لدماء المسلمين ، وصيانة لعوراتهم ونسائهم، وحماية لأموالهم وأعراضهم، وكان لم يعهد لي شيئا، ولكن الأمر إذا لم يدرك كان الرأي فيه أصوبه وأكمله وأعمه نفعا .

فلما واجهت سعودا وخاطبته فيما يصلح الحال بينه وبين أخيه، اشترط شروطا ثقالا على أخيه، ولم يتفق الحال،

---

[1] انظر : عقد الدرر لابن عيسى (41-42) ، الدرر السنية (7/242 ، 258 ، 262) ، الدولة السعودية الثانية لأبي علية (195) .

فصارت الهمة فيما يدفع الفتنة، ويجمع الكلمة، ويلم الشعث، ويستدرك البقية، وخشيت من عنوة على البلدة يبقى عارها بعد سفك دمائهم ونهب أموالها والسفاح بنسائها، ولما رأيت أسباب ذلك متوفرة ، وقد رفع الإيمان بالله ورسله والدار الآخرة .

وخرج عرفاؤه والمعروفون من رجالها، فبايعوا سعوداً بعد ما أعطاهم على دمائهم وأموالهم محسنهم ومسيئهم عهد الله وأمانه عهدا مغلظا، فعند ذلك كتبت إليك الخط الثاني بما رأيت من ترك التفرق والاختلاف ولزوم الجماعة.

وبعد ذلك أتانا النبأ الفادح الجليل...الذي طمس أعلام الإسلام ، ورفع الشرك بالله وعبادة الأصنام ....وذلك بوصول عساكر الأتراك واستيلائهم على الأحساء والقطيف، يقدمهم طاغيتهم داود بن جرجيس، داعيا إلى الشرك بالله، وعبادة إبليس، فانقادت لهم تلك البلاد ، وأنزلوا العساكر بالحصون والقلاع ، ودخلوها بغير قتال ولانزال ، فطاف بهم إخوانهم من المنافقين ، وظهر الشرك برب العالمين، وشاعت مسبة أهل التوحيد والدين، وفشا اللواط والمسكر والخبث المبين، ولم ينتطح في ذلك شاتان ، لما أوحاه وزينه الشيطان ، من أن القوم أنصار لعبدالله بن فيصل، فقبل هذه الحيلة من آثر الحياة الدنيا على الإيمان بالله ورسله وكف النفس عن هلاكها وشقاوتها، وبعضهم يظن أن هذه الحيلة[1] لها تأثير في الحكم؛ لأنهم لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق ، بل بلغني أن بعض من يدعي طلب العلم يحتج بقول شاذ مطرح، وهو أن لولي الأمر أن يستعين بالمشرك عند الحاجة، ولم يدر هذا القائل أن هذا القول يحتج قائله بمرسل ضعيف مدفوع بالأحاديث المرفوعة الصحيحة، وأن قائله اشترط أن لا يكون للمشركين رأي في أمر المسلمين ولا سلطان، لقوله تعالى : (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً) (النساء:141) ، فكيف بما هو أعظم من ذلك وأطم من الانسلاخ الكلي والخدمة الظاهرة لأهل الشرك؟

إذا عرفت هذا عرفت شيئا من جناية الفتن...إلى أن قال هذا ما عندي في هذه الحادثة قد شرحته وبسطته..."[2]

---

[1] يقصد الشيخ جواز الاستعانة بالمشركين ، وكان ابن عجلان قد كتب رسالة في جواز الاستعانة، والاستنصار بالمشركين ، فعظمت بها الفتنة لأنه من أهل العلم ، وسمى الشيخ هذه الرسالة (حبالة الشيطان) ، وذكر أنها دهليز يفضي إلى استباحة موالاة المشركين . انظر: مجموعة الرسائل والمسائل(3/59-68) .

[2] مجموعة الرسائل النجدية (3/275-276) .

وقال في رسالة أخرى : " موجب تحرير هذا : ما بلغني بعد قـدوم عبدالله وغزوه من أهل الفرع ، وما جرى لديكم من تفاصيل الخوض في أمرنا والمراء والغيبة، وإن كان قد بلغني أولا كثير من ذلك، لكن بلغني مع من ذكر تفاصيل ما ظننتها ، فأما ما صدر في حقي من الغيبة والقدح والاعتراض والمسبة ، ونسبتي إلى الهوى والعصبية، فتلك أعراض انتهكت وهتكت في ذات الله، أعدها لديه جل وعلا ليوم فقري وفاقتي ، وليس الكلام فيها، والقصد بيان ما أشكل على الخواص والمنتسبين من طريقتي في هذه الفتنه العمياء الصماء.

فأول ذلك مفارقة سعود لجماعة المسلمين، وخروجه على أخيه، وقد صدر منا الرد عليه وتسفيه رأيه....ولم نزل على ذلك إلى أن ...خرج الإمام عبدالله شاردا...وعند وداعه وصيته بالاعتصام بالله ...وعدم الركون إلى الدولة الخاسرة، ثم قدم علينا سعود بمن معه...ونحن في قلة وضعف، وليس في بلدنا من يبلغ الأربعين مقاتلا، فخرجت إليه وبذلت جهدي، ودافعت عن المسلمين ما استطعت خشية استباحة البلدة ...ومن فجار القراء من يحثه على ذلك ....فوقى الله شر تلك الفتنة ولطف بنا، ودخلها بعد صلح وعقد ..وصارت له ولاية بالغلبة ...وما قيل من تكفيره لم يثبت لدي، فسرت على آثار أهل العلم، واقتديت بهم في الطاعة بالمعروف ...والله يعلم أني بارا راشدا في ذلك ..

أما الإمام عبدالله ...وبعد مجيئه لما أخرج شيعة سعود..واضمحل أمر سعود ..وصار لعبدالله غلبة ثبتت بها ولايته ....

ثم ابتلينا بسعود، وقدم إلينا مرة ثانية، وجرى ما بلغكم من الهزيمة على عبدالله ..وخشيت على البادية، وعجلت إلى سعود كتابا في طلب الأمان...وباشرت بنفسي مدافعة الأعراب مع شرذمة قليلة من أهل البلد ابتغاء ثواب الله...فدخل البلد وتوجه عبدالله إلى الشمال ، وصارت الغلبة لسعود ، والحكم يدور مع علته .

وأما بعد وفاة سعود فقدم الغزاة ..مع غيبة عبدالله وتعذرت مبايعته...أفيحسن أن يترك المسلمون وضعفاؤهم نهبا وسبيا للأعراب والفجار ، وقد تحدثوا بنهب الرياض قبل البيعة ، وقد رامها من هو شر من عبدالرحمن[1] ؟ ... وبهذا ثبتت بيعته وانعقدت ...

---

[1] يقصد : عبدالرحمن الفيصل ، الأخ الأصغر لسعود وعبدالله .

ثم إن حمولة آل سعود صارت بينهم شحناء وعداوة ..وصرنا نتوقع كل يوم فتنة، وكل ساعة محنة، فلطف الله بنا....حتى يسر الله قبل قدوم عبدالله بنحو أربعة أيام ..أنه -عبدالرحمن-وافق على تقديم عبدالله وعزل نفسه.."[1].

وبهذا تتضح حكمة الشيخ ، ومحاولته دفع الفتن ، وقد وقف منها رحمه الله موقف العالم الرباني الذي بذل كل ما يستطيع من جهود ، سواء بمحاولة الصلح ، أو بالدفاع بالسيف عن الحرمات ، أو بمحاولة الرد على المغرضين ، وتبيين الحق والتنازل عن حظوظ النفس ، يقول في إحدى رسائله : " وأما ما ذكرتم من التنصل والبراءة مما نسب في حقي إليكم ، فالأمر سهل ، والجرح جبار ، ولا حرج ولا عار ، وأوصيكم بالصدق مع الله "[2].

مؤلفاته :

كان الشيخ –رحمه الله- منشغلا بإخماد الفتن السياسية في عصره، فلم يتفرغ للتأليف مع غزارة علمه، ومع ذلك ألف بعض المؤلفات، وكتب مجموعة من الرسائل، أكثرها في الرد على المبطلين ، ومنها :

- " منهاج التأسيس والتقديس في الرد على داود بن جرجيس " ، وهو الكتاب الذي بين أيدينا ، ويعد من أعظم ما كتب .
- " مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام، ونسبه إلى تكفير أهل الإيمان والإسلام " ، وهو رد على كتاب " جلاء الغمة عن تكفير هذه الأمة" لعثمان بن منصور .
- " البراهين الإسلامية ، في الرد على الشبه الفارسية " .
- " تحفة الطالب والجليس في الرد على ابن جرجيس " . وهو رد مختصر على ابن جرجيس ، أعقبه بالرد المطول " منهاج التأسيس..." .
- " الإتحاف في الرد على الصحاف ".
- " مجموع رسائل و فتاوى ، تبلغ ست وسبعين رسالة " ، جمعها الشيخ ابن سحمان ، وأسماها " عيون الرسائل و المسائل " .
- " شرح نونية ابن القيم "، شرح فيه المقدمة ، ثم اخترمته المنية قبل إتمامه , مخطوط .
- " حاشية على التوحيد " . مخطوط [2].
- " تفسير لبعض سور القرآن " . مخطوط .

---

[1] مجموع الرسائل والمسائل (3/69-73).
[2] المرجع السابق (3/73).

وفاته :

توفي رحمه الله في مدينة الرياض ، في الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة عام 1293 هـ ، وله من العمر 68 عاما[1].

وقد كان لوفاته أثر كبير في قلوب الأمة ، قال الشيخ عبدالله البسام : " لأنه نجم هوى من نجم سمائه ، وقمر كسف في تمام إشعاعه ، وعالم كبير ، ومصلح خطير ، رحل من البلاد وهي أحوج ما تكون إلى علمه الغزير ، وعقله الكبير ، ولم يخلف مثله ، ولم يترك لمنصبه الرفيع نظيره ، فخلي مكانه، وعطلت أعماله ، وانقضت حلقته ، وطويت كتبه ، وتفرق طلابه ، فأقفرت مجالسه ، وأوحشت مرابعه ، وانفض سامره ، وهكذا تنقص الأرض من أطرافها ويموت العلم برحيل أهله"[2].

* * * * *

---

[1] انظر في ترجمته :
-مشاهير علماء نجد و غيرهم لعبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ (70-94) .
-عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر (2/120-121) .
-علماء نجد خلال ستة قرون لابن بسام (1/63-71) .
-روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد و حوادث السنين لمحمد القاضي (1/338-341) .
-تذكرة أولى النهى و العرفان بأيام الله الواحد الديان لإبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن (1/221- و ما بعدها) .
-عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر و أول الرابع عشر لإبراهيم ابن صالح بن عيسى النجدي , ذيل به على كتاب عنوان المجد لابن بشر (76-80) .
-حاشية السحب الوابله على ضرائح الحنابلة (2/582-583) .
-معجم مصنفات الحنابلة , د.عبدا لرحمن محمد الطريقي (6/157-162) .
-تتمة النعت الأكمل (375-376) .
-الأعلام للزركلي (4/182) ، وقد سقطت ترجمة الشيخ من الطبعة السادسة .
-عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ ، حياته ، وآثاره ، وطريقته في تقرير العقيدة ، مع دراسة وتحقيق كتاب " البراهين الإسلامية في رد الشبه الفارسية " للشيخ إبراهيم الفارس ، بحث مطبوع على الآلة الكاتبة .

[2] علماء نجد خلال ستة قرون (1/71).

المبحث الثاني
منهجه في الكتاب بإيجاز

انتهج الشيخ في رده على العراقي ، وانتصاره لعقيدة السلف الصالح أسلوب الرد، وإقامة الدليل ، وتوضيح الحجة ، وسطوع البرهان ، بروح العالم الراسخ، والعاقل الثابت، وهذا منهج يرتضيه علماء السلف الصالح من أهل السنة والجماعة.. وسأذكر بعض معالم منهجه – رحمه الله – بإيجاز:

*** الاستقامة وصحة الاعتقاد**

إن أوضح ما يمتاز به هذا الكتاب الاستقامة وصحة الاعتقاد ، ولا غرابة في ذلك لأن الشيخ عبداللطيف نهج منهج السلف الذي تميزوا به عن أصحاب الأهواء والفرق ، وهو الرجوع إلى الكتاب والسنة ، والاعتصام بهما ، والانتهاء عما نهى الله عنه ورسوله من اتباع المتشابه ، وضرب كتاب الله بعضه ببعض ، وبذلك سلموا من الانحراف ، والتناقض .

ومن دلائل ذلك في هذا الكتاب أمور:

1- الاستدلال بالمصادر الأصيلة ، والتزام طريقة السلف في التلقي ، وذلك من خلال :

أ- الرجوع إلى الكتاب والسنة والاعتماد عليهما في التلقي والاستدلال ، والتأكيد على ذلك حيث يقول : "وإن رجعنا إلى الأصل الأصيل ونظرنا إلى الكتاب والسنة عرفنا ما يليق بمنصبه."[1]

ويقول في موضع آخر:" الواجب في مسألة النزاع ردها إلى الكتاب والسنة ولا حجة في قول آحاد العلماء"[2].

ب- الاهتمام بتصحيح الأحاديث والحكم عليها ، و يعيب على العراقي جهله بصناعة الحديث وتحريفه عند النقل لبعض الأحاديث ، حيث يقول: " والعراقي ليس من أهل الصنعة، بل هو ضال غبي لا عناية له بهذا الشأن"[3].

ويقول في موضع آخر : "إن الحديث فيه مقال ، وقد تكلم الحفاظ في سنده والشيخ عز الدين علق الجواز على صحة الحديث.. وبين الكلام في التصحيح والحكم به مفاوز تنقطع أعناق مطايا الحفاظ دونها ... فكيف بالذين هم صفر من فنون العلم والدين؟ "[4].

---

[1] ص135.
[2] ص306.
[3] ص257.
[4] ص123.

ج- رجوعه إلى الإجماع المعتد به ، وليس الإجماع الذي يعتد به العراقي وأهل البدع ، بل إجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، ومن تبعهم من السلف الصالح.

فعندما رد على العراقي زعمه إلزامه بترك الإنكار على عباد القبور ؛ لأن ابن تيمية وابن القيم لا يلزمان بقولهما ، قال : " ثم هذا مخالف للإجماع ولو في فروع الدين ، فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على الإنكار على المخطئ المخالف للنص في مسائل كثيرة...إلى أن قال : فكيف يقال : إن من دعا الأولياء والصالحين واستغاث بهم وذبح لقبورهم وخافهم ورجاهم مع الله لا ينكر عليه ، لأن الإنكار محل الاجتهاد ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم"[1].

ويقول في موضع آخر: " فإن كان بعض من لا بصيرة له قد ذكره، فالحجة فيما ثبت عن الصحابة وعن سلف الأمة وأئمتها ، ولا يجوز تفسير القرآن بأقوال شاذة، أو موضوعة لا تثبت عند أهل العلم والحديث وأئمة التصحيح والترجيح"[2].

د- رجوعه إلى دلالات اللغة العربية[3]، وهذا منهج متبع عند أهل السنة، فيقول مثلا: " وأصل النجد : ما ارتفع من الأرض وهو خلاف الغور...ثم قال : وقول ابن عمر، وأهل اللغة، وشهادة الحال، كل هذا يعين المراد"[4].

2- السلامة من الاضطراب والتناقض : فالكتاب من أوله إلى آخره على معتقد ثابت راسخ ، لا يحول عنه ولا يزول ، ولا يضطرب بكثرة نقول الخصم، بل يرجع الفروع إلى أصولها ، ويحرر مسألة النزاع بثبات وعلم ويقين .

فيقول مثلا: " من أنكر التكفير جملة، فهو محجوج بالكتاب والسنة، ومن فرق بين ما فرق الله ورسوله بينه من الذنوب، ودان بحكم الكتاب والسنة وإجماع الأمة في الفرق بين الذنوب، فقد أنصف، ووافق أهل السنة والجماعة.."[5].

وعندما استدل العراقي بالأحاديث الدالة على فضل الحرمين على فضل أهلهما، قال الشيخ: " وفضل الحرمين لا يشك فيه من له أدنى إلمام بما جاءت به الرسل الكرام، ولكن ليست فيه حجة على تحسين حال أهلها مطلقا"[6].

---

[1] ص83 .
[2] ص392.
[3] ص260.
[4] ص94.
[5] ص49.
[6] ص91.

3- الرجوع إلى جميع النصوص الواردة في مسألة معينة، وعدم الاقتصار على بعضها دون بعض، مثل مسألة العذر بالجهل، وتكفير المعين، وغيرها من المسائل الشائكة ثبت الشيخ في بيان الحق فيها؛ لالتزامه بهذا المنهج الواضح .

*** التأدب التام مع نصوص الكتاب والسنة**

وذلك بتعظيمها واحترامها ، فلا يقدم عليها غيرها أبدا ، والتأكيد على ذلك ، والتحذير من ترك الاعتماد عليها ، ومن دلائل ذلك في هذا الكتاب ما يأتي:-

1- تقديمهما في الاستدلال على غيرهما ، وعندما يقدم الاستدلال بقول أحد السلف يستدرك ويقدم الاستدلال بالقرآن ، فمثلا عندما استدل بكلام الإمام مالك: " ما منا إلا راد أو مرود عليه، إلا صاحب هذا القبر " ، قال : " وأحسن منه قول الله تعالى: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) (النساء: من الآية59) ، وقد قال النبي : " لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته ، يأتيه الأمر من أمري فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، ألا وأن أتيت الكتاب ومثله معه"[1].

وعندما استدل بكلام الفضيل بن عياض : " ولا تستوحش من الطريق لقلة السالكين .. قال : " وأحسن منه وأدل ، قوله تعالى: (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) (الأنعام:116) "[2].

2- مراعاة ألفاظهما عند بيان العقيدة ، فالشيخ يلتزم التعبير بالألفاظ الشرعية وما جرى مجرى النصوص ، فهي الأصوب ؛ لتكلم الله ورسوله بها، وهذا يدلنا على كثرة مدارسته للقرآن والسنة وعنايته بهما ، وهي سمة علماء الشريعة بين العلماء، وعلامة أهل السنة والجماعة بين أهل الفرق والأهواء .

ومن ذلك تفريقه بين الكراهة في عرف الشارع ، والكراهة الاصطلاحية في الفقه حيث يقول : "وكذب على رسول الله في زعمه أنه أطلق الكفر على المكروه بالمعنى الاصطلاحي: الذي يثاب تاركه ولا يعاقب فاعله ، وإنما تطلق الكراهة في عرف القرآن والسنة على الكفر والشرك والكبائر، وسائر المحرمات، كما في آية الإسراء ، وكما في الحديث " ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال، وإضاعة المال"[3].

---

[1] ص79 .
[2] ص85 .
[3] ص319 .

3- عدم استخدام الألفاظ والمصطلحات الموهمة التي تخالف الكتاب والسنة.

4- ويتبع ذلك التأدب مع العلماء ، وحمل كلامهم على أحسن المحامل ، حيث يقول : " من أطلق الكراهة من الأئمة، فالأولى حمل كلامه على كراهة التحريم إحسانا للظن بالعلماء"[1].

*** الشمولية في الرد**

فهذا الكتاب ليس ردا على ابن جرجيس وحده ، وإنما هو رد على القبورية ، وقد كان مصدرا ومرجعا لكثير ممن ردوا على المبتدعة بعده ، مثل السهسواني، والألوسي، وابن سحمان، وغيرهم .

وقد أطال -يرحمه الله- في تفنيد أهم مزاعم القبورية والمبتدعة، لا سيما عندما تكلم عن قضايا الشرك في الألوهية، والتوسل، وبيان حال الخوارج، ومسألة العذر بالجهل، وغيرها من المسائل.

*** العـــدل**

تميز منهج الشيخ في هذا الكتاب بما تميز به أهل السنة والجماعة من العدل والإنصاف، وله عدة مظاهر:

1- العدل مع المخالف :

فالشيخ – رحمه الله – عندما يجد زلة أو رأي للعراقي انفرد به عن غيره من أهل البدع يبين ذلك ، حيث يقول : "ومن عادة هذا العراقي أنه إذا رأى عبارة في مدح أهل السنة والجماعة وعدم تكفيرهم ادعاها لنفسه وشيعته من عباد القبور والمتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور"[2].

وقال في موضع أخر : " وهذا التخليط ، وهذا الكفر الشنيع ما سمعته قط قبل الوقوف على كلام العراقي.."[3].

أما إذا كان الرأي سمة غالبة على أهل الأهواء ، عمم وقال : "وأهل الزيغ يتبعون المتشابه"[4].

---

[1] ص306.

[2] ص17.

[3] ص275.

[4] ص268.

وعندما يجد عبارة صحيحة سليمة للعراقي يذكرها ويؤكد عليها ، فإذا نقل بلا تحريف – وهذا قليل – ذكر الشيخ ذلك ، ومن ذلك قوله : " أما ما نقله عن الفرقان فحق ، لكن ليس من مسألة النزاع في شيء"[1].

2- العدل مع غير المخالف :

فهو عندما ينسب القول للشخص ينسب إليه ما عرف عنه واشتهر في أكثر كتبه، ولا يتسقط زلات العلماء ، فعندما تكلم عن الصرصري وقصيدته المشهورة حمل معناها على أسلم محمل ، وقال : " إن إحسان الظن بمثله أولى"[2].

ولما نسب العراقي لابن القيم الحكاية التي في كتاب "الكبائر" و"السنة والبدعة" بين الشيخ – رحمه الله – بكل تجرد الشاهد من إيراد القصة[3] ، ثم قال: "وابن القيم نص في غير موضع أن دعاء الموتى هو أصل شرك العالم ، وقرر ذلك في كتاب "الإغاثة" و"شرح المنازل" و"الجواب الشافي" و"كتاب الهدي" وغير ذلك من مصنفاته"[4].

3- ومن مظاهر عدله – رحمه الله – اعترافه بخطأ من يوافقه حيث يقول : "وكون بعض أتباع الشيخ يكفر بذلك لا وزر على الشيخ به لبراءته منه . ولا يكفر به إلا عوام الخلق"[5].

*** الثقة في المنهج والثبات عليه**

وذلك لثقته أنه الحق ، وعدم تقلبه كما هي عادة أهل الأهواء، ولتلك الثقة والثبات على المنهج دلائل منها:-

1- الاقتصار في مصدر التلقي على الوحي ، والثبات على ذلك مهما كان مع المخالف من شبهات ، ولا يغتر بكثرة النقولات ، وله مظاهر في هذا الكتاب منها:-

أ- كثرة ترديده أن مستند المسلمين في العقائد ومرجعهم في أصول الدين وفروعه إلى الكتاب والسنة حيث يقول : " اعلم أن مستند المسلمين في العقائد ومرجعهم في أصول الدين وفروعه إلى كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع من سلف من

---

[1] ص271.
[2] ص212.
[3] انظر القصة ، والرد عليها (ص 391-435) من هذا البحث .
[4] ص229-230.
[5] ص309 .

علماء الأمة، وأن التقليد في باب أصول الدين ..لا يفيد ولا يجدي عندهم ، وإن كان المقلد فاضلا عالما في نفسه "[1].

ويقول أيضا : " وقد تقدم أن القصد هنا بيان جهله بكلام الشيخ ، والكشف عن تحريف هذا العراقي لما نقله عن الشيخين ، وإلا فالمرجع إلى أدلة الكتاب والسنة"[2].

ب- تأكيده على عدم الاستدلال بكلام الرجال على الحق حيث يقول : " وإنما يساق كلامهما دليلا لو قالا إن الرسول قد فعل ذلك، وإنه يستغاث به بعد موته، على أنه لا يسلم لهما وإن قالاه ، وقد حماهما الله من ذلك "[3] .

ويقول في موضع آخر: "وكلام الشيخ وأمثاله من أهل العلم ليس حجة مستقلة بل الحجة فيما يساق من الأدلة"[4].

ج- توضيحه أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب قائمة على الاستدلال بالكتاب والسنة ، حيث يقول : " وقد تقدم أن الشيخ محمدا وأتباعه لا يقولون أنه كفر مخرج عن الملة ، بل هم أهل علم وسنة يطلقون ما أطلق الشارع ، ويتبعون ولا

د- عيبه على العراقي الإلزام بغير الحق لأن فلانا من الناس ذكره ، سواء ابن تيمية أو غيره ، فعندما قال العراقي : " ويستدلون بأقوال ابن تيمية وابن القيم ، وهما لا يلزمان بقولهما، ولا بقول أحد من أهل المذاهب الأربعة...قال الشيخ : " قد تقدم أن العمدة عندهم في مسائل أصول الدين وفروعه على كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع أهل العلم من هذه الأمة، ولا تذكر أقوال أهل العلم إلا تبعا وبيانا، لا أنها المقصودة بالذات والأصالة...."[6] ، ويقول : "ولو أفتى ألوف ما يخالف النصوص، فهم في جانب والنص في جانب "[7].

2- ومن مظاهر ثقة الشيخ – رحمه الله – في منهجه : أنه غالبا ما يضع أصولا ومنطلقات ينطلق منها ، وتكون هذه الأصول كالمقدمات الممهدة تفتح للقارئ أفاقا قد يكون غافلا عنها .

ومن أمثلة ذلك :

أ- قوله : " ثم المسائل التي لا يلزم بها المجتهد غيره ما كان للاجتهاد فيها مساغ ، ولم تخالف كتابا ولا سنة صريحة ولا

---

[1] ص18 .
[2] ص 239-240 .
[3] ص230 .
[4] ص 289 .
[5] ص30 .
[6] ص79.
[7] ص85.

إجماعا ، وما خالف ذلك فهو مردود على قائله ، ويلزمه أهل العلم بصريح الكتاب والسنة وإجماع الأمة "[1].

ويقول في موضع آخر: " ولو أفتى ألوف ما يخالف النصوص فهم في جانب، والنص في جانب ، ولو كان النص والحجة مع واحد من هؤلاء الألوف"[2].

ب- تقديمه لبداية كل فصل رد فيه على فصل من فصول ابن جرجيس بمقدمة مجملة تأتي على كل ما ذكر[3] .

وعندما ينتهي من الرد يذيل بعبارة تأصيلية مختصرة يبين فيها المقصود حتى تبقى في ذهن القارئ ، فيقول مثلا : " نفي المؤاخذة بالخطأ والنسيان لا يلزم منه الإثابة بالاتفاق "[4].

ولما تكلم عن الفرق بين الاستغاثة والتوسل -وأطال في ذكر رأي شيخ الإسلام في التفريق بين المسألتين- قال في الختام : " وأما كون الشيخ يعذر المجتهد في مسألة الله بجاه رسوله ، فلا يلزم منه أن يعذر في الاستغاثة بالمخلوقين ودعائهم مع الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ لوضوح الأدلة المانعة هنا، وخفائها في الأولى"[5].

ويقول: " لا يحمل كلام أهل العلم على ما يخالف الكتاب والسنة "[6].

3- طلبه من القارئ التأمل والتدبر فيما يقول هو ، أو فيما ينقله عن العراقي ، وذلك لثقته أن العقول السليمة تنكر فعل عباد القبور، فيقول مثلا : " فقف وتأمل إن كان لك بصيرة تدرك بها أسرار الشريعة"[7]، ويقول : " فقف وتأمل هذا التفصيل البديع "[8].

*** الرسوخ في العلم ، ودقة الفقه :**

ويتضح ذلك من خلال :

1 - فهمه لمحل النزاع ، ودقة تحريره له ، يقول مثلا- في الرد على العراقي لما تكلم عن وجوب العذر بالشبهة- : " وليس في كلام الشيخ العذر بكل شبهة، ولا العذر بجنس

---

[1] ص79.

[2] ص85.

[3] ?انظر مثلا : مقدمة أول الكتاب ، ثم مقدمة رده على الأدلة ص 323 – 336 .

[4] ص316.

[5] ص 126 .

[6] ص272.

[7] ص242.

[8] ص227. وانظر: ص247.

الشبهة ، فإن هذا لا يفيده كلام الشيخ ، ولا يفهمه منه إلا من لم يمارس شيئا من العلوم ، بل عبارته صريحة في إبطال هذا المفهوم ، فإنها تفيد قلة هذا ، كما في المسائل التي لا يعرفها إلا الآحاد، بخلاف محل النزاع ، فإنه أصل الإسلام وقاعدته"[1].

2 - دقة فهمه لمراوغة الخصم وتدليسه :

فالعراقي تارة يسمي الأمور بغير اسمها لتنطلي على العوام ، فيقول الشيخ: "وأما صرف النذر لأماكن الأنبياء والصالحين فمراده : قبورهم، ولكنه دلس بذكر الأماكن ؛ لأن كلام العلماء صريح في المنع من صرف النذر لرفع القبور وتشييدها والبناء عليها.."[2]

وتارة يقحم مسائل ليست في محل النزاع ، فيعرض عنها الشيخ حتى لا يبتعد عن الغاية من الرد ، يقول الشيخ : " وقوله في الحديث " أتوجه إليك بنبيك" مسألة ليست مما نحن فيه ، وعلى كل فليست من محل النزاع"[3].

ويقول في موضع آخر: " وهذا ليس مما نحن فيه ، ولم يفهم أن هذا يرد عليه ما نقل"[4].

3 - تبيين اللبس وأصله عند الخصم ، حيث يقول : "والعراقي لم يفهم هذا لقلة فهمه وعدم علمه ، بل هو يعتقد أن كلام أهل العلم وتقييدهم بقيام الحجة وبلوغ الدعوة ، ينفي اسم الكفر والشرك والفجور ونحو ذلك من الأفعال والأقوال التي سماها الشارع بتلك الأسماء ، بل ويعتقد أن من لم تقم عليه الحجة يثاب على خطأه مطلقا"[5].

4 - ومن فقهه في الرد وفطنته : أنه لا يخرج عن الغاية التي ألف من أجلها الكتاب ، وهي الرد على ابن جرجيس في قضايا الشرك الأكبر، فعندما يخرج إلى مسائل الشرك الأصغر أو الخفي أو غير ذلك من الذنوب ، يقول : " ليس النزاع معكم عباد القبور في خصوص الحلف ، وخوف المخلوق ، ورجائه فيما يقدر عليه ، بل النزاع في الشرك الذي لا يغفر"[6].

5 - ومن فقهه – رحمه الله – أنه غالبا ما يذكر الأسباب التي ضل بها أهل البدع ، فيقول مثلا : "وهذا الصنف من الناس إنما

---

[1] ص102.
[2] ص105-106.
[3] ص123 .
[4] ص141 .
[5] ص316 .
[6] ص298 .

أتوا من بعدهم عما جاءت به الرسل ، وكونهم أجانب عنه ليسوا من أهل الوراثة النبوية"[1].
6 - ومن مظاهر فقهه – رحمه الله – دقة فهمه ومعرفة وجه الاستدلال من الدليل الذي يسوقه العراقي ويجهل وجه الاستدلال فيه ، فيقول الشيخ في أحد المواضع : " فإن الإغاثة المثبتة ليس الدليل على إثباتها النسبة ، وإنما هو ما جاءت به الشريعة الكاملة من جواز معاطاة الأسباب العادية..والدليل من الآية ترك إنكاره وسياقه على وجه التقرير ..."[2]
7 - معرفة ما عليه الخصم بالتفصيل ، حيث يقول : " ليت هؤلاء القبوريين اقتصروا على مافيه الخلاف ، بل قد تقدم أنهم أتوا من الشركيات ما لم تأت به جاهلية العرب"[3] .
8 - فهمه الدقيق لمذهب الخصم فلا يحمله ما لا يحتمل كلامه ، وفي نفس الوقت لا يذهل من معرفة حقيقة ما يؤول إليه الكلام بعدل وإنصاف ، فمثلا عندما قال العراقي : "وهذه المسائل المطلقة كم استحلت بسببها دماء وأموال ، وكم زلت فيها علماء وهلكت رجال ، وكم انتهكت فيها حرمة إسلام وأعراض...؟ "
قال الشيخ في معرض رده : " فقول هذا العراقي جهل بأصل هذه الدعوة النجدية وبحال شيخهم – رحمه الله – والله تعالى قد حكم في دماء المشركين وأموالهم..."[4].
وعندما قال العراقي: " وإنما قصدت بهذا الإصلاح بين المسلمين ..... "
قال الشيخ : "ولكن خفي على العراقي أن دعاء الأنبياء والصالحين والاستغاثة بهم وصرف حقوق الله إليهم من الشرك، ينتفي معه أصل الإيمان ومسماه.... فلذلك قصد بجهله الإصلاح بين الطائفتين واتفاق الكلمتين"[5].
9- بيان الفروق العقدية بين المسائل والألفاظ المختلفة :
ويتجلى رسوخ علمه – رحمه الله – ودقة فهمه ببيان الفروق الدقيقة بين المسائل والألفاظ المختلفة ولذلك أمثلة :
يقول - يرحمه الله - : ".. لم يفرق بين ذلك[6] وبين الطلب من المخلوق ما يقدر عليه من الدعاء ونحوه ، فجعل المسألتين مسألة واحدة ، والباب بابا واحدا، ومفاد هذا يعلم بالعقل

---

[1] ص372.
[2] ص373.
[3] ص306.
[4] ص26.
[5] ص33.
[6] أي : الاستغاثة بالأنبياء والصالحين .

والفطر مثل البحث عن الدليل السمعي والنظري ، فإن الله جبل الخلق على التمييز والفرق بين السبب العادي وما يستطيعه الحي الحاضر وبين غيره من الأمور الكلية الباطنة"[1].

ويقول : " وفرق بين التوسل والاستغاثة ، والعراقي يسمي كل ما يفعله عباد القبور من العبادات توسلا"[2].

وكذلك بيان الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية[3].

ويقول أيضا : " العراقي لم يفرق بين النذر والمنذور، فكون النذر شركا لا يمنع الانتفاع بالمنذور في الجهة الشرعية، كما تقدم من فعله في اللات"[4].

وكذلك تفريقه بين البدعة والشرك[5].

ويعيب على العراقي جهله وعدم تفريقه بين المختلفات ، حيث يقول: " إن الكلام في التشريع وتقرير المنع والتحريم ، ليس في الأمور القدرية والحوادث الكونية . ولم يفقه مراد الشيخ ومقصوده "[6].

ويقول في موضع آخر: " والعراقي أجنبي عن هذه المباحث والعلوم، ولا يدري الفرق بين مسائل الاجتهاد وغيرها"[7].

*** قوة حجته في الرد ، والجدل**

تميز هذا الكتاب بقوة الحجة التي تدحض قول الخصم حتى لا يبقى فيه أي وجه للاستدلال ، كما أبدع الشيخ في استخدام بعض أساليب الجدل التي يلزم بها الخصم و يدحض حجته ، كل ذلك انتصارا للحق و دفعا للباطل ، ولذلك أمثلة منها:-

1 - لما عاب العراقي على الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن بعض أتباعه يكفرون بالحلف بغير الله ، قال الشيخ عبداللطيف : " يوجد في أهل العراق من يكفر بتجريد التوحيد وتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، فما من مطعن يدعيه إلا وفيه وفي أشياعه من القبائح ما لا يصفه بليغ ولا يدانيه.. فما له وللخوض فيما لا يعرفه ولا يدريه "[8].

---

[1] ص378.
[2] ص123.
[3] ص134.
[4] ص239.
[5] ص268.
[6] ص141.
[7] ص80.
[8] ص309.

2 - ومن قوة حجته – رحمه الله – أنه يلزم ابن جرجيس بمذهبه وبما يدعيه، ويبين تناقضه ، فلما ذكر العراقي أن إسناد الفعل إلى المخلوقات كالسكين

وغيرها استقلالا يكفر به قائله إجماعا . قال الشيخ : " أنت لا ترضى تكفير أهل القبور لاحتمال العذر والشبهة ... فكيف جزمت بكفر من أسند القطع للسكين.. وما الفرق بين من عذرته وجزمت بإثابته ، وبين من كفرته وجزمت بعقابه ؟ ليست إحدى المسألتين بأظهر من الأخرى "[1].

وقال في موضع آخر يبين فيه تناقض العراقي في استدلاله ، ويدينه من كلامه : " إن اللفظ ليس بعام كما زعمه هذا العراقي ، ثم كيف يقول هذا وهو ينكر تناول العام لأفراده ، ويقتصر على مورد السبب فيما يحتج عليه به من الآيات القرآنية .. إلى قال: ".... فظهر أنه متلاعب"[2] .

3- قوة إلزاماته للخصم ، فيقول : " فإن التزم العراقي هذا كله فهو أكفر وأضل من اليهود والنصارى ، وإن زعم أن ثم فارقا فليوجدنا هذا الفرق ...وإن لم يفعل ولن يفعل بطل تقريره و تأصيله"[3].

4- الاستدلال بلوازم القول على إبطاله ؛ لأن لازم الباطل باطل وإن لم يلتزم به صاحبه ، يقول ابن تيمية : " فإن القول له لوازم فإذا كان باطلا فقد يستلزم أمورا باطلة ظاهرة البطلان ، وصاحبه يريد إثبات تلك اللوازم فيظهر مخالفته للحس والعقل "[4].

قال الشيخ : " فإن كان في شرف البقاع حجة ودليل على صلاح أهلها، فليكن هنا، وبنوإسرائيل في الأرض المقدسة ، وهم سكان إيليا والمسجد الأقصى، وقد جرى منهم من الكفر والتكذيب وقتل الأنبياء مالا يخفى على من آنس شيئا من أنوار الرسالة...إلى أن قال : " ولو احتج الأسود العنسي وأمثاله على حسن حالهم بما ورد في فضل اليمن لكان جوابه جوابا لنا"[5].

5- الاستدلال على بطلان القول ببيان المفاسد المترتبة عليه حيث يقول: "وإطلاق القول بأن الخلاف شبهة يعود على الإسلام بالنقض والهدم ، والتسجيل على عامة العلماء بالعيب

---

[1] ص338 .
[2] ص123-124.
[3] ص215.
[4] مجموع الفتاوى (16/274) .
[5] ص91 .

والذم ، فقل حكم من الأحكام الاجتهادية إلا وفيه خلاف... إلى أن قال: " فلو كان وجود الخلاف من الشبه لحكمنا بضلالهم في ذلك كله"[1].

6- التنزل مع الخصم لبيان باطله ، حيث يقول : " لو سلم تسليما صناعيا فليس النزاع في سؤال الله بحرمة نبيه ، هذه مسألة أخرى... "[2].

ويقول أيضا : "وهذا من باب التنزل مع هذا العراقي ، و إلا فعدم مشروعية هذا في سائر الكتب السماوية معلوم من الدين بالضرورة "[3].

هذا ما ذكرته على سبيل الإيجاز ، وأنا على يقين أن من قرأ الكتاب سيجد فيه منهجا متميزا ، ومعالم كثيرة تدل على غزارة علم الشيخ – رحمه الله – والتزامه بمنهج السلف الصالح ، مما يجعل هذا الكتاب يعد بحق من أهم ما كتب في الرد على المبتدعة ، وبيان عقيدة أهل السنة والجماعة .

* * * * *

---

[1] ص85.
[2] ص202.
[3] ص124.

الفصل الثاني
ترجمة داود بن جرجيس ، ومنهجه في كتابه " صلح الإخوان "

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : ترجمة داود بن جرجيس .

المبحث الثاني : منهجه في كتاب "صلح الإخوان"

عرض ونقد في ضوء منهج السلف .

المبحث الأول
ترجمة داود بن جرجيس

تضن المصادر بترجمة وافية لابن جرجيس، وأغلب من ترجم له ذكره باختصار شديد، ويظهر أن هذا الرجل كان مغمورا، ولم يشتهر إلا بتعرضه للأعلام، قال العزاوي[1] : " اشتهر برده

---

[1] هو: عباس بن محمد العزاوي ، مؤرخ ، أديب ، ولد في العراق ، وتوفي بها سنة (1391هـ)، له عدة مؤلفات ، منها كتاب تاريخ العراق بين احتلالين . الأعلام (3/266) .

على أبي الثناء الألوسي[1]، ودرجت سوقه مدة ، ولكن مؤلفاته لم تقوى على الانتصار "[2].

وقال بعض مترجموه : " كان على جانب كبير من الصلاح والتقى، مع تصوف في المشرب وتفقه في الدين ؛ إلا أنه- رحمه الله- كان من المغالين في طريق القوم، حتى دعاه ذلك إلي تأليف الردود على مخالفيهم "[3].

أما شهرته في نجد ، فلأنه يعد من اشد خصوم الدعوة ، وقد تميز عن غيره من الخصوم ؛ بأنه يكثر من نقل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ، ويظهر تعظيمهما ، وبينه وبينهما بون كبير .

وقد ألف المؤلفات في استحباب التوسل بالموتى والاستغاثة بهم ، وألف في الرد على أهل التوحيد ونصرة الباطل وأهل التنديد ، قال الألوسي : " جرت له مناظرة مع السلفيين ، حيث دعا إلى الاستعانة والاستغاثة بقبر أبيه ، والاستمداد من الأموات ، وألف في ذلك رسائل مشتملة على الهذيان والكذب والبهتان وكثرت عليه الردود"[4].

ولقلة المصادر في ترجمته اضطررت أن أنقل كلام خصومه –أحيانا- ، وهم أهل عدل وأمانة اشتهروا بذلك وعرف عنهم ، ولم يذكروا فيه إلا ما يخلص إليه المطلع على مؤلفاته .

المطلب الأول : اسمه و نسبه

---

[1] هو : محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي شهاب الدين ، أبو الثناء، مفسر، محدث، أديب . ولد وتوفي في بغداد ، وتقلد الافتاء ببلده ، وله عدة مؤلفات اشهرها : روح المعاني في التفسير . توفي سنة 1270 هـ . انظر : المسك الإذفر (5-25) ، تاريخ الأسر العلمية في بغداد لمحمد سعيد الراوي (181) ، هدية العارفين (2/418) .

[2] تاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزاوي (8/66) .

[3] البغداديون أخبارهم ومجالسهم لإبراهيم الدروبي (ص152) .

[4] المسك الإذفر للألوسي (333) .

هو داود بن سليمان بن جرجيس العاني[1] النقشبندي[2] البغدادي ، من خلفاء الخالدية[3]، يعرف بالشيخ داود أفندي النقشبندي.

ولد سنة 1231 هـ في الكرخ ، وكان يدرس في مدرسة " محمد طبقجلي"[4] في بغداد . وقال بعض مترجموه أن ولادته كانت سنة (1226هـ)[5] .

المطلب الثاني : مذهبه

اختلفت المصادر في ذكر مذهبه ، فذكر البيطار[6]، وتبعه الزركلي[7]: أنه شافعي المذهب ، وذكر ذلك الألوسي في أثناء رده على النبهاني حيث قال : " ابن جرجيس هذا كان من غلاة الشافعية ، فاعترض على عبارة في كتاب "الطراز المذهب" لوالد مصنف جلاء العينين[8]، وأفرد للاعتراض رسالة هذى فيها بما تمجه الأسماع مما يتعلق بالاستغاثة والاستعانة ودعاء غير الله، فرآها صاحب جلاء العينين بعد وفاة والده ورد عليها بكتاب أسماه "شقائق النعمان على شقاشق ابن سليمان "[9].

---

[1] نسبة إلى "عانة" ، وهي بليدة تقارب الفرات . انظر: الأنساب للسمعاني (4/119).

[2] نسبة إلى الطريقة النقشبندية الصوفية ، وتنسب لبهاء الدين محمد بن أحمد الفاروقي النقشبندي (ت791هـ) . انظر: معجم المصطلحات التاريخية (ص424) .

[3] نسبة إلى خالد بن أحمد بن حسين من أهالي شهرزور ، المعروف بذي الجناحين النقشبندي (ت1242هـ) ، كان يعقد دروسا في مسجد الشيخ أبي بكر الأحسائي ، ثم سمي المسجد بالتكية الخالدية ، والتكية : لفظ تركي يطلق على رباط الصوفية . انظر: البغداديون أخبارهم ومجالسهم (148-150)، معجم المصطلحات التاريخية (110)، الأعلام (2/294).

[4] وهذه المدرسة في محلة العاقولية في بغداد ، كانت في الأصل دارا وديوانا لمحمد الطبقجلي، فجعلها مدرسة ، وعين فيها داود النقشبندي مدرسا . انظر: البغداديون أخبارهم ومجالسهم (41) .

والطبقجلي : هو محمد بن أحمد بن إسماعيل الطبقجلي ، من أهل بغداد ، اشتغل بالتدريس ، له كتاب "المواهب الإلهية على المنح المكية " تعليقات على " شرح همزية البوصيري " ، لابن حجر المكي ، توفي سنة 1265 هـ . انظر: المسك الإذفر(90-93) ، عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد لإبراهيم الحيدري (152) .

[5] ذكره عبدالكريم العلاف في ترجمته لداود في كتاب " بغداد القديمة " (ص 205) .

[6] ذكر ذلك في حلية البشر (1/610) .

[7] في الأعلام (2/332) .

[8] يعني الشيخ محمود الألوسي ، أبا الثناء .

[9] الرد على النبهاني للألو سي (2/117) .

وذكر البغدادي[1]، وعمر رضا كحالة[2]، وأحمد تيمور[3]: انه حنفي المذهب[4] .

ويذكر-ابن جرجيس- عن نفسه أنه حنبلي ، حيث يقول : " اعلم أني، ووالدي، وجدي بيت علم ، وعقيدتنا عقيدة السلف ، وليس الآن في بغداد من هو على مذهب الإمام أحمد غيري، وأنا تابع لأقوال الشيخين ابن تيمية وابن القيم "[5].

ولعل زعمه أنه حنبلي ، ليروج قوله عند أهل نجد ظنا منه انه سيقبل لحنبليته . و الله أعلم بحقيقة الحال .

المطلب الثالث : قدومه إلى نجد

قال ابن بشر[6]: " كان هذا الرجل – ابن جرجيس – قد جاء إلى نجد قاصدا الحج ، فنزل في بلدة عنيزة ، وكان القاضي في ذلك الوقت الشيخ عبدالله أبابطين .. وقرأ عنده داود طرفا من تفسير البيضاوي ، وبعضا من فقه الحنابلة، فاستجازه في فقه الحنابلة فأجازه وأذن له بالتدريس ، فأخذ يدرس هناك ، ثم تظاهر ببعض المخالفات الاعتقادية ، فأحضره الشيخ عبدالله و كشف شبهته[7] فيها واعترف بخطئه ، فألف الشيخ عبدالله كتابا في بيان هذه الشبهة سماه بعض طلبته " الانتصار" ، ثم أن داود حج ورجع إلى بلده وأخذ ينصر تلك الشبهة ، ويتطلب أشياء من كلام العلماء ليكون له به حجة فظفر بعبارات شيخ الإسلام ابن تيمية فظن أنها تدل على مدعاه ، وبعد أربع سنوات حج مرة أخرى ونزل كما سبق في بلدة عنيزة ، ولم يعدم بها مساعدا ، فتظاهر بما رجع عنه ، فاستحضره الشيخ عبدالله بعد ذلك وسأله عن سبب رجوعه فأبرز عبارات ابن تيمية ، فأحضرت الكتب التي نقل منها تلك العبارات واعتمد عليها داود ، فوجدت إيرادات يوردها ابن تيمية

---

[1] هدية العارفين (1/363) .

[2] معجم المؤلفين (1/698) .

[3] أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث (ص332) .

[4] ورجح شمس الدين الأفغاني في كتاب " جهود علماء الحنفية " أنه حنفي المذهب (1/180).

[5] انظر : تحفة الطالب والجليس للشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن (ص 35) ، والقول الفصل النفيس للشيخ عبدالرحمن بن حسن (ص 14) .

[6] هو : عثمان بن عبدالله بن عثمان بن بشر النجدي الحنبلي ، مؤرخ نجد ، له عدة مؤلفات، توفي في سدير سنة (1290هـ) .انظر : مشاهير علماء نجد ( ) ، الأعلام (4/209) ، ومقدمة عنوان المجد .

[7] قال في تذكرة أولي النهى والعرفان : "يموه بكلام معناه : استحالة وقوع الشرك في الأمه المحمدية ، ويزعم أن دعاء الأموات والغائبين والذبح لغير الله ليس بشرك " (1/252) .

بقصد الرد عليها لا أنه مستدل بها، فظهر الحق للعيان وسكت داود قطعا للكلام ، ثم أنه أسر في نفسه العداوة للشيخ خاصة ولأهل نجد عامة إلا شرذمة من أهل عنيزة ، فلما رجع إلى بلاده في العراق شرع يغني على ليلاه وينصر مدعاه بكل غث وسمين ، فأرسل رسالة إلى أحد أصدقائه في بلد عنيزة ضمنها أدلة لما رد به على الشيخ ، فاطلع عليها أحد طلبة العلم في عنيزة فأخذها وعرضها على الشيخ ، فرآه زاد فيها أمرا آخرا على تلك الشبهة ، وهو أنه لا فرق بين الأحياء والأموات، وأن السؤال من الميت كالسؤال من الحي، فانتدب لها الشيخ ، وردها بكتاب سماه "تأسيس التقديس" "[1].

وفي هذا يقول الشيخ عبدالله أبا بطين في مقدمة كتابه " تأسيس التقديس " : "أما بعد : فإنه قد قدم علينا في أثناء عشر ستين السنة رجل اسمه داود بن سليمان البغدادي ، ومعه شيئا من كتب المذهب ، وجلس عندنا مدة ، وطلب مني إجازة في الفتيا في المذهب وكتبت له ، وبعد ذلك بنحو أربع سنين قدم حاجا ، وذكر لي أن معه ورقة فيها عبارات من كلام الشيخ تقي الدين يشبه بها على الناس ، يضع كلام الشيخ في غير موضعه ، فأحضرته وباحثته ، فإذا حقيقة أمره : دعواه استحالة وقوع الشرك في الأمة المحمدية ، ويزعم أن دعاء الأموات والغائبين والذبح والنذر لغير الله ليس بشرك ، ويقول : " إن الطلب من الأموات والغائبين لا يسمى دعاء ، بل نداء... ، ويقول : الشرك هو السجود لغير الله فقط ، وسألته عن معنى لا إله إلا الله ، وما معنى الإله ؟ فارتبك وتحير. فقلت : أخبرني عن حقيقة الشرك الذي حرمه الله وأخبر أنه لا يغفره ؟ فقال : هو السجود لغير الله . فقلت : نهى الله عن السجود لغير الله ، لكن ما دليلك على أنه شرك ؟ فلم يكن عنده جواب .

فلما أوردت بعض الأدلة على بطلان دعواه ، ودحضت حجته ، أظهر الموافقة قصدا لقطع الكلام لا للموافقة باطنا فيما أطن . وكتبت على ورقته التي معه نحو ثلاثين ورقة ، سماها بعض الطلبة "الانتصار" .

وبعد ذلك طلب مني بعض الإخوان بيان معنى بعض أبيات في البردة و تشطيرها للرجل المذكور فكتبت عليها قدر

---

[1] نقلا عن : علماء نجد خلال ستة قرون لابن بسام (2/569) ، ولم أجده في " عنوان المجد" المطبوع ، وانظر: تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الواحد الديان لإبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن (1/251 - 253) .

ورقتين ، فاشمأز بعض المخالفين لزيغ في قلبه... وهم قد رفعوا جوابي الأول والثاني إلى كبيرهم داود المذكور، مستنصرين به ، فقام وقعد وجد واجتهد في البحث عن الأوراق التي اعترض فيها أعداء الشيخ محمد بن عبد الوهاب –رحمة الله عليه– فيما دعا إليه من التوحيد ، فحصل -فيما بلغني- جملة منها ، فاستمد منها ، وزاد من عنده فضائح وضعها في تسويده هذا الذي عثرنا عليه ، فيه ترويج على الجهال ، فرأيت أنه يتعين على مثلي بيان تلبيسه و تمويهه "[1].

وكان ممن احتفى به عند قدومه لعنيزة عثمان بن منصور، وقد مدحه بقصيدة بلغت ستة وثلاثين بيتا منها[2]:

عسى تقتضي الحاجات مني رسالة إلى الجسر من بغداد بالود واليسر

بها بينـات واضحات من الهـدى تحطـم منهاج الخوارج بالصفـر

وقد أرسل الشيخ عبداللطيف رسائل إلى أهل عنيزة يعاتبهم على صنيعهم ، حيث قال : " من عبداللطيف بن عبدالرحمن إلى من يصل إليه هذا الكتاب من أهل عنيزة .
سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، وبعد .

يجري عندكم أمور يتألم منها المؤمنون ويرتاح لها المنافقون ، ولابد من النصيحة معذرة إلى الله تعالى .. ومن ذلك قصد المشاقة والمعاندة بإكرام داود العراقي مع اشتهاره بعداوة التوحيد وأهله ، والتصريح بإباحة دعاء الصالحين ، والحث عليه ، وغير ذلك مما يطول عده "[3].

المطلب الرابع : مؤلفاته، والردود عليه

كل من ترجم لداود ذكر بعض مؤلفاته ، والذي حصرته –فيما اطلعت عليه من مراجع- أحد عشر مؤلفا ، وهي :

1- أشهرها وأهمها : " صلح الإخوان من أهل الإيمان، وبيان الدين القيم في تبرئة الشيخين ابن تيمية وابن القيم "، وهو الذي رد عليه الشيخ عبداللطيف في هذا الكتاب الذي بين أيدينا .

2- " أشد الجهاد في إبطال دعوى الاجتهاد " ورد به على حنابلة نجد فيما نسب إليهم من دعوى الاجتهاد .

---

[1] تأسيس التقديس للشيخ عبدالله أبا بطين (2-3) .
[2] انظر : علماء نجد خلال ستة قرون للبسام (3/696) .
[3] الدرر السنية في الأجوبة النجدية (12/288) .

3- رسالة في " الرد على محمود الألوسي "، وهي مطبوعة في آخر صلح الإخوان .
4- " مسلي الواجد " وهو تشطير[1] مرثية لخالد النقشبندي .
5- " روض الصفا في بعض مناقب والد المصطفى " وهي رسالة في إسلام أبوي الرسول ﷺ -حسب زعمه - .
6- " تشطير بردة البوصيري " .
7- " دوحة التوحيد " في علم الكلام .
8- " المنحة الوهبية في الرد على الوهابية " . أكد فيه أن للموتى حياة في قبورهم ، وقرر ذلك بمختلف الدعاوى ليتوصل من هذا التقرير إلى تجويز الاستغاثة بهم .
9- " مناقب المذاهب الأربعة ".
10- الفوائد الجلية في نظم الرسالة الوصفية .
11- " أنموذج الحقائق" .

وقد انبرى العلماء يردون عليه ، و يبينون باطله و بهتانه ، ومن ذلك :

* ألف الشيخ عبدالله أبو بطين (ت 1282 هـ) كتابان في الرد عليه هما : "الانتصار لحزب الله الموحدين، والرد على المجادل عن المشركين" ، " تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن سليمان بن جرجيس" وقد مرت الإشارة إليهما.

* ورد عليه الشيخ محمد بن ناصر الشريف الحازمي اليمني[2] (ت 1283 هـ) في كتابه " إيقاظ الوسنان على بيان الخلل الذي في صلح الإخوان " .

* وألف الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب (ت 1285 هـ) كتاب " القول الفصل النفيس في الرد على داود بن جرجيس "[3] .

---

[1] الشطر : نصف الشيء ، وشطرته : جعلته نصفين ، والتشطير : أخذ الشاعر بيتا لغيره ، فيجعل لصدره عجزا ، ولعجزه صدرا ، مراعيا تناسب اللفظ والمعنى بين الأصل والفرع . انظر : لسان العرب (4/2261) ، المعجم الأدبي (68) جبور عبد النور .

[2] هو : محمد بن ناصر بن حسين الشريف الحازمي اليماني ، قرأ على الشوكاني ، له رحلات في طلب العلم . انظر : الأعلام (7/122) ، معجم المؤلفين (3/747) ، وذكر أن اسم الكتاب " فتح المنان في ترجيح الراجح وتزييف الزائف من صلح الإخوان " .

[3] تعددت اسماء هذا الكتاب منها : الرد النفيس على شبهات ابن جرجيس ، تأسيس التقديس في الرد على داود بن جرجيس ، كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داود بن جرجيس ، ورجح هذا الاسم الأخير محقق الكتاب . انظر: مقدمة تحقيق الكتاب لإسماعيل بن عتيق . وانظر: دعاوى المناوئين (ص 62) .

* ورد عليه الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بكتابين : " تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس"[1]، وهذا الكتاب هو الذي قال فيه عبد القادر البغدادي قصيدة من أبياتها :

عبداللطيف جــزاه اللـه خـالقنـا يـوم الجزاء بأجر غيـر ممنون
حمى طـريق رسـول الله عن شبـه منسوبـة لجهـول غير مأمـون
ظن ابن جرجيس من جهـل ومن سفه لم يبق في الناس ذو علم و تمكين
إن ابن جرجيـس بـرذون وذا أسـد وهل تقاس أســود بالبراذيـن[2]

وهو رد مختصر ، أتبعه برد مطول ، وهو " منهاج التأسيس والتقديس في الرد على داود بن جرجيس " .

* ورد عليه السيد نعمان خير الله الشهير بابن الألوسي (ت 1317 هـ) في كتاب أسماه " شقائق النعمان في الرد على شقاشق داود بن سليمان " ، يقول في كتابه جلاء العينين : " وإن كنت قد رددته في كتاب مخصوص ، وبينت في شقائقي أن من يتوسل به ليس له دعوة وجاه مخصوص "[3].

* ورد عليه الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى (ت 1329هـ) بكتاب " الرد على شبهات المستعينين بغير الله " وهو رد على كتابه " أنموذج الحقائق " .

* ورد عليه علامة العراق محمود شكري الألوسي (ت 1342 هـ) بكتابه الذي أسماه " فتح المنان تتمة منهاج التأسيس ، رد صلح الإخوان " وهو تتمة لكتاب " منهاج التأسيس " للشيخ عبداللطيف ، حيث أن الشيخ عبداللطيف مات قبل أن يتمه.

المطلب الخامس : مجمل عقيدته

يتضح من مؤلفاته أنه صوفي، قبوري، مرجئ، جبري : أما كونه من القبوريين فهذا مشتهر عنه، يدافع وينافح عن دعاء الأموات، والتوسل إليهم بما لم يسبق إليه، يقول بعض

---

[1] طبع هذا الكتاب باسم : دلائل الرسوخ في الرد على المنفوخ . انظر : مقدمة تحقيق الكتاب لعبد السلام بن برجس (ص10-11) .

[2] تحفة الطالب والجليس (ص 17) .

[3] جلاء العينين (ص 576) .

مترجموه : " جرت له مناظرات مع السلفيين حيث دعا إلى الاستعانة، والاستغاثة بقبر أبيه، والاستمداد من الأموات "[1].

وهو من كبار الصوفية، قيل عنه :" كان من كبار الصوفية في بغداد على طريقة النقشبندية"[2]، ويسلك مسلك الغلاة حيث يقول : " إنما الرجل من يقول : حدثني سري عن ربي ، لا من يقول : حدثنا فلان عن فلان "[3] ، ويزعم أن ذات النبي خلقت من نور الله –عز وجل - ، ويقول : " كما لا يخفى أن ذات نبينا خلقت من نوره تعالى "[4].

أما كونه مرجئ، فلأنه يرى أن الذنوب لا تخرج من الإيمان مطلقا، ويقول: "وأما أهل السنة والجماعة فهم الفرقة الناجية من بين الثلاث وسبعين فرقة ، وهم ما كان عليه النبي وأصحابه في الاعتقاد لا في العمل ؛ لأن الذنوب لا تخرج أحدا من الإيمان إن كان فاعلها من أهل القبلة "[5]، حتى السجود لغير الله لا يكفر فاعله عنده ، حيث يقول : " ومع هذا فالسجود حرام ، لا كفر يخرج عن الملة إذ لم يقل به أحد من العلماء كما لا يخفى"[6].

وتظهر عقيدته الجبرية في باب القدر، حيث يرى أن الله هو الفاعل الحقيقي لأفعال العباد، و نسبتها إليهم على سبيل المجاز، يقول في معرض استدلاله على جواز الاستغاثة بغير الله : " وقد جعل الله الإغاثة في غيره، قال تعالى: (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ)(القصص: من الآية15)، فإن قال قائل هذا في الحي وهو له قدرة ، قلنا : لا يجوز نسبة الأفعال إلى أحد حي أو ميت على أنه الفاعل استقلالا من دون الله "[7]

ويقول أيضا : " فالطلب من الأنبياء والأولياء جائز في الحياة والممات ، ولو فيما لا يقدر عليه إلا الله ؛ لأن الفاعل الحقيقي هو الله "[8]؛ لذا يعتقد أن أي طلب من غير الله هو في الحقيقة طلب من الله ، ويقول : " الطلب من أولياء الله طلب من الله تعالى ؛ لأن الله هو المتولي لهم"[9].

---

[1] المسك الإذفر (ص 333) .
[2] أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث لأحمد تيمور باشا (ص 332) .
[3] انظر : منهاج التأسيس (31) .
[4] الرد على الألو سي (ص 7) .
[5] صلح الإخوان (ص 150) .
[6] المرجع السابق (149) .
[7] صلح الإخوان (ص 44-45) .
[8] الصلح (123) .
[9] الصلح (123) .

قال الشيخ عبداللطيف : " ولم يقل قول العراقي إلا القدرية المجبرة ، ومن نحا نحوهم من الجهمية "[1].

أما معتقده في الصفات فلم يتبين في هذا الكتاب على التفصيل ، وإن كان في معرض رده على منع الاستغاثة بغير الله تبين أنه يرى رأي الجهمية من أن الصفات غير الذات ، وأن صفات الله مخلوقة، حيث يقول : " وكان من دعائه " لا إله إلا أنت ، برحمتك أستغيث "[2] ورحمة الله غيره ، مع أن الله جعل بعض مخلوقاته رحمة ، فقال : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)(المؤمنون : الآية 107) "[3] .

قال الشيخ عبداللطيف : " فهذا القول قول المعطلة غلاة الجهمية الذين عطلوا صفات الله ، ولم يثبتوا إلا ذاتا مجردة عن صفات الكمال ، وتأولوا ما ورد من الصفات في الكتاب والسنة على مفعولاته ومخلوقاته ، وهذا الصنف أكفر خلق الله وأجهلهم "[4].

المطلب السادس : وفاته :

توفي في بغداد في نهاية شهر رمضان سنة (1299 هـ) ، ودفن في جامع الست نفيسة بجانب الكرخ .

* * *

---

[1] المنهاج (ص 374) .
[2] انظر تخريجه : (ص704) .
[3] الصلح (46) .
[4] المنهاج (ص 375) .

المبحث الثاني
منهجه في كتاب صلح الإخوان
عرض و نقد في ضوء منهج السلف

لم يخرج ابن جرجيس في منهجه العام عن منهج أهل البدع كالسبكي والبكري وغيرهم ، ويصدق عليه ما ذكره ابن عبد الهادي في " الصارم المنكي" واصفا منهج السبكي ، حيث يقول : " فوجدت كتابه مشتملا على تصحيح الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، وتقوية الآثار الواهية و المكذوبة ، وعلى تضعيف الأحاديث الصحيحة الثابتة والآثار القوية المقبولة ، أو تحريفها عن مواضعها، وصرفها عن ظاهرها بالتأويلات المستنكرة المردودة ، ورأيت مؤلف هذا الكتاب المذكور رجلا مماريا، معجبا برأيه، متبعا لهواه، ذاهبا في كثير مما يعتقده إلى الأقوال الشاذة ، والآراء الساقطة ، صائرا في أشياء مما يعتقده إلى الشبه المخيلة والحجج الداحضة ، وربما خرق الإجماع في مواضع لم يسبق إليها، ولم يوافقه أحد من الأئمة عليها ، وهو في الجملة لون عجيب وبناء غريب، تارة يسلك فيما ينصره ويقويه مسلك المجتهد ، فيكون مخطئا في ذلك الاجتهاد ، ومرة يزعم فيما ينصره ويقويه ويدعيه أنه من جملة المقلدين ، فيكون من قلده مخطئا في ذلك الاعتقاد ، ونسأل الله سبحانه أن يلهمنا رشدنا ويرزقنا الهداية و السداد ..."[1].

ويصدق هذا الوصف وأعظم منه على ابن جرجيس ، وعلى غالب أهل البدع من المتقدمين والمتأخرين .

وكل من رد على ابن جرجيس من الأئمة قدم بملخص لمنهجه ، يقول الشيخ محمد بن ناصر الحازمي : " أما بعد ... فإنه وصلت إلينا رسالة سماها مرسلها "بصلح الإخوان" مملؤة بالشرك و الطغيان ...و قد بنى رسالته على ثلاثة أمور: **الأول** – تنزيه العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية – رحمة الله عليهما – عما نقل عنهما من إطلاق التكفير على من اعتقد في أهل القبور .

الثاني - الانتقاد على الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وأن ما جاء به و ألفه مخالف للحق .

الثالث - أطال في تصويب ما عليه عوام الناس ، وبعض خواصهم قديما وحديثا من الاستغاثة بالأموات ... وأن ما عليه الناس في جميع الأقطار من طلب الحوائج من الموتى من باب الكرامات ...وأيد ذلك بحكايات ونقولات لا تتفق في مقام الاستدلال عند الأفاضل ، واستظهر بآيات وطبقها على هذه

---

[1] الصارم المنكي (19-20) .

الاعتقادات وهي منأى عنها بمراحل ، فرأيت الواجب علي أن أنبه على ما تضمنته تلك الرسالة من الاختلال ... "[1].

ونقل الشيخ عبدالرحمن بن حسن في معرض رده عليه كلام شيخ الإسلام في الرد على البكري ، حيث قال : " أما أولئك الضلال أشباه المشركين النصارى فعمدتهم إما أحاديث ضعيفة أو موضوعة ، أو منقولات عمن لا يحتج بقوله ، إما أن تكون كذبا عليه ، وإما أن يكون غلطا منه ...وإن اعتصموا بشيء مما ثبت عن الرسول ﷺ حرفوا الكلم عن مواضعه ، و تمسكوا بمتشابهه، وتركوا محكمه كما يفعله النصارى ، و كما فعل هذا الضال ابن البكري " ، ثم عقب على ذلك الشيخ عبدالرحمن –رحمه الله- وقال : " وهذه الطريقة التي سلكها هذا الضال هي طريقة أهل البدع، كداود بن جرجيس ، الذين يجمعون بين الجهل والظلم، فيبتدعون بدعة مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الصحابة "[2].

ويقول الشيخ أحمد بن عيسى : " واعلم أن هذا الرجل يكثر من نقل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، ويظهر تعظيمهما، وبينه وبينهما بون كبير ، وفرق كثير..وهذا المخذول إن نقل من كلامهما شيئا حذف بعضه ، أو أفسده بالتصرف ، واستكرهه بالتأويل الباطل والتعسف ، ليوافق مذهبه وانتحاله، وليطابق إفكه و ضلاله "[3].

المطلب الأول : منهجه في الاستدلال والعرض

* منهجه في العرض

يعد " صلح الإخوان " من أجمع كتب القبورية ، وأشملها في جمع الأدلة والاستدلالات ، وقد جعله في مقدمة وبابين وخاتمة ، يقول ابن جرجيس : "والمقدمة في التحذير من تكفير المسلمين ، وأنه يوقع في الكفر ، وأن ذلك من شأن الخوارج والرافضة " ، ثم أطال بذكر منشأ الخوارج وذم السلف لهم ، وخرج من ذلك إلى أن " الوهابية " قالوا بقول الخوارج ، وشذوا عن سلف الأمة ، ثم بدأ بذمهم وأنهم جعلوا دار مسيلمة دار هجرة، وغير ذلك ، وردد ما ذكره قبله من المناوئين لهذه الدعوة المباركة .

---

[1] إيقاظ الوسنان (ص29-30) .
[2] القول الفصل النفيس (143-144) .
[3] الرد على سبهات المستعينين بغير الله (ص19-20) .

ثم بدأ بالباب الأول ، وقال : " أما الباب الأول : ففي نقل عبارات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في تبرئتهما من تكفير أو تشريك أحد من المسلمين أو تأثيمه بفعل شيء من نداء أهل القبور والاستغاثة بهم ، والنذر لهم أو لغيرهم ، والحلف بغير الله وما أشبه ذلك"، وذكر فيه اثنين وخمسين نقلا من كتب ابن تيمية وابن القيم وتلاميذهما ، يذكر النقل ، ثم يبين وجه الاستشهاد ، وأحيانا كثيرة يكتفي بذكر النقل بلا تعليق.

أما النقل الثالث والخمسين : فهو عبارة عن عدة نقول عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله- ، ضرب بعضها ببعض ، وزعم أن الشيخ متناقض .

ثم ختم الباب بخاتمة كرر فيها ما ذكره في المقدمة من التحذير من تكفير المسلمين ، واتهام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالابتداع ، ومخالفة ما عليه جمهور المسلمين.

ثم بدأ بالباب الثاني ، وقال : " والباب الثاني : في نقل أدلة المجوزين لذلك من غير ابن تيمية وابن القيم من جمهور علماء المذاهب الأربع ، وفعل السلف "الصالح" ، وهو أطول أبواب الكتاب ، قدم له بمقدمة طويلة ، تعد خلاصة وجه الاستدلال من كل الأدلة التي شحن فيها الكتاب ، وحاصلها تجويز دعاء غير الله على أنهم أسباب يفعل الله لأجلهم .

بدأ هذا الباب بذكر الأدلة من القرآن ، وهي ثلاثة عشر دليلا، يذكر الآية ثم يذكر أقوال المفسرين ، فإما أن يحرف في النقل – وهذا هو الغالب -، أو ينقل الشاذ من الأقوال ، وأحيانا كثيرة إذا لم يجد ما يوافق معتقده في كتب التفسير فسر الآية برأيه وبما لم يذكره أحد قبله .

ثم ذكر الأدلة من السنة ، وهي خمسة وعشرين دليلا ، بدأها بذكر الأحاديث، وهي سبعة أحاديث ، إما ضعيفة أو موضوعة ، والصحيح منها لا يدل على ما ذهب إليه ، يذكر الحديث ثم يذكر وجه الاستدلال ، وأكثره كلام بلا عزو ، أو نقول من كتب المتأخرين .

ثم ذكر النقول عن الصحابة ، وهي ثمانية عشر أثرا ، وعمدته في ذلك كتب التواريخ والحكايات .

ثم عقد فصلا فيما ورد عن النبي من معاملة الأموات معاملة الأحياء ، ذكر فيه اثني عشر دليلا ، إن نقلها من البخاري ومسلم فهي لا تدل على ما يريد، وإلا فأغلبها أحاديث

ضعيفة أو موضوعة . وخلص من هذا الفصل إلى أنهم يسمعون فيجوز دعاؤهم .

ثم ذكر جملة من الآثار تدل – بزعمه - على تصرف الأرواح بعد الموت ، وغالبها رؤى ومنامات ، خلص من ذلك إلى أنها – الأرواح - تتصرف فيجوز سؤالها.

ثم ساق جملة من الأحاديث والآثار التي تدل على عرض أعمال الأحياء على الأموات ، لم يذكر فيها دليلا صحيحا ، وإنما هي حكايات وقصص ومنامات، ختمها بقوله : " ويظهر لك من أحاديث العرض أن الأموات يدعون للأحياء ويتسببون لهم في جلب خير أو دفع سوء"[1].

ثم ساق أربع وعشرين دليلا، وثمانية آثار، استدل بها على أن التوسل بالذوات، بل والجمادات وقع كثيرا من الصحابة ، وكل ما ذكر يدل على تبرك الصحابة بآثار النبي ، ومنها الصحيح والضعيف ، ولا تدل على ما ذهب إليه.

وبعد ذلك عقد فصلا في جواز التوسل بالنبي سواء بلفظ الجاه أو الذات أو الحق ، وذكر آيات وأحاديث لم يخرج فيها عن منهجه السابق .

ثم عقد فصلا في ذكر أقوال الفقهاء من المذاهب الأربعة تدل على جواز التوسل والاستشفاع بالأنبياء والصالحين ، ولو سمي استغاثة ، أعاد فيه كل ما نقل سابقا ، وغير المصدر فقط ، فاعتمد على كتب الفقهاء ، يتتبع الشواذ ، ويتسقط الزلات .

ثم عقد خمسة فصول : فصل في النذر لأهل القبور ، وفصل في الذبح للأنبياء والأولياء ، وفصل في جواز الحلف بغير الله ، وفصل في جواز قول ما شاء الله وشئت ، وفصل في جواز إطلاق السيد والمولى على غير الله .

وأخيرا ذكر خاتمة الكتاب ، وقال : " وأما الخاتمة ففي المناقشة مع المانعين، ورد شبههم الواهية من طريق النقل الصحيح والعقل الرجيح"[2]، وقد أعاد فيها مرة أخرى كل ما ذكره سابقا، وأكد معتقده القبوري من استحباب سؤال غير الله .

---

[1] الصلح (ص75) .
[2] صلح الإخوان (ص 4).

*** منهجه في الاستدلال**

إن من أهم أسباب التفرق وظهور البدع والأهواء : اضطراب الناس في مسألة التلقي والاستدلال ، فكم من مبتدع زائغ استطاع إفساد أديان الناس وعقائدهم بسبب جهل الناس بأصول الاستدلال ومصادر التلقي ، وكم من البدع والشركيات التي توارثها الناس – جيلا بعد جيل – بسبب إعراضهم عن الكتاب والسنة تلقيا وفهما وتطبيقا .

ومن المعلوم أنه لا يكفي لإثبات مشروعية الأمر إيراد الأدلة الصحيحة ، بل لا بد من استقامة الاستدلال ، فهو الذي ينجي المرء من الزيغ والانحراف ، قال تعالى: (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الملك:22) ، والمتأمل لكتاب ابن جرجيس ، بل المتصفح له دون تأمل يلحظ عدم مراعاته لقواعد الاستدلال ، وذلك باتباع المتشابه ، والاستدلال بالمجمل ، وعدم الجمع بين النصوص ، وغير ذلك .

وسأعرض في هذا المطلب -إن شاء الله تعالى- بعض معالم منهج ابن جرجيس في الاستدلال من خلال مسألتين :

المسألة الأولى : موقفه من مصادر التلقي عند السلف .

المسألة الثانية : مصادره ، ومنهجه في التلقي .

المسألة الأولى : موقفه من مصادر التلقي عند السلف

عامة المبتدعة – على اختلاف فرقهم- يعرفون بالتقديم بين يدي الله ورسوله ، وعدم تعظيم ما جاء في الكتاب والسنة ، وهذا من معالم منهج ابن جرجيس ، ويتبين ذلك من خلال :

1 – رد النصوص الثابتة التي تخالف هواه ، والجرأة على الله ورسوله ، وقد اشتهر ابن جرجيس بذلك ، يقول الشيخ أبو بطين : " جمع مدعيها بين ردّ نصوص الكتاب والسنة وإجماع العلماء ، وبين افتراء الكذب على الله "[1].

فليس للنصوص عنده حرمة ولا تقديرا ، يرد كل ما لم يوافق هواه بشبهات وهذيان ، فيقول مثلا : " ومعلوم أن من

[1] تأسيس التقديس للشيخ عبدالله أبا بطين (13) .

استوجب العذاب من المسلمين، أو دخل فيه ، وشفع فيه الأنبياء أو الملائكة أو المؤمنون ، لا شك أن الله أراده بضر ، ونفعته شفاعة الشافعين"[1].

وابن جرجيس لا يتورع عن قول : " يقول تعالى كذا " ، وهو يفسر برأيه فيقول مثلا : " يقول الله تعالى : أولئك الذين تعبدونهم يتوسلون إلى الله بمن هو أقرب ، يعني فهم محتاجون إلى أحد يشفع لهم بطلبهم منه ، وابتغائهم ، فكيف تجعلونهم أربابا وهم عبيد مفتقرون إلى ربهم ومتوسلون بمن هو أعلى مقاما منهم إليه "[2].

قال الشيخ عبداللطيف : " فقد كذب على الله ما عنى الله سبحانه وتعالى هذا المعنى ، ولا أراده تبارك وتقدس عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، ما أجرأ هذا المتكلم على الله وعلى كتابه وعلى دينه"[3].

وأعجب منه تفسيره لقوله تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً) (الإسراء: 56) ، حيث قال : " فلو كانت الاستغاثة بالأنبياء وغيرهم من المسلمين دعاء وشركا لم يقل لهم : " قل أدعوا الذين زعمتم " ؛ لأن استغاثتهم كانت بالنبي وهو غير الله ، فكيف لم يعيرهم لما دعوا النبي واستغاثوا به ، وهم قد دعوا غير الله على قول هؤلاء المانعين، وظاهر تفسير الآية يدل : أن الله رضي لهم استغاثتهم بالنبي وتهددهم على دعاء غيره من الأصنام "[4].

وكذلك من جرأته على الله وعلى الرسول قوله : " فكيف يتجاسر على خيار الأمة المحمدية وعلمائها ويكفرهم بالتوسل بالأنبياء والصالحين بشبهة هي أوهى من بيت العنكبوت "[5] ، ولما ذكر الشبه ذكر فيها الآيات والأحاديث ، وليته قال : " استدلالات أوهى من بيوت العنكبوت " لهان الأمر، يقول الشيخ أبا بطين –رحمه الله- : " فوصف الخبيث كلام الله بالبطلان مما يبين جهل هذا وفجوره ، فلو قال الاستدلال الباطل لكان أخف إثما "[6].

---

[1] تأسيس التقديس (43) .
[2] الصلح (ص45-46) .
[3] المنهاج (366) .
[4] الصلح (46-47) .
[5] ?الصلح (8) .
[6] تأسيس التقديس (44) .

2- عدم رد التنازع إلى الكتاب والسنة :

ورد التنازع إلى الكتاب والسنة فيه حسم لمادة التقليد ؛ لأن من أوقف دينه على آراء الرجال دار معهم حال هداهم وحال ضلالهم ، وهذا الذي نعاه الله على المشركين حيث قال تعالى : (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) (الزخرف:23) .

3 -الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض :

وهذا ما فعله ابن جرجيس ، يأخذ نصا ويترك نصوصا أخرى قد تكون مخصصة أو مقيدة أو مبينة أو نحو ذلك ، فيؤدي به ذلك إلى كثير من الخلط والاضطراب، وأوضح مثال على ذلك قوله بالإرجاء ، وأخذه نصوص الوعد وترك نصوص الوعيد ، وجعل لذلك قاعدة حيث قال : " لأن كلام الله وكلام رسوله إذا أطلقا يجب تأويلها كما في آيات الوعيد... ثم قال ... فإذا كان كلام المعصوم الذي لايترك قوله : اتفق العلماء على تأويل اطلاقه ما يوهم الإخراج عن الملة ، فكيف غير المعصوم؟ "[1].

قال الشيخ عبداللطيف-رحمه الله- : " حكاية الاتفاق على ما ذكر تهور في الكذب على أهل العلم كافة ، واقتحام لجرائم الوعيد المنصوص عليه بقوله تعالى: (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) (النحل:105)"[2]؛ ولهذا قال ابن تيمية : " لكن التحقيق الجمع بين نصوص الوعد والوعيد ، وتفسير بعضها ببعض من غير تبديل شيء منها "[3].

4- يفسر القرآن والسنة برأيه ، ويعكس ما قاله أهل العلم ، فلما فسر قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)(المائدة: الآية35) جعل معنى ابتغاء الوسيلة : " التوسل بالذوات " ، ولم أجد من فسر الآية بمثل ما فسرها به ابن جرجيس ؛ ولأنه لم يجد من يقول بقوله فسر الآية برأيه وأعرض عن أقوال المفسرين قاطبة ، قال الشيخ عبداللطيف-رحمه الله- : "فأتى على ما قاله المفسرون قاطبة فهدمه،

---

[1] الصلح (42) .
[2] المنهاج (369).
[3] التفسير الكبير لابن تيمية (4/249) .

واجتث أصوله ورده رد من لا يؤمن بالكتاب ولا يخاف سوء الحساب "[1].

وكذلك في الحديث ، حيث يقول في شرحه لحديث : " أجعلتني لله ندا ؟ " ، قال : " أي : استظهره عن نيته ، وقال له عن طريق الاستفهام ، أجعلتني لله ندا ؟ يعني : كما يزعم اليهود ، قل : " ما شاء الله ثم شاء محمد " أدبا مع الله ، ودفعا لاعتراض أعدائه ؛ ولهذا استفهم من القائل لأن العبرة بالنية ؟ "[2].

ومما تفرد به أيضا قوله : " أما قول أبي أمامه - رضي الله عنه – بخروجهم من الإسلام –الخوارج- ؛ لأنهم أخرجوا المسلمين من الإسلام فكان جزاؤهم من جنس عملهم"[3].

5- كتم النصوص وتلبيسها ، وهما متلازمان ، قال ابن تيمية- رحمه الله- في معرض بيانه لتلازم لبس الحق مع كتم النصوص : " وقوله : (وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)(البقرة :42) ، هما متلازمان، فإن من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوسا به ، خفي من الحق بقدر ما ظهر من الباطل فصار ملبوسا ، ومن كتم الحق احتاج أن يقيم موضعه باطلا، فيلبس الحق بالباطل ؛ ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلابد أن يظهر باطلا، وهكذا أهل البدع ، لا تجد أحدا ترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمل إلا وقع في بدعة ، ولا تجد صاحب بدعة إلا ترك شيئا من السنة "[4].

ويتضح التلبيس عند ابن جرجيس بعدة صور، منها:
* استدلاله بما لا دليل فيه ، وهذا هو الغالب ، فاستدل على جواز الاستغاثة بغير الله ، بأن الله ينسبها إلى غيره حيث قال : " (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ)(القصص: 15) ووجه الاستدلال : أن الله تعالى نسب الاستغاثة إلى غيره ، ولو كان ذلك ممنوعا لما جازت النسبة "[5].

وقال الشيخ عبداللطيف : " وهذا لم نقل بمنعه حتى يستدل علينا بالنسبة التي في الآية ، مع أن الاستدلال بها

---

1 ?المنهاج (352) .
2 ?الصلح (115-116) .
3 ?الصلح (8) .
4 مجموع الفتاوى (7/172- 173) .
5 ?الصلح (46) .

يترجم عن جهل المعترض وعدم فهمه عن الله .. والنسبة لا يستدل بها من يعقل ما يقول ، بل الدليل في حكايته على وجه التقرير وعدم الإنكار"[1]، وإذا كان هذا لا يقوله عاقل ، تبين أنه إنما ذكره هنا تلبيسا ، لأن الكتاب مؤلف للعوام .

واستدل أيضا بمشروعية الخروج بالبهائم والأطفال في الاستسقاء على أنه من التوسل بذواتها[2].

* الاستدلال بالنصوص على ما لا تدل عليه شرعا ، كاستدلاله بالسلام على أهل القبور ، وبخطاب النبي لقتلى المشركين ببدر ، على أنهم يسمعون ، ثم الاستدلال بسماعهم على جواز طلب قضاء الحوائج ودفع المصائب منهم .

واستدلاله بفضل البقعة على فضل أهلها على الإطلاق ، حيث قال : " بل عندهم أن أهل الحرمين الشريفين الذين هم في أشرف بقاع الله ، وأخبر الرسول كما في الصحيحين : " أن الأيمان يأرز في آخر الزمان إلى الحجاز-وفي رواية " إلى المدينة "- كما تأرز الحية إلى جحرها ، فهم عندهم كفار مشركون"[3].

وإذا ورد دليل في فضل زمان أو مكان استدل بذلك الدليل على صحة ومشروعية كل ما يقع في ذلك الزمان أو المكان ، فعندما استدل بقصة العتبي ، قال : " وكيف لا يثبت الاستحباب وهي واقعة في خير القرون ولم تنكر وارتضاها الفقهاء فهي دليل على الاستحباب"[4].

* الاستدلال بالآية الكريمة على نقيض ما دلت عليه ، ويفهم منها عكس ما دعت إليه ، فانظر إلى استدلاله بقوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَب) (الاسراء: من الآية57) ، قال : " أي : ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به"[5].

قال الشيخ عبداللطيف: " فانظر هذه الآية الكريمة وما دلت عليه ، وما سيقت له، وانظر حقيقة دعوى ابن جرجيس ، وما يفعله الغلاة في الأولياء والصالحين، تعرف أنه استدل بالآية الكريمة التي هي نص على إبطال دعاء الصالحين ومسألتهم

---

[1] المنهاج (372) .
[2] الصلح (80-81) .
[3] ?الصلح (9) .
[4] الصلح (ص18) ، وانظر في ذكر القصة ، والرد عليها : (ص371) من هذا البحث .
[5] الصلح (ص45).

وتعظيمهم بشيء من العبادات كالذبح والنذر لهم ، على إبطال دعواه أيضا في التوسل الشركي بالصالحين ودعائهم ومسألتهم ، وبهذا تعرف أنه مشاق لله ورسوله ، يستدل بالآية الكريمة على نقيض ما دلت عليه ، ويفهم منها عكس ما دعت إليه . وأهل العلم كافة استدلوا بهذه الآية على إبطال التوسل الشركي الذي هو دعاء الصالحين ، وابن جرجيس استدل بها على جوازه واستحبابه . فبعدا للقوم الظالمين"[1].

وإذا طمست الفطرة ، وغاب العقل بسبب الهوى يكون الذي لا يعقل هو الأصل وقد عاب المشركون على النبي دعوته إلى التوحيد : (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) (سورة صّ: آية 5) .

6- هجر النصوص البينة الواضحة ، واتباع المتشابه :

وقد صف الله تعالى أهل الزيغ بقوله : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران:7).

قال الطبري في تفسير المتشابه : " ما تشابهت ألفاظه وتصرفت معانيه بوجوه التأويلات ؛ ليحققوا بادعائهم الأباطيل من التأويلات في ذلك ماهم عليه من الضلالة والزيغ عن محجة الحق ، تلبيسا منهم بذلك على من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك ، وتصريف معانيه"[2].

ومثال ذلك استدلاله بقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)(المائدة: من الآية35) ، حيث قال: " فظاهر الآية عام في الأفعال والذوات ، ومن ادعى التخصيص بأحدهما فقد تحكم، على أن ظاهر سياق الآيات تخصيصه بالذوات.."[3].

ولم يقل بهذا القول أحد من المفسرين ، وقد خالف ما عليه السلف الصالح والعلماء المعتبرين ، وتعلق بالمتشابه من

---

[1] المنهاج (ص 351) .
[2] تفسير الطبري (6/185) .
[3] الصلح (45) .

كلام بعض المفسرين ، فأورد قول البغوي-رحمه الله- ، أي : " ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به "[1].

قال الشيخ عبداللطيف : " أما قول العراقي : فظاهر الآية عام في الأفعال والذوات ، فهذا يكذبه ويبطله ما مر من إجماع المفسرين على أن الوسيلة هي التقرب إلى الله بطاعته وبما يرضيه مما شرعه وأذن فيه"[2].

7 - الكذب على رسول الله ، وعدم اعتناءه بتنقيح السنة ويتجلى ذلك بأمور منها:

* تحريف كلام الرسول : يقول الشيخ أبو بطين في معرض رده على ابن جرجيس : " فالعجب من هذا التحريف لكلام الرسول ، وقد شابه فيه اليهود الذين يحرفون الكلام عن مواضعه مع معارضته لنص الحديث نفسه"[3].

وارجع إلى ما سبق من تحريفه لقول النبي : " أجعلتني لله ندا " .

* جهله بالصناعة الحديثية : وعلى هذا عامة المبتدعة ، فعندما ذكر حديث الأعمى ، قال : " والحديث متفق على صحته "[4]، وهذا غير صحيح[5].

ويقول : " روى ابن عساكر بسند جيد "[6] ، ويقول ابن عبد الهادي : " وهو أثر غريب منكر، وإسناده مجهول وفيه انقطاع "[7].

كما أنه لا يفرق بين الراوي والناقل ، فمثلا يقول : " رواه السيوطي ، رواه ابن تيمية وزاد في الفتاوى : "وإن كان لك حاجة فمثل ذلك " ، وعلى رواية ابن تيمية "[8].

ويتكثر بمن لا يتكثر بتصحيحه مثل : القسطلاني في " المواهب " ، وهو ليس معدودا في أهل التخريج والتعديل

---

[1] الصلح (45) .
[2] المنهاج (351-362) .
[3] تأسيس التقديس (ص 15) .
[4] الصلح (ص 87) .
[5] انظر: (ص669) للحكم على هذا الحديث .
[6] الصلح (57) .
[7] وهو أثر رؤيا بلال للنبي وقوله له : " ما هذه الجفوة يا بلال " . انظر : الصارم المنكي (ص314) ، فتح المنان (ص368) .
[8] الصلح (48) .

والتجريح ، وإنما هو ناقل ، والسبكي في "شفاء السقام " وهو يقلد الحاكم ، والمقلد لا يستكثر به ، قال السبكي عندما تكلم عن حديث توسل آدم بمحمد : " وقد اعتمدنا في تصحيحه على الحاكم"[1].

ويقول ابن جرجيس : "ولو فرض أن في سنده مقالا يكون عاضدا للأول ، وقد كان صحيحا فيكون مؤيدا "[2]. فهل الضعيف يعضد الصحيح ويؤيده ؟

ويقول : " ويكفي إثبات ابن الجوزي بالسند الصحيح والنقل الصريح ، فإنه معلوم عند المحدثين وأهل العلم كيف تشديده في تضعيف ووضع الصحيح فضلا عن الموضوع الضعيف "[3].

* عدم الدقة في نقل ألفاظ الحديث ، فيقول : " قال الرسول : " إن فيك لخصلة جاهلية" "[4]، ومعلوم أن نص الحديث : "إنك إمرؤ فيك جاهليه" .

وقال أيضا : " "الحديث الخامس " حديث أم سليم في أخذ عرق الرسول " غير ألفاظه وقال : " رواه مسلم بهذا اللفظ "[5].

قال الألوسي عن منهج ابن جرجيس في نقل الحديث : " واعلم أن الأصوليين قالوا : " يحل لعارف نقل حديث معناه ظاهر ولم يتعبد بلفظه بالمعنى " ، وهذا العراقي لم يكن بهذه المثابة ، فقد كان قليل البضاعة من العلم، ولم يكن أهلا لنقل الحديث بالمعنى ، فلذا حرف كلام الرسول في عدة مواضع ، وربما حذف شرطا أو قيدا لابد منه ، مع أن المنقول والمنقول عنه يلزم أن يكونا بمعنى واحد لا مغايرة بينهما إلا باللفظ "[6].

* إساءة الأدب معه حيث أتى بما لم يقله غيره ، ونسب الرسول إلى الكفر والاستغاثة بغير الله تعالى ، وهذا من أعظم الجرأة عليه فكيف يصدر ممن يزعم أنه يوقر الرسول ويعزره ، ويبالغ في تعظيمه .

---

[1] شفاء السقام للسبكي (ص163) .
[2] الصلح (50) .
[3] الصلح (58) .
[4] الصلح (35) .
[5] الصلح (78) .
[6] فتح المنان (348) .

قال ابن جرجيس : " وكان من دعائه "أن لا إله إلا أنت برحمتك استغيث" ورحمة الله غيره ، مع أن الله جعل بعض مخلوقاته رحمة "[1].

وقال الشيخ عبداللطيف : " وهذا التخليط ، وهذا الكفر الشنيع ما سمعته قط قبل الوقوف على كلام العراقي.."[2].

المسألة الثانية : مصادره ، ومنهجه في التلقي

لم يحصر ابن جرجيس الاستدلال بالدليل الشرعي ، واستدل بالظنيات والأوهام والعقليات ، وفي ذلك يقول الألوسي : " وقد ذكر العلماء أن من علامة أهل البدعة : صرفهم الدلائل إلى ما تهواه أنفسهم ، وجعل النصوص تابعة لما هم عليه لا أنهم هم تابعون لها ، فبعضهم يستدل على شركه بالخوارق الكرامات، وبعضهم برؤيا المنامات ، وبعضهم بالقياس على السوالف والعادات، وبعضهم بقول من يحسن به الظن ، وكل هذه الأشياء ليست من الشرع في شيء"[3].

ومن مظاهر ذلك عند ابن جرجيس ما يأتي :

1 – الاستدلال بالأحاديث الضعيفة ، والموضوعة.

يقول شيخ الإسلام عن منهج أهل البدع في الاستدلال ، واتباعهم لما تهواه أنفسهم دون مراعاة لصحة الاستدلال : " ومن ذلك أن أحدهم يحتج بكل ما يجده من الأدلة السمعية ، وإن كان ضعيف المتن والدلالة ، ويدع ما هو أقوى منه وأبين "[4]، ومن ذلك استدلال ابن جرجيس بحديث : " لا يزالون من كذابهم مسيلمة في فتنة إلى يوم القيامة " ، وقال عنه " حديث صحيح "[5]، والحديث موضوع ليس له ذكر في دواوين السنة[6] .

يقول الشيخ صالح آل الشيخ : " وفي كتابه – المالكي - من التدليل لشبهه المتهافتة بالأحاديث الموضوعة ، والواهية ، والمنكرة ، والباطلة ، والضعيفة جدا ، والضعيفة شيء كثير ،

---

[1] الصلح (46) .
[2] المنهاج (375) .
[3] ?فتح المنان (ص446) .
[4] العقيدة الصفدية لابن تيمية (1/294) .
[5] الصلح (151) .
[6] انظر في الرد على هذه المقولة : مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (4/264) .

وكثير منها يستدل به بتعسف مع وهاء الدليل وضعفه ، والقوم لهم ولع بالمكذوبات الواهيات ، وإعراض عن الصحاح العاليات الغاليات . وليس هذا جديدا ، بل شأن كل من نهج غير سبيل السلف ، واتباعهم حب البدع ، وإغلاؤها ، حتى صار وضع الحديث عند طائفة من أولئك والكذب على رسول سهلا خفيفا"[1].

2- الاستدلال بالروايات الباطلة ، وما في معناها من الحكايات والمنامات والأشعار، وهي لا قيمة لها عند علماء الملة ، وإنما تروج بضاعتها في سوق العوام ، قال الألوسي : " فالمقصود أن القصة التي رواها العراقي ناقلا لها عن ابن الجوزي لا ثبوت لها إلا في كتب القصص والمواعظ ، وهي لا يعتمد عليها"[2].

ويقول الشيخ أبا بطين في تعليقه على استدلاله بجواز الاستغاثة بغير الله ، بأن شعار الصحابة في الحروب كان "يا محمد" : " فهذه وأشباهها هي حجة هذا المبطل وشيعته ، وهذه التواريخ وأشباهها فيها الصدق والكذب ، وأكثرها تحكى بغير إسناد ، ولو كان ما ذكر في هذه التواريخ ونحوها حديثا عن النبي بغير سند متصل صحيح لم يحكم به في فلس ، ولكن صاحب الباطل يروج على الناس ويلبس عليهم بكل ما يقدر عليه ، ولولا اتباع الهوى ما عارض بحكاية عن أعرابي، أو عن تاريخ لا يعرف غثه من سمينه ، مع أنه ليس له فيما يحكيه حجة على باطله ... ومع ذلك يعارض به نصوص القرآن كقوله تعالى: (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّه)(يونس: من الآية106)"[3].

3- جعل قول إمام من الأئمة هو الحكم ، ويرد كل ما يخالفه ، حتى ولو كان هذ1 المردود هو ما اقتضته أدلة الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، بحجة أن هذا العالم نقله فلا يتصور مخالفته للكتاب والسنة بحال ، يقول مدافعا عن احتجاجه ببعض الحكايات التي ذكرها عن ابن الجوزي : " فلو كان هذا ممنوعا لما جهله هذا الكامل ، وعلمه غيره ممن هو دونه "[4].

ويقول : " فلو كان نداء الأموات والطلب منهم للشفاعة محذورا لم يستحسنها العلماء المتقدمون ، ولا يستحسن نقلها في كتاب "[5].

---

[1] هذه مفاهيمنا ص 6 .
[2] فتح المنان ص 367 .
[3] تأسيس التقديس (110) .
[4] الصلح (59) .
[5] الصلح (54) .

ويعيب على الشيخ محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله-تركه التقليد ، ويقول: " فكيف يخفى هذا على نقلة الدين ، وأئمة المسلمين ، ويظهر لك يا أعمى العين"[1].

وابن جرجيس يظن أنه إذا قال : " قال فلان " سيؤخذ قوله بالتسليم ، وليته يقف عند زلات فلان وحده ، أو ينتهي إلى ما انتهى إليه ، فعندما ينقل قول البغوي مثلا في تعريف الوسيلة لم ينته إلى ما انتهى إليه البغوي ، بل جعل كلام البغوي – رحمه الله – مدخلا ، وزاد عليه ابتداعا وضلالا[2].

4- اعتماد أعمال جمهور الناس ، والاستدلال بالكثرة : وهذا مما عمت به البلوى حتى ظن بعضهم أن التوسل والاستغاثة بالمقبورين هو السنة المأثورة والعمل الصالح الذي يرجى قبوله .

والمتأمل لكتابه يجد أغلب حججه : أن المسلمين في جميع الأقطار يفعلون ذلك ، فيقول مثلا : " فلو كان مخرجا من الملة لما كان المسلمون إلا قليلين بل أقل من كل قليل "[3].

وإذا كان يستدل بالكثرة على الحق ، فالقلة تدل عنده على الباطل ، وهذا مخالفة صريحة للقرآن ، وهو بهذا يقلب الحقيقة ويعكس القضية فيما ورد من الترغيب في اتباع جماعة المسلمين والترهيب من مفارقة الجماعة ، فالجماعة بزعمه ومقتضى جهله هم الأكثرون في العدد في كل عصر ، يقول : " فكيف والحال أن القائل أن هذه الأشياء شرك مخرج عن الملة واحد ليس في العير ولا في النفير، والقائلون بخلافه ألوف ، بأي وجه يترك الألوف ويأخذ بقول واحد متأخر في حثالة القرون؟!"[4]، ويقول : " فكل هؤلاء العلماء غفلوا عن هذه الأشياء الشركية ، وجاء رجل متأخر عنهم تنبه لها، وعرفها، وجهلوها؟! فإن كان الأمر كذلك فلا خير في شيء يجهله هؤلاء الخلق الكثير، ويعلمه من ليس في العير ولا في النفير"[5].

5 - تتبع الشاذ من الأقوال والأفعال : وديدن ابن جرجيس تتبع الشاذ من الأقوال ، قال الحسن البصري –رحمه الله-: " شرار عباد الله ينتقون شواذ المسائل يعمون بها عباد الله "[6]، فعندما نقل أقوال أئمة المذاهب تعمد الأقوال الشاذة ، ونقلها ثم

---

[1] الصلح (50) .
[2] المنهاج (379) .
[3] الصلح (39) .
[4] الصلح (ص 9) .
[5] الصلح (60) .

عممها وذكر الإجماع عليها ، فعندما رجع إلى كتب المالكية ليبين أنهم يجيزون الاستغاثة بغير الله ، لم يجد ما يريد ، فعمد إلى كتاب "مصباح الظلام في المستغيثن بخير الأنام" ، ومعلوم أن هذا الكتاب من شواذ الكتب ، فنقل عنه ابن جرجيس ، وجعله من عمدة كتبهم حيث يقول : " واعلم أنا اقتصرنا على من ذكرنا من المالكية ؛ لأنهم هم العمدة في مذهب الإمام مالك، وجميع المالكية مطبقون على هذا، فلا يعلم فيهم من يخالف، فإن شككت فانظر في كتبهم"[1]، وقال عن هذا الكتاب : " وهو كتاب نفيس نحو عشرين كراسا"[2]، وقد عاب ابن تيمية على البكري رجوعه إلى هذا الكتاب ، حيث قال: " والشيخ محمد بن النعمان كان له كتاب " المستغيثين بالنبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة والمنام " ، وهذا الرجل[3] قد نقل منه فيما يغلب على ظني ، وهؤلاء لهم صلاح ودين ، لكنهم ليسوا من أهل العلم العالمين بمدارك الأحكام الذين يؤخذ بقولهم في شرائع الإسلام ، ومعرفة الحلال والحرام ، وليس معهم دليل شرعي ولا نقل عن عالم مرضي"[4]

ومن ذلك تسقط زلات العلماء، والاستدلال بها على خلاف ما عرف عنهم ، مثل فرحه بالحكاية التي نقلها عن ابن القيم ، وفيها الدعاء عند قبر الرسول ﷺ والشكاية له[5].

ويتبع ذلك الاستدلال بزلات العلماء، كقول بشر الحافي – رحمه الله- : " من كانت له حاجة فليأت قبره "[6] ، وقول ابن الجوزي : " وقبره ظاهر يتبرك به في بغداد "[7].

6- الاستدلال بشرع من قبلنا ، حيث يقول : " وذكر المفسرون أن استفتاحهم به – يعني اليهود، قبل ظهوره للوجود- هو قولهم : " اللهم بحرمة هذا النبي الذي يكون آخر الزمان انصرنا وافتح لنا " ، فينصرون ويفتح لهم ، ورأيت في بعض حواشي البيضاوي نقلا من السعد التفتازاني ، قال: والأظهر

---

[6] المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص 230) . وانظر : الفقيه والمتفقه للبغدادي (1/11).
[1] الصلح (92) .
[2] الصلح (91) .
[3] يعني البكري .
[4] الرد على البكري (1/368-369) .
[5] الصلح (ص 28 – 29) ، وانظر : (ص458) من هذا البحث .
[6] يعني : معروف الكرخي – رحمه الله - .
[7] الصلح (58) ، وانظر : فتح المنان (370) .

أنهم كانوا يطلبون الفتح من الله متوسلين بذكره ويجعلون أسمه شفيعا"[1].

قال الشيخ عبداللطيف : " فليس فيه تشريع لنا وأمر أن نفعل ما فعلت اليهود مما زعمه العراقي"[2].

7- استخدام الأقيسة الفاسدة :

* ومن ذلك أنه يستدل بما أعطى الله بعض عباده من جاه وكرامة ، على جواز الطلب منه ، فمثلا يستدل بثبوت الكرامة على جواز سؤال الولي والتوسل به ، وبثبوت الشفاعة على جواز طلبها ممن أعطاه الله إياها، وبثبوت الجاه على جواز سؤال الله به ، وهكذا[3].

* ومن ذلك أنه يقيس حياة البرزخ على حياة الدنيا ، وعالم الغيب على عالم الشهادة ، وهو قياس باطل عند علماء أصول الشرع ، وعند جميع العقلاء.

ويرتب على هذه الأقيسة عقائد وأحكام تعبدية لا تثبت إلا بنص الشارع ، مع أنه يزعم أنه مقلدا ليس من أهل الاجتهاد .

* ومن ذلك قياس التوسل بالأعمال على التوسل بالذوات ، حيث قال : " وإذا جاز التوسل بالأعمال كما صح في حديث الغار وهي مخلوقة فالسؤال به أولى ولا فرق "[4].

8- الاستدلال بالأعراف وما عليه العوام في العبادات : يقول ابن جرجيس: "والذي تحقق عندنا من السؤال للعوام الناذرين ، إذا قلنا لمن هذا النذر؟ يقولون: لله ، وثوابه لذلك الشيخ المنذور له –الميت- ، ولم نطلع على من يقول هو للميت نفسه من غير وجه الله ، ومع نيتهم للميت يكون حراما ولم يقولوا أنه يكفر بالاتفاق والله أعلم بحقيقة الحال "[5].

قال الشيخ أبو بطين في معرض الرد عليه : " كذا قوله : " ولا عرفا " خطأ، لأن العرف لا مدخل له في العبادات "[6] .

9- التخبط في الاستدلال : وهكذا صاحب الهوى ، يبحث عما يوافق هواه ، فابن جرجيس يستدل بأقوال الخلوف وأفعالهم تارة ، وتارة يستدل بالأسباب ويجعل السبب دليلا ، ويستدل

---

[1] ?الصلح (47) .
[2] المنهاج (303) .
[3] الصلح (48) .
[4] الصلح (ص 98) .
[5] الصلح (ص 105) .
[6] تأسيس التقديس (54) .

بفضائل الأمكنة على فضل كل ما يقع فيها ، وتارة يستدل بفضل الشخص على تصحيح كل ما يقع منه ، وأحيانا كثيرة يستدل بالرؤى والمنامات وخوارق العادات ، أي أمر وافق هواه استدل به ، حتى أدى به اتباع الهوى إلى الاستدلال بفعل الكفار ، حيث يقول : " فالروم يزورون قبره ويستسقون به إذا قحطوا "[1]، واستدل كذلك بفعلهم مع جريج العابد ، حيث قال : " فأقبلوا يقبلونه ، ويتمسحون به "[2].

المطلب الثاني : منهجه في تقرير التوحيد

يتبين منهجه في تقرير التوحيد من خلال المسائل التالية :

*** موقفه من توحيد الربوبية**

1- زعمه أن توحيد الربوبية هو الغاية ، حيث يقول : " ولهذا أخذ الله على جميع خلقه العهد والميثاق في عالم الذر ، قال لهم : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا)(لأعراف: من الآية 172) ، فكان أخذ العهد بالإقرار بالربوبية ، ثم من ظهر في عالم الدنيا وكان ثابتا على ذلك العهد كان مؤمنا ، ومن نقض كان كافرا "[3].

2- استدلاله على إثباته بدليل التمانع الذي استدل به أهل الكلام ، حيث يقول : "ويدل على أن الإله هو الرب الآيات الدالة على التمانع ، وهو (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) (الانبياء:22) .

أي : لو كان في السموات والأرض أرباب غير الله لفسدتا ، لأن كل رب يريد ما لا يريد الآخر "[4].

3- اعتقاده أن كفار قريش كانوا يشركون بالربوبية ، ويقول في ذلك : " اعلم أن الكفار والمشركين كانوا مشركين بالله أصنامهم في الربوبية والعبادة "[5].

ويقول : " من قال إن الكفار كانوا يوحدون الله توحيد الربوبية أخذا من ظاهر بعض الآيات فقد أخطأ وما أصاب "[6]، ويستدل على ذلك بقوله : " وأدل دليل على أن شرك الكفار

---

[1] الصلح (56) .
[2] الصلح (79) .
[3] الصلح (125).
[4] الصلح (128).
[5] الصلح (124).
[6] الصلح (124) .

في الربوبية ، أن الميت في قبره يسأل عن الربوبية، فيقول الملكان : من ربك ؟ والكافر يقول : لا أدري "[1].

*** موقفه من توحيد الألوهية**

1- الخلل في تعريف العبادة ، حيث يقول : " العبادة عبارة عن الانقياد والطاعة بأنواع ما يتقرب به العابدون كالسجود والركوع والذبح تقربا لذات المذبوح له من غير ما يأمر الله به ورسوله كالأصنام مثلا ، وأما الطاعة والانقياد من غير الركوع والسجود لغير الله تعالى من الأنبياء والعلماء في غير معصية الله فليس من العبادة "[2].

فهذه القيود التي وضعها لتعريف العبادة ، الغرض منها إخراج ما يفعله القبوريون من صرف أنواع العبادة لغير الله ؛ لأنهم –كما يزعم- لا يتقربون لذات الأولياء ، وإنما يتقربون لهم على أنهم أسبابا ، فلا يسمى فعلهم شركا .

ويقول مؤكدا حصر العبادة بما ورد في حديث جبريل : " لأن النبي علمنا العبادة التي لله وهي الدين كما في حديث جبريل .."[3]، وأنكر ما سوى ذلك ، وقال : " أين الدليل من كلام الله وكلام رسوله أن من نادى أحدا ، وطلب منه الشفاعة فقد كفر، ولا بد من دليل خاص بهذه الصورة"[4].

ويقول : " أما التوسل والنداء فليس من العبادة عند جميع المسلمين "[5].

2- الخلل في تعريف الشرك ، وزعمه أن الشرك لا يكون إلا في الربوبية ، ويقول في ذلك : " فالمشرك لا بد أن يشرك بالربوبية ، ولا يعبدالله ، ويعبد تلك الأرباب الباطلة "[6].

3- زعمه عدم وقوع الشرك في الأمة واستدلاله بقول النبي : " إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون .." ، وبناء على ذلك حمل الأحاديث التي فيها الإخبار عن وقوع الشرك بأنه لا يكون إلا قبيل قيام الساعة ، حيث يقول : " فانظر إلى عبادة الأوثان متى تكون ، بعد الدجال وحكم عيسى ، وبعد أن لا يبق على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان "[7].

---

[1] الصلح (130).
[2] الصلح (131) .
[3] الصلح (144) .
[4] الصلح (131) .
[5] الصلح (143) .
[6] الصلح (127) .
[7] الصلح (143) .

*** عدم التفريق بين نوعي التوحيد**

فابن جرجيس ينكر التفريق بين نوعي ، ويزعم أن معنى كلمة الرب هو معنى كلمة الإله، حيث يقول : " والرب والإله معناهما واحد ، ومفادهما واحد"[1].

ويستدل على ذلك بقوله : " الدليل على هذا : أن كلمة " لا إله إلا الله " هو توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، ولو كان توحيد الألوهية كما يقولون لاقتضى أن لتوحيد الربوبية كلمة أخرى غير هذه ولا قائل بذلك "[2].

كما أنه يعيب على الشيخ محمد بن عبد الوهاب هذا التفريق ويسميه جهلا ، حيث يقول : " وبسبب جهله هذا عادى التوحيد وأهله "[3].

المطلب الثالث : المآخذ المنهجية والعلمية ، والعقدية على الكتاب إجمالا.

ابن جرجيس اجتمعت فيه صفات ، الواحدة منها تخرجه عن مسمى أهل العلم ، فكيف إذا اجتمعت ؟! ولو ذهبنا نتتبع ما في كلامه من الركاكة والتناقض والعيب لاحتمل مجلدا [4]، ولكن سأذكر بعض المآخذ على هذا الكتاب إجمالا ، ومن ذلك :

أولا : الجهل

وكثيرا ما يكرر الشيخ في رده عليه : " بل هو في ظلمات الطبع والجهل والشرك المبين"[5]، ومن مظاهر جهله :

* جهله بالأدلة والاستدلالات : حيث يستدل على مشروعية الأمر بوقوعه ، ومشروعية السبب بتحققه ، وإذا ورد دليل في فضل زمان أو مكان جعل كل ما يقع فيه صوابا ، فعندما استدل بقصة العتبي ، قال : "وقد استحسن ذلك كافة أهل العلم وذكروها في المناسك في بحث الزيارة ، واستحبوا ذلك

---

1 الصلح : (124 ، 127 ، 128) .
2 الصلح (127-128).
3 انظر في تفصيل ذلك : المسألة الأولى من الفصل الثالث .
4 تأسيس التقديس لأبي بطين (40) .
5 المنهاج (ص 215، 217) .

، وكيف لا يثبت الاستحباب بهذه الحكاية وهي واقعة في خير القرون ولم تنكر؟!"[1].

* جهله بمسألة النزاع : فيذكر أمورا من الشرك الأكبر كالاستغاثة بالأموات والطلب منهم ، ويستدل عليها بمسائل يسع فيها الخلاف من وسائل الشرك ، ويزعم أن هذا من هذا ، مثل استدلاله على جواز الاستغاثة والتوسل بالأنبياء والصالحين والنذر لهم بقول السبكي والقسطلاني : " والاستغاثة به وبغيره في معنى التوسل إلى الله بجاهه ووسيلته"[2].

ومن ذلك زعمه أن سبب إحراق كتاب " دلائل الخيرات "؛ لأن فيه قوله اللهم صل على سيدنا محمد[3].

* جهله بالرجال : فمثلا يقول ويكرر : " قال ابن قدامة تلميذ الشيخ ابن تيمية في كتاب " مغني ذوي الأفهام " "[4]، ومعلوم أن صاحب مغني ذوي الأفهام ليس ابن عبد الهادي ابن قدامة تلميذ ابن تيمية صاحب "الصارم المنكي"[5].

* عدم تفريقه بين عبارات أهل العلم : يقول الشيخ عبداللطيف.." وقول المعترض إن الشيخ قال : " لا يثبت الكفر على معين " ، تحريف ظاهر ، وإنما قال الشيخ : لا يحكم على معين . والفرق ظاهر"[6].

* جهله بالمصطلحات الشرعية : فقد شنع على ابن تيمية قوله : " والقول بانعقاد اليمين بالنبي شاذ لم يقل أحد به فيها نعلم " ، فقال ابن جرجيس : "وقول الشيخ – رحمه الله – أن القول بانعقاد اليمين به شاذ ، مما لا ينبغي في حق الإمام أحمد ، كيف يكون شاذا وقد قاله : إمام السنة وقامع البدعة الصديق الثاني ، فلو كان وحده لكفى بقوله سندا"[7]، وقد رد عليه الشيخ عبداللطيف حيث، قال : "والرواية عن الإمام أحمد ذكر الشيخ أنها شاذة لا توافق أصوله وقواعده وما تواتر عنه ، وهذ1 معنى الشذوذ "[8].

---

[1] الصلح (18) .
[2] المنهاج (ص 321) ، وانظر : (ص 217 – ص 221 – 303) .
[3] المنهاج (ص 315) .
[4] الصلح (89) .
[5] انظر : (ص586 ، 590) من هذا البحث .
[6] ? المنهاج (ص 228) .
[7] الصلح (40) .
[8] المنهاج (ص 303 – 304) ، وانظر : (ص 584) من هذا البحث .

* جهله بمصطلحات أهل الكلام ، فلا يفرق بين العرض والجوهر ، حيث يقول: " فجعل الغيث هو فاعل الإغاثة مع أنه عرض "[1].

فهل يحق لمن لا يفرق بين العرض والجوهر أن يتكلم بموارد النصوص وأدلة أهل العلم .

* أنه ينقل أحيانا ما يرد عليه ، قال : " قال ابن عبد الوهاب في مختصره: ولو قال " لعمري أو لعمرك " فليس بيمين على قول الأكثر، وقال الحسن في قوله : "لعمري" كفارة ، ثم عقب ابن جرجيس، وقال : " ومعلوم أن لعمري أو لعمرك قسم بغير الله بلا نزاع ".

فأراد الاستدلال بهذا النص على أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله- لا يوجب الكفارة بالقسم بغير الله ، وذهل عن أن العبارة ترد عليه .

يقول الشيخ عبداللطيف : " وإذا كان الشيخ جزم أنه غير يمين ، كيف يقول هذا الجاهل ومعلوم أن " لعمري أو لعمرك " قسم بلا نزاع ؟ "[2]

* ضعف إلزاماته : فإما أنها لا تطرد ، أو يصح عكسها ، أو تبطل عقيدته وتنقلب عليه . كما أنه يلزم بما لا يلزم ، مثل قوله : " إن من أقر بالكرامة للصالحين لم يجد بدا من اعترافه بجواز التوسل بهم "[3].

و قوله : " إذا أثبتم القدرة أثبتم أن العبد خالق فعل نفسه " ، والفرق بين القدرة والخلق جلي واضح[4].

ثانيا : التناقض

وهكذا أهل البدع ؛ لأنهم يتبعون أهوائهم فيتناقض كلامهم ، ويدل على ذلك سبب تأليفه لكتاب " صلح الإخوان " ، ففي أول الكتاب زعم أنه لم يؤلفه ليستدل لعباد القبور ، ولا ليبين صحة ما هم عليه ، بل ألفه حتى لا يأثم غيرهم بتكفيرهم وليبين أنهم يعذورون إما بالجهل أو بالتأويل أو غير ذلك ، وفي أثناء الكتاب يردد أنهم يثابون إن كان لهم حسن قصد ، ثم في آخر الكتاب ذكر أدلة الجواز ، بل والاستحباب ، ورد على المانعين ، فهل بعد هذا تناقض؟

---

[1] الصلح (46) .
[2] المنهاج (308 – 309) .
[3] الصلح (44) .
[4] المنهاج (369) .

ومن الأمثلة الدالة على تناقضه :

* لم يثبت على قوله بالتماس العذر للمسلمين وعدم تكفيرهم ، بل كفر من لم يكن على عقيدة أصحاب القبور ، ووقع بما يعيب فيه المخالف ، حيث كفر "من جزم بالقول بالقطع للسكين"[1].

* ومن تناقضه قـوله : " فكيف يكفر من نذر لأحد الأنبياء وقصده لوجه الله ؟"

قال الشيخ عبداللطيف : " إضافته النذر لأحد الأنبياء ، وقوله بعده : وقصده لوجه الله ، فإذا كان النذر نفسه للأنبياء والصالحين بطل قوله " وقصده لوجه الله" ، وإنما يكون ذلك نذرا لله وحده وجعل الثواب لمن شاء من عباده ، ومسألة إهداء ثواب القرب إلى الأنبياء لا يخفى ما فيها من القول بالمنع على من له أدنى ممارسة ، والقصد هنا بيان تناقض العراقي ، وأن كلامه يدفع بعضه بعضا "[2].

* ومن مظاهر تناقضه أنه ياتي بأمر يقرره في البداية ثم ينقضه في آخر كلامه مثل قوله عن آدم – عليه السلام - : " بل ورد إطلاق الشرك في حق سيدنا آدم عليه السلام الذي هو نبي معصوم"[3] ، كيف يكون معصوما ويقع في الشرك؟!

* ومن ذلك زعمه إرادة الصلح بين الفريقين ، وسماهم أهل الإيمان ، ثم يلزم المخالف بما معه ، فإن التزم وإلا كفره ودعا عليه ، حيث يقول : " بل الواجب عليك أيها الواقف عليه أن تسبره من أوله إلى آخره ، وبعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"[4]، وقال : " فأهل الأوثان إخوانهم ، وأحبابهم ، حشرهم الله معهم ، آمين "[5].

* تناقضه في الأخذ بالتقليد : ففي موضع يتبرأ من الاجتهاد ويوجب التقليد ويثني على العلماء الأئمة ، وفي موضع آخر ينقض هذا الأصل ويقول : " لو فرضنا أن عبارة الإقناع كما قلتم فيها ، وذكرها ابن تيمية والحنابلة كلهم من أولهم إلى آخرهم ، ولم ينقلها بقية المذاهب ولا العلماء من غيرهم ، لا يلزم أحدا الأخذ بهذا القول وترك بقية المذاهب"[6].

---

[1] الصلح (43) ، وانظر : المنهاج (338) .
[2] المنهاج ص 238
[3] الصلح (42) .
[4] الصلح (4) .
[5] الصلح (131) .
[6] الصلح (ص 148) .

ثالثا : عدم ثقته في منهجه

ومما يبين عدم ثقته في منهجه سبب تأليف الكتاب ، فالعالم إما أن يرغب في فعل ما عليه العامة إن كان يثق أنه صوابا ، ويذكر الأدلة التي تؤيد ما هم عليه ، أو يبين أنهم على خطأ إذا علم مخالفتهم للصواب ، ويذكر أسباب وقوعهم في الخطأ ، وأنهم تركوا الصواب أو الأفضل ، بحسب ما وقعوا فيه من خطأ ، ثم يذكر أدلة الأفضل ويحث عليه ، وكل هذا لم يفعله ابن جرجيس ، بل زعم في بداية الكتاب : " أنه ليس المطلوب من هذا عمل الناس وترغيبهم على هذه الأفعال ، بل المطلوب عدم التعرض لمن يفعلها لا بتكفير ولا بتأثيم ولا بتشريك، فإن لهم أدلة وحججا يعذرهم الله فيها"[1]، فمن يقرأ هذه المقدمة يتوقع أنه يرى خطأ ما هم عليه ، ولكنه يعذرهم بالجهل أو بغيره ، ولكن الحقيقة غير ذلك فالكتاب دعوة صريحة لما عليه العامة ، ومن قرأ مسميات الفصول وإن لم يقرأ الكتاب علم ذلك ، فهل فعله هذا يدل على الدعوة لما عليه العامة كما هو واقع الكتاب ، أو بيان أنهم يعذورون كما يزعم ؟

وإن كان يرى أن فعل العامة هو الصواب فلم لم يقل في أول الكتاب أن هذا هو الحق ولا حق غيره ؟ فهذا من الأدلة على عدم ثقته في منهجه ، يقول الشيخ ابن سحمان – رحمه الله – في إلزام من دافع عن العامة وشنع على مكفرهم : " وإذا كان ذلك كذلك فلا يخلو أمر هؤلاء الجهمية والأباضية والمرتدين من عباد القبور من إحدى ثلاثة أمور :

إما أن يكونوا قد دعوتموهم...فرجعوا عن ضلالتهم ، والتزموا بما كان عليه أهل السنة والجماعة ، وحينئذ يكون المعادي لهم والمعترض عليكم وعليهم مخطأ ظالما متعديا .

وإما أن يكونوا لم يقبلوا ما دعوتموهم إليه من الهدى ..بل كابروا ، وعاندوا ، فتكون الحجة قد قامت عليهم ، وحينئذ فلا مانع من تكفيرهم ..

وإما أن يكونوا لم تدعوهم أنتم ، ولم تناصحوهم ، فتكونوا أنتم حينئذ من أنصارهم ، وأعوانهم ، ..وجعلتم أنفسكم دونهم هدفا ..أفلا تتقون يوما ترجعون فيه إلى الله ؟ "[2].

رابعا : الظلم

---

[1] الصلح (4-5) .
[2] كشف الشبهتين لابن سحمان (55-56) .

وظلم ابن جرجيس له عدة مظاهر منها:

* ظلم من ينقل عنه ، وذلك بتقويله ما لم يقل ، وقد قال في مقدمة كتابه : " إن فهم كلام الشخص على خلاف مطلوبه ظلم "[1]، وهذا ما فعله هو في أكثر نقوله عن ابن تيمية ، وابن القيم ، والبغوي –رحمهم الله-، وغيرهم ، ولم يكتفي بذلك، بل حرف نصوص العلماء وجعل العهدة عليهم فيما حرف وبرأ نفسه ، حيث قال : " وأن ليس لي فيه إلا الجمع .. فالعهدة عليهم ، والناقل ليس عليه إلا التصحيح "[2].

* ظلم من جعله خصما ، وهو الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه ، بإلزامه ما لا يلزم ، أو تقويله ما لم يقل ، مثل دعواه أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب يكفر بالعموم ، يقول الشيخ عبداللطيف بعد أن نقل بعض النصوص عن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بعدم التكفير بالعموم : "وإذا كان هذا كلام شيخنا وهذه طريقته فكيف يلزمه ابن جرجيس وينسب إليه التكفير بالعموم ، ويحتج عليه بقول الشيخ[3]: إن أهل الفترات ومن لم تبلغهم الدعوة يغفر لهم ما لا يغفر لغيرهم ؟ والعراقي لبس الحق بالباطل ، وافترى على الشيخ ، ونسب إليه ما ليس من مذهبه ، وما لم يقل به ، وألزمه ما هو بريء منه ، ثم أخذ في رد ما افتراه ، وبهت الشيخ به "[4].

ويقول عن الوهابية – كما يزعم - : " ولكن هؤلاء الناس وما شابههم من هذه الأجناس يسيئون الظن بجميع علماء المسلمين ما عدا بعض جماعتهم ، ويعتقدون أن العلماء المخالفين لهواهم الناطقين بالحق في جميع أقطار الأرض كلهم متواطئون على الكفر والشرك والعياذ بالله ، سواء كانوا من المتقدمين أو من المتأخرين ، من المصنفين وغيرهم ... "[5].

ولم يأت بأمثلة لإساءة هؤلاء الناس الظن بجميع العلماء؟ .

* ومن مظاهر ظلمه كيل الثناء والمدح على من كان على منهجه ومسلكه في الابتداع واتباع الهوى ، ولم تسمح نفسه بالإقرار للأئمة الأعلام كابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب –رحمهم الله- بمثل هذا المدح ، بل يصف شيخ الإسلام وابن

---

[1] الصلح (3) .
[2] الصلح (4) .
[3] يقصد : ابن تيمية .
[4] المنهاج (222) .
[5] الصلح (9) .

القيم أنهما من أوسط طبقات العلماء ، ويصف الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه دجال[1].

* ومن مظاهر ظلمه : أنه يذم أهل بلد أو قطر بما كان فيه من الكفر ، فمثلا يذم أهل نجد لأن نجد قرن الشيطان ، وبني تميم ؛ لأن ذا الخويصرة التميمي منهم ، وأهل اليمامة لأن مسليمة الكذاب منهم ، وهكذا .

قال الشيخ السهسواني : " ومن عاب الساكن بالسكنى والإقامة ، فقد عاب عموم الأمة وسبهم وآذاهم بغير ما اكتسبوا وهذا من أعظم الظلم والحيف"[2].

* وكذلك نقله كلام خصوم ابن تيمية في تنقصه على سبيل الإقرار ، حيث نقل عن السبكي قوله : " حتى جاء ابن تيمية فأنكر ذلك وعدل عن الصراط المستقيم ، وابتدع ما لم يقله عالم قبله وصار بين الأنام مثلة "[3]، وقول ابن حجر المكي : " من خرافات ابن تيمية التي لم يقلها عالم قبله فصار بها بين الأنام مثلة ، أنه أنكر الاستغاثة والتوسل به وليس كما افترى بل التوسل به حسن في كل حال.. "[4]، نقل هذا القول رغم أنه يزعم أن ابن تيمية بريء مما نسب له ، فإن كان يعتقد ذلك فعلا فهذا أعظم الظلم ، وإن لم يكن يعتقد ذلك فهذا من أعظم الكذب ، ولا محيد له عن أحدهما .

ونقله عن أعداء الشيخ محمد بن عبد الوهاب خلاف ما عرفه القاصي والداني عنه –رحمه الله- وهذا ليس من العدل ، حيث يقول : " رأيت في كتب متعددة عن بعض المتأخرين أنه أحرق دلائل الخيرات ..." ، قال الشيخ عبداللطيف : " لولا الجهل والهوى واختيار الضلال على الهدى لما نقلت كلام خصوم الشيخ المجاهرين له بالعداوة والمصرحين له بالمسبة ، ولما أقدمت على مافيها بغير هدى ولا برهان"[5].

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا في مقدمته لكتاب " صيانة الإنسان" : " وإذا فرضنا أن الشيخ أحمد دحلان لم يرى شيئا من تلك الكتب والرسائل ، ولم يسمع بخبر عن تلك المناظرات والدلائل ، وأن كل ما كتبه في رسالته قد سمعه من الناس وصدقه ، أفلم يكن من الواجب عليه أن يتثبت فيه ،

---

[1] الصلح (118) .
[2] صيانة الإنسان (507) .
[3] الصلح (97) .
[4] الصلح (99) .
[5] المنهاج (314) .

ويبحث ويسأل عن كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب ورسائله ويجعل رده عليها ؟ ويقول في الأخبار اللسانية قال لنا فلان ، أو قيل عنه كذا فإن صح فحكمه كذا "[1].

* ومن ظلمه مع المخالف : أنه لما ذكر ما سماه بشبه المانعين لم يذكر الدلائل القوية التي يستدلون بها ، يقول الألوسي : " وكأن الذي دعا هذا العراقي إلى هذا الافتراء والكذب ترويج زيفه على العوام ، إذ لو ذكر دلائلهم القوية وبراهينهم القطعية ، لانكشف الغبار وتميز الليل من النهار"[2].

خامسا : التكرار

وكل من رد عليه من الأئمة – رحمهم الله – ذكر أنه يكثر تسويد القرطاس ليلبس على العوام ، ويوهم الجهال أنه قد قرر الصواب ، ومن ذلك :

* أنه يكرر الأدلة ، ويكرر وجه الاستدلال ، ويكرر النقول ، وقد كرر قصة الرجل الذي أمر أهله بإحراقه أكثر من عشرين مرة ، ليبين أن الجاهل معذور.

ولذلك كان الشيخ عبداللطيف – رحمه الله – كثيرا ما يقول : "وقد تقدم في أول الجواب ما فيه كفاية ، وإنما كررنا الجواب لتكرير الشبهة "[3] ، ويقول أيضا : " قد أكثر هذا العراقي من التشبيه بعدم تكفير المخطيء وعدم تأثيمه ، وقد مر الجواب عن هذه الشبهة ما فيه كفاية ، وأكثر كلامه تكرير وإسهاب ، يوهم الجهال به أنه قد قرر الصواب.."[4].

أما تكرير النقول عن ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - ، فالنقل الثامن والأربعون هو النقل الثالث والعشرون ، والنقل الثالث والأربعون هو نفس النقل الحادي والأربعون ، وهكذا.

لسادسا : التعميم بما لا عموم فيه

يقول العلماء : " اللفظ العام لا يتناول إلا ما كان من أفراده "[5] ، أما ابن جرجيس فيستدل باللفظ العام على مالا يتناول فرد من أفراده ، وذلك في مثل استدلاله بأن المجيء للميت مثل المجيء للحي ، مع أن المجيء إلى قبر الرجل ليس من أفراد المجيء إلى الرجل لا لغة ولا شرعا ولا عرفا.

---

[1] صيانة الإنسان (9) .
[2] فتح المنان (331) .
[3] انظر منهاج التأسيس ص 218 .
[4] المرجع السابق ص 214.
[5] صيانة الإنسان (24) .

ومن قوله بالعموم : " وأما الحلف بغير الله تعالى فقد حكم بعض المبتدعة أنه من الشرك المخرج عن ملة الإسلام مطلقا "[1] ، ومن القائل بأن الحلف مخرج عن الملة مطلقا ؟!

ويقول مثلا في معرض كلامه عن شيخ الإسلام : "وتحاشى عن تكفير أهل البدع العظام القائلين بنفي قدرة الله أو عدم البعث " ، ومعلوم موقف شيخ الإسلام من القائلين بنفي قدرة الله أو عدم البعث .

ويقول عن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - : " أنهما لا يحكمان على أحد بالشرك أو الكفر إلا ومرادهما الأصغر ممن يعتقد الشهادتين"[2].

وقال أيضا " فكيف يكفر من نذر لأحد الأنبياء والصالحين، وقصده لوجه الله، وثوابه لذلك المنذور له ، فإنه لا يضر بهذه بالاتفاق كما سيأتي في كلام الشيخين ". فمن الذي اتفق على أنه لا يضر؟.

ويقول أيضا : " فما جاز طلبه في حياته لا مانع من طلبه بعد موته ، مع أنه قد ورد عن الصحابة الطلب منه بعد وفاته كما في حديث عام الرمادة وغيره ولم يرد نهي " ، فكيف يعمم بعدم ورود النهي ، مع أنه نقل أحاديث فيها النهي عن ذلك .

أيضا قوله : " وبالجملة فإطلاق لفظ الاستغاثة لمن يحصل منه غوث ولو تسببا وكسبا أمر معلوم ، لاشك فيه لغة ولا شرعا" ، قال الشيخ عبداللطيف : "من قال ذلك فقد كذب على سائر اللغات والأمم "[3].

ومن عجائب قوله بالتعميم قوله : " قال العلماء لو أفتى مائة عالم إلا واحد بكلمة كفر صريحة فجمع عليها وقال عالم واحد بخلاف أولئك يحكم بقول الواحد ويترك قول التسعة والتسعين حقنا لدماء المسلمين"[4].

سابعا : التلبيس

أي لبس الحق بالباطل ، واستخدام الأساليب والمصطلحات والألفاظ الموهمة للحق ، لإيهام الناس وخداعهم ، وللترويج لمقولات أهل البدع وعقائدهم ، ومن ذلك :

* تسميته لأهل البدع بأسماء أهل الحق ، كأهل التوحيد ، وأهل السنة والجماعة، والمؤمنين ، وأولياء الله ، قال تعالى: (وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)(البقرة:42)

---

[1] الصلح (109) .
[2] الصلح (43) .
[3] المنهاج (ص 342) .
[4] الصلح (9) .

* تسميته للأشياء بغير أسمائها اللغوية أو الشرعية ، واستعمال المصطلحات والألفاظ المجملة والمحتملة في غير معناها الأصلي ، وإغفال المعنى الشرعي المفهوم عند السلف ، يقول ابن جرجيس : " ومعلوم أن العبادة لغير الله لا تجوز بل يكفر فاعلها ولو كانت لنبي مرسل أو ملك مقرب ، وأما التوسل والنداء فليس من العبادة عند جميع المسلمين لا لغة ولا شرعا ولا عرفا ".

*حمله كلام أهل العلم على العرف الحادث ، حيث يقول : " ذكر ابن القيم في كتاب "الكبائر" الذبح لغير الله وجعله من المحرم ... والمستفاد من كلامهما أنه محرم وليس بشرك مخرج عن الملة"[1] .

قال الشيخ عبداللطيف في معرض الرد عليه : " وأما ما ذكره – ابن القيم – في كتاب الكبائر عن الذبح لغير الله وجعله من المحرم ، فنعم هو محرم ، قال تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الأنعام:151) ، فجعل هذا كله محرما ، هذا عرف القرآن والسنة والشرع ، والعراقي لجهله وسوء قصده يحمل كلام أهل العلم على العرف النبطي الحادث واصطلاح العامة ، فقاتل الله الجهل والهوى"[2].

* ومن مظاهر تلبيسه أنه يخلط في مسائل الخلاف ، فيجمع المسائل التي من الشرك الأكبر ، مع المسائل التي من الشرك الأصغر ، مع المحرم والمكروه ، ويجعل حكمها واحدا ، فيقول مثلا : " فإن النيات الفاسدة ، والتصنع للمخلوق ، وابتغاء القرب منه ، وطلب الجزاء ، بل والتذلل له والسجود له ، كالتعظيم للحكام وأهل الدنيا من أهل الأموال ، فإن هذا لا ينجو منه إلا المخلصون ، وقليل ما هم "[3]، فانظر كيف جمع النيات الفاسدة ، وابتغاء القرب من المخلوق مع السجود الذي هو من الشرك الأكبر ، ولا يجوز صرفه لغير الله .

* ومن مظاهر تلبيسه أنه يأتي بمسألة ثابتة فيقررها – وهي أصلا مستقرة- ثم يلحق بها أخرى لا تعلق لها بها ، فيزعم أن ثبوت الأولى دليل على ثبوت الثانية، وهذا من أعظم التلبيس ،

---

[1] الصلح (31) .
[2] المنهاج (245) .
[3] الصلح (39) .

فيقول مثلا إن الله تعالى لم ينكر طلب الدعاء من الرسول – وهذا ثابت في حياته - فألحق به جواز دعائه بعد موته ، وجعل المسألتين مسألة واحدة[1].

ومثله إثباته لكرامات الأولياء ، ثم رتب على ذلك جواز الاستشفاع بالأولياء لثبوت كرامتهم .

* ومن مظاهر تلبيسه قلب الحقائق وعكس القضايا ، مثل استدلاله بما ورد من الترغيب في اتباع الجماعة والترهيب من مفارقة جماعة المسلمين ، وزعمه أن الجماعة هم الأكثر عددا.

* التلاعب بالألفاظ : فإذا رأى اللفظ شنيعا استبدله بغيره ، فمثلا بدل أن يقول قبور الأنبياء والصالحين ، قال : " والنذر لله ومصرفه لأماكن الأنبياء والصالحين"[2]، ومن ذلك تسمية دعاء غير الله " نداء "، وهكذا.

ثامنا : تحريف كلام أهل العلم

وذلك إما بتحريف اللفظ وهذا هو الغالب ، أو تحريف المعنى مع بقاء اللفظ على ما هو عليه ، وصرف اللفظ عن ظاهره ، وما يفهمه كل عربي من معناه.

* فعندما ينقل الكلام يختصره ويغير ألفاظه ، ويحذف كل ما يخالف هواه ، وهذا مع أنه تحريف إلا أنه من أعظم الظلم والجهل والكذب على العلماء .

يقول في نقله السابع عشر من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية : " وصرح رحمه الله أن الكفر لا يثبت على معين " ، وشيخ الإسلام لم يصرح بهذه العبارة، وإنما قال : " فإن هؤلاء لا يكفرون حتى تقوم عليهم الحجة الرسالية"[3].

وأكبر دليل على عظيم تحريف ابن جرجيس ؛ أنه استخرج منهجا جديدا لشيخ الإسلام ابن تيمية يخالف كل كتبه ومؤلفاته ، ولا يمكن أن ينسجم مع معتقده – رحمه الله – مع أن ابن جرجيس يزعم أنه أتى بالنقول من كتبه .

وإذا كان ابن جرجيس يعتقد ما حرفه عن ابن تيمية فليس عنده كفر بحال من الأحوال.

* ومن مظاهر تحريفه : وضع الكلام في غير موضعه ، ففي النقل الثامن والثلاثين مثلا نقل كلاما لابن تيميه من " الفرقان

---

[1] المنهاج (376-377) .
[2] الصلح (13) .
[3] المنهاج (ص 220) .

" يدل على أن الولي غير معصوم، وأن الله يتجاوز عن الخطأ ، فجعله في أن الله يغفر الشرك الأكبر.

قال الشيخ عبداللطيف : " وهذا الأحمق من المحن على كلام أهل العلم ، يضعه في غير موضعه ، فيزيل بهجته ويكدر صفوه"[1].

* ومن أمثلة تحريفه ما فعله في كلام البغوي حيث قال : " قال البغوي : كقول الرجل لضيفه : أنا عبدك وليس الشرك الضار بالاتفاق " ، وعبارة البغوي : "أي جعلا له شريكا إذ سمياه عبد الحارث ، ولم يكن هذا شركا في العبادة ، ولا أن الحارث ربهما ... كما أن الرجل إذا نزل به ضيف يسمي نفسه عبد الضيف على وجه الخضوع ، لا على أن الضيف ربه ..."[2].

وقال الشيخ : " فالعراقي لا تؤمن بوائقه ، فلا تغتر بنقله ، ولا تأخذ عنه ، فإنه وضاع كذاب ، محرف ، لا يؤمن على شيء من العلم"[3].

تاسعا : اتباع الهوى

ويتضح ذلك من خلال :

* جمعه بين المختلفات ، فمثلا يلحق التنازع والاختلاف في مسألة رؤية الله في الدنيا ومسألة سماع الأموات ، بالاختلاف بالاستغاثة بالرسول ، لذلك قال الشيخ عبداللطيف : "ثم أين مسألة الرؤية ومسألة سماع الموتى من مسألة النزاع ؟ ".

* ومن مظاهر اتباعه هواه ، وأنه لا يخطئ في فهم كلام أهل العلم – وخاصة ابن القيم وابن تيمية لأنه يكثر النقول عنهما – ؛ أنه إذا أراد فهم كلامهم على الوجه الصحيح فهمه ، وخاصة إذا كان الدليل قوي في الاستدلال على باطله ، أو يمكن استنباط الاستدلال لما هو عليه ، نقله بحذق وخفة واستخرجه بالمنقاش، وأوضح ما يكون مثلا لذلك : القصة التي نقلها من كتاب ابن القيم "الكبائر"[4] حيث قال في التعليق عليها : " فانظر إلى نقل هذه الحكاية من مثل ابن القيم "[5] ، ثم قال : " وليس العمدة نفس الحكاية ، بل العمدة هي مع تلقي مثل ابن القيم لها بالقبول ، مع أن فيها الاستغاثة برسول الله ولم

---

[1] المنهاج (273) .
[2] المنهاج (317) ، وانظر : (ص617) من هذا البحث .
[3] المنهاج (318) .
[4] انظر : في ذكر القصة كاملة ، والرد عليها (ص458) من هذا البحث .
[5] الصلح (38) .

ينكرها الشيخ ، ولا قال إن هذا المستغيث كافر ولا مشرك ولا آثم"[1].

فانظر كيف فرح بهذا النقل من ابن القيم ، ولا غرابة في ذلك ؛ لأن ابن القيم بشر قد يورد الدليل لغاية تذهله عن المآخذ الأخرى عليه ، ولذلك لم يفرح هذا المبتدع ولله الحمد بأي دليل من القرآن يعضده فيما ذهب إليه.

* ومن ذلك أنه يفرح بوجود عبارة لأهل العلم لو بترت لوافقت معتقده ، ويذهل من سياقها وسباقها الذي يبين مرادهم منها ، فلأنه متبع لهواه يعتقد أن القارئ لن يتنبه إلا لما أراد فقط ، أو سيفهم ما فهمه هو، أو يظن أن الناس مثله مختوم على قلوبهم ، يوضح ذلك نقله الثامن والعشرين حيث قال : " قال الشيخ ابن تيمية في " اقتضاء الصراط المستقيم " ما نصه : " فكما أن إثبات المخلوقات أسبابا لا يقدح في توحيد الربوبية فلا يجوز أن يدعى المخلوق لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة ، كذلك إثبات بعض الأفعال المحرمة من شرك أوغيره أسبابا لا يقدح في توحيد الإلهية " ، ففرح بقول الشيخ : " لا يقدح في توحيد الإلهية "[2] ، وذهل عن أول العبارة ، وهي قول الشيخ : " فلا يجوز أن يدعى المخلوق لادعاء عبادة ولا دعاء استغاثة " ، قال الشيخ عبداللطيف : "فهذا يهدم قوله ، ويدفع في صدره ، ولكنه لا شعور له بما في كلام الشيخ من الحق والهدى "[3].

يقول الألوسي : " في كلام العراقي خلط وخبط ، فإنه اعتمد في غالب ما ذكره على فهمه الفاسد ولم يرجع إلى ما حرره العلماء الأعلام ، أو أنه راجعه ورآه مخالفا لهواه ، ولو وافقه لنقله ، ألا ترى أنه نقل عبارة ابن القيم في "الهدي النبوي" ، والدالة على كراهة قول "ما شاء الله وشئت" ظنا منه أن الكراهة منصرفة إلى ما لا يستحب ، ولم يدر أنها تطلق على التحريم ، وهو مراد ابن القيم فيها"[4].

* وأيضا عندما ذكر القصة التي أوردها عن ابن القيم ، قال : " ولا يرد هذا إلا غبي خبيث شقي"[5] ، فلم لم يعذر الراد كما عذر الفاعل ، لو كان يتبع الحق ؟

عاشرا : الأخذ بالمتشابه وترك المحكم

---

[1] الصلح (39) .
[2] الصلح (34) .
[3] المنهاج (254) .
[4] فتح المنان (ص 433) .
[5] الصلح (30) .

وذلك بتتبع كلام أهل العلم لعله يجد ما يؤيد مذهبه ، فمثلا يتتبع كلمات لابن تيمية وابن القيم في القول بالعذر للمخطئ ، ويترك المحكم من كلامهما وهو في مجلدات ، ومن ذلك ما كتبه في النقل التاسع عشر والعشرين من نقوله عن ابن القيم في ذكر القصتين ، فكيف يذهب إلى هاتين القصتين مع الغموض في وجه الاستدلال ، ويترك المحكم من كلامه – رحمه الله - وهو في مجلدات ؟! قال الشيخ عبداللطيف : " ونقل ابن القيم لها وإيراده لمثل هذا يقصد به بيان فضل الصديق .. ، وقد تقدم قول الشيخ في المستغيثين بالنبي ومنعه من ذلك... ، وصنف الشيخ -رحمه الله- مجلدا في الاستغاثة بالنبي وغيره من الأنبياء والصالحين ، وقرر أدلة المنع من الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار، وأكثر الكلام في المنع من هذا "[1].

ويقول ابن جرجيس : " فهذا صريح كلامه –ابن القيم - أن الاستغاثة بالموتى، وطلب الحوائج منهم، والنذر لغير الله، والسجود لغيره، والحلف بغيره، كل هذا من نوع الشرك الأصغر عندهم لا الأكبر المخرج من الملة"[2].

فذكر الشيخ في أثناء الرد عليه : " والحق ظاهر بحمد الله ، لا تخفى أنواره ، ولكن أهل الزيغ يتبعون المتشابه من كلام الله وكلام رسوله وكلام أهل العلم "[3].

الحادي عشر : ركاكة الأسلوب

ويذكر كل من رد عليه هذا المأخذ في تأليفه ، وهو مأخذ واضح لا يحتاج إلى ضرب الأمثلة ، فكل النقول من كلام ابن جرجيس السابقة شاهدة بذلك ، يقول الشيخ عبداللطيف في التعليق على بعض عبارات ابن جرجيس : "فالظاهر أن هذا من كلام العراقي لأن ألفاظه ركيكة وتركيبه تركيب جاهل ، وهكذا كلام العراقي ليس له لسان طالب علم حتى في التعبير"[4].

الثاني عشر : الكذب

قال الألوسي : " لم يستح من تكذيب الناس له حتى أنه قد حدثني بعض من أثق به أن هذا الضال المبتدع قد أخبره بخبر

---

[1] المنهاج (231) .
[2] الصلح (38) .
[3] المنهاج (ص 268).
[4] المنهاج (260) .

ظهر كذبه للعيان ، فلما عاتبه على هذا الكذب ، قال له : لأي شيء تعاتبني على الكذب ، والحال أن الأنبياء يكذبون؟"[1]، فإن صح عنه الخبر ، فهذا من أعظم الرزايا .
ومن مظاهر كذبه في هذا الكتاب :

*المكابرة في الحسيات : وهذا منهج واضح للعراقي ، فإذا أراد نفي شيئا موجودا متواترا معروفا تجاسر على ذلك بما لم يعهد من غيره ، فيقول مثلا عن السجود عند القبر: " لا يمكن أن يفعله مسلم " ، وهو يعلم أن كل عباد القبور يفعلونه .

بل قال في موضع آخر : "حتى من يدعي التوحيد فإن النيات الفاسدة للمخلوق وابتغاء القرب منه ، وطلب الجزاء منه بل والتذلل له ، والسجود له كالتعظيم للحكام وأهل الدنيا من أهل الأموال ، فإن هذا لا ينجو منه إلا المخلصون وقليل ما هم ؟!" ، فانظر إلى هذه المكابرة .

ومن ذلك قوله : " اعلم أن المجوزين مرادهم جواز الاستغاثة بالأنبياء والصالحين على أنهم أسباب ووسائل بدعائهم، وأن الله يفعل لأجلهم، لا أنهم الفاعلون استقلالا من دون الله ، فإن هذا كفر بالاتفاق ، ولا يخطر ببال مسلم جاهل، فضلا عن عالم" ، قال الشيخ عبداللطيف : " مع أن عباد القبور في هذه الأزمان اعتقدوا التدبير والتصريف لمن يعتقدون... وهذا مشتهر عنهم لا ينكره إلا مكابر..."[2].

* الكذب على العلماء : فيدعي الإجماع على مسألة لم يجمع عليها العلماء ، فمثلا يقول : " ومعلوم أن " لعمري أو لعمرك " قسم بلا نزاع " ، ورد عليه الشيخ عبداللطيف بقوله : " بل هو غير معلوم وغير مفهوم من كلام أهل العلم والإيمان وأئمة هذا الشأن ، بل صريح كلامهم نفي هذا ، وأنه ليس بقسم ، فكيف يتجاسر هذا على مثل هذه الورطات والمكابرة في الحسيات ، يقول أهل العلم ليس بيمين ، ويقول طاغية العراق يمين بلا نزاع"[3] .

ويقول ابن جرجيس أيضا : " إن قصد الذبح لله ليدفع شر الجن ، فهذا لاشك في جوازه"[4] .

---

[1] فتح المنان : (454) .
[2] المنهاج (337) .
[3] المنهاج (309) .
[4] الصلح (108) .

ومن كذبه على العلماء قوله عن ابن تيمية وابن القيم : " تراهما ينقلان عبارات صرايح بنفس الفعل الذي هو شرك ، ويقران فاعله عليه من غير نكير"[1].

ويقول : " أما قول القائل " ما شاء الله وشئت " و" أنا في حسب الله وحسبك"، وما أشبه ذلك فقد أطبق العلماء أن الحديث الوارد فيه لبيان تعليم الأدب ، وليس من الشرك الأصغر المحرم بالاتفاق"[2].

وأيضا يقول : " قال البغوي : " كقول الرجل لضيفه : أنا عبدك . وليس الشرك الضار بالاتفاق " ، وهذا كذب على البغوي لم يقل ذلك ، قال الشيخ عبداللطيف : "والبغوي أجل من أن يقول لشيء من الشرك : ليس هذا بضار بالاتفاق"[3].

* أيضا كذبه في دعواه أنه من أنصار ابن تيمية وأنه تابع لأقواله ، إذ هو يعلم علم اليقين أن ابن تيمية يخالفه في كل ما قال ، وإنما أراد أن يوهم الجهال .

الثالث عشر : التقليـــد

يقول ابن جرجيس : " ولسنا من أهل الاجتهاد والادعاء ، ولا ممن يحكم عقله ويترك نصوص العلماء الذين هم نقلة الدين لنا خلفا عن سلف ، ولولاهم ما عرفنا ديننا ، فمن ترك أقوالهم ، وركن إلى صرف عقله ، أو ظن بهم سوءا، أو خونهم ، فقد نبذ الدين وراء ظهره..."[4].

وقد عاب عليه الشيخ عبداللطيف – رحمه الله - التقليد بلا وعي : حيث قالو: " وهذا العراقي رأى سلفا له قد شبه بها في زمن الشيخ فتبعه ولم يبال بما تقدم من التقرير والتوضيح لغلبة الهوى ، ومحبة ما هو عليه من عبادة الصالحين ودعوة الناس إلى ذلك"[5].

هذه بعض المآخذ على منهج ابن جرجيس ، استخرجتها من كتاب واحد حاول فيه إخفاء ما هو عليه ؛ لأنه زعم أنه أراد به الصلح ، ولم يرد الدعوة إلى ما هو عليه من اعتقاد ، فلو اطلعنا على الكتب التي ألفها استقلالا للدعوة لما هو عليه من الابتداع لوجدنا أصرح مما ذكرنا – والله أعلم - .

---

[1] الصلح (10) .
[2] الصلح (113) .
[3] المنهاج (317) .
[4] صلح الإخوان (4) .
[5] المنهاج (267) .

* * * * *

الفصل الثالث

دراسة لبعض مسائل الكتاب

المسألة الأولى : الفرق بين توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية .

المسألة الثانية : العذر بالجهل .

ة الثالثة : حق الله و حق الرسول ، وخطورة الخلط بينهما .

المسألة الرابعة : أسباب الشرك ، وذرائعة .

ة الخامسة : الأسباب المنهج الصحيح فيها وعلاقتها بالشرك .

المسألة الأولى

الفرق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية
وفيه مطالب :

المطلب الأول : تعريفات مهمة (التوحيد ، الرب ، الإله).

المطلب الثاني : تقسيم التوحيد .

المطلب الثالث : ثمرة التقسيم .

المسألة الأولى

الفرق بين توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية

المطلب الأول : تعريف (التوحيد ، الرب ، الإله)

* تعريف التوحيد

التوحيد في اللغة : مصدر وحد يوحد توحيدا : أي : جعله واحدا ، أي: فردا[1]. قال في " معجم مقاييس اللغة " : " الواو والحاء والدال " أصل واحد يدل على الإنفراد "[2] .

وقال في " تهذيب اللغة " : الوحد : المنفرد . والوحدة : الإنفراد .

والتوحيد : الإيمان بالله وحده لا شريك له ، والله الواحد الأحد ذو الوحدانية والتوحد[3].

وقال في " النهاية " : " الواحد : المنفرد بالذات في عدم المثل والنظير، والأحد: المنفرد بالمعنى . وقيل : الواحد : هو الذي لا يتجزأ ، ولا يثنى ، ولا يقبل الانقسام ، ولا نظير له ولا مثل ، ولا يجمع هذين الوصفين إلا الله تعالى "[4].

مما سبق يتبين أن مادة (وَحَدَ) تدور حول انفراد الشيء بذاته وبصفاته ، أو بأفعاله ، وعدم وجود نظير له فيما هو واحد فيه .

وإذا عدي بالتضعيف فقيل وحّد الشيء توحيدا : كان معناه : إما جعله واحدا ، أو اعتقده واحدا .

قال في " القاموس " : " التوحيد : الإيمان بالله وحده ، والله الأوحد والمتوحد : ذو الوحدانية "[5].

وعلى هذا المعنى اللغوي لكلمة التوحيد ، يكون معنى قولنا : الله واحد ، أو أحد : أي : انفراده – سبحانه وتعالى - بماله من ذات وصفات ، وعدم مشاركة غيره له فيها ، فهو واحد في إلهيته فلا إله غيره ، وواحد في ربوبيته فلا رب

---

[1] انظر : القاموس المحيط للفيروز أبادي (414) .
[2] معجم مقاييس اللغة (6/90) .
[3] تهذيب اللغة للأزهري (5/192-193) .
[4] النهاية لابن الأثير(5/159) .
[5] القاموس المحيط للفيروز أبادي (414) .

سواه ، وواحد في كل ما ثبت له من صفات الكمال التي لا تنبغي إلا له .

التوحيد شرعا[1] :

قال الطحاوي – رحمه الله - : " نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله : إن الله واحد لا شريك له ، ولا شيء مثله ، ولا شيء يعجزه، ولا إله غيره "[2].

وقال ابن تيمية – رحمه الله - : " هو عبادة الله وحده لا شريك له ، مع ما يتضمنه من أنه لا رب لشيء من الممكنات سواه "[3].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله - : " واعلم أن التوحيد : هو إفراد الله سبحانه بالعبادة "[4]. والشيخ لم يذكره كحد ، وإنما مراده : التوحيد الذي بعثت الرسل لتحقيقه ؛ لأنه هو الذي حصل الإخلال به ، والخلاف بين الرسل وأممهم من أجله[5] ، وله في مؤلفاته كلام متفرق في وجوب إفراد الله بالربوبية ، والأسماء والصفات .

---

[1] اقتصرت على ذكر التعريف الشرعي الصحيح الموافق لدلالة الكتاب والسنة واللغة ، وإلا فلكل فرقة من الفرق معنى اصطلاحي للتوحيد يوافق ما ذهبوا إليه من باطل ، يقول ابن القيم في "الصواعق المرسلة " (3/929) : " واعتبر ذلك بأظهر الألفاظ والمعاني في القرآن والسنة ، وهو التوحيد الذي حقيقته : إثبات صفات الكمال لله ، وتنزيهه عن أضدادها ، وعبادته وحده لا شريك له، فاصطلح أهل الباطل على وضعه للتعطيل المحض ، ثم دعوا الناس إلى التوحيد ، فخدعوا به من لم يعرف معناه في اصطلاحهم ، وظن أن ذلك التوحيد هو الذي دعت إليه الرسل ، والتوحيد اسم لستة معان ، توحيد الفلاسفة ، وتوحيد الجهمية ، وتوحيد القدرية الجبرية ، وتوحيد الاتحادية ، فهذه الأربعة أنواع من التوحيد جاءت الرسل بإبطالها ، ودل على بطلانها العقل والنقل " . ثم بين معنى التوحيد عند هذه الطوائف ، وأنه مخالف لما جاء به الشارع . وبين المعنى الصحيح للتوحيد الذي جاء به المرسلون ، وهو التوحيد الخامس ، والسادس : إثبات القديم الواحد ، ونفي الصفات (3/937) . وانظر : العقيدة التدمرية ، وشرحها لفالح آل مهدي (ص364- وما بعدها) .

[2] شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (1/21).

[3] درء التعارض (1/306) .

[4] مجموعة الرسائل النجدية (4/4) ، الدرر السنية (1/48) .

[5] انظر : شرح كشف الشبهات لابن عثيمين (20) .

وعرفه السفاريني[1] في " اللوامع " حيث قال : " إفراد المعبود بالعبادة ، مع اعتقاد وحدته ذاتا ، وصفاتا ، وأفعالا "[2]. والمعبود : هو الله وحده .

وهذا التعريف جامع مانع ، يشمل أنواع التوحيد الثلاثة .

إذا توحيد الله معناه : اعتقاد أنه إله واحد لا شريك له ، ونفي المثل والنظير عنه ، والتوجه إليه وحده بالعبادة[3].

*** تعريف الرب**

الرب في اللغة :

وردت كلمة " رب " في اللغة على ثلاثة معان :

المعنى الأول : مالك الشيء وصاحبه ، ومنه : فلان رب الدار، أي : صاحبها ومالكها ، وكل من ملك شيئا فهو ربه[4]. قال في " لسان العرب " : " وفي حديث إجابة المؤذن : " اللهم رب هذه الدعوة " ، أي : صاحبها ، وقيل : المتمم لها ، والزائد في أهلها والعمل بها ، والإجابة لها.. فأما الحديث في ضالة الإبل حتى يلقاها ربها ، فإن البهائم غير متعبدة ولا مخاطبة ، فهي بمنزلة الأموال التي تجوز إضافة مالكيها إليها ، وجعلهم أربابا لها "[5].

المعنى الثاني : السيد المطاع ، قال الطبري : " وأما تأويل قول : "رب" فإن الرب في كلام العرب منصرف على معان : فالسيد المطاع فيهم يدعى ربا "[6]. وقال في " لسان العرب " : " رببت القوم : سستهم ، أي : كنت فوقهم "[7] .

---

[1] هو : محمد بن أحمد بن سالم السفاريني ، ولد في "سفارين " قرية من قرى نابلس ، من كبار علماء الحنابلة المتأخرين ، كثير التأليف ، محدث ، حافظ ، توفي سنة (1189هـ) بنابلس . انظر : السحب الوابلة (2/839) ، النعت الأكمل (301) .

[2] لوامع الأنوار للسفاريني (1/57) .

[3] انظر : تيسير العزيز الحميد (33) ، القول السديد لابن سعدي (11) ، دعوة التوحيد لمحمد خليل هراس (11) ، الكواشف الجلية لعبد العزيز السلمان (417) .

[4] انظر : معجم مقاييس اللغة (2/381) .

[5] لسان العرب (3/1546) .

[6] تفسير الطبري (1/141) .

[7] لسان العرب (3/1547) .

المعنى الثالث : المصلح للشيء المدبر له ، القائم على تربيته . قال في " معجم مقاييس اللغة " : " والرب المصلح للشيء ، يقال : رب فلان ضيعته : إذا قام على إصلاحها "[8].

قال الطبري – رحمه الله - بعد أن ذكر هذه الوجوه اللغوية الثلاثة : " وقد يتصرف معنى " الرب " في وجوه غير ذلك ، غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة . فربنا جل ثناؤه : السيد الذي لا شبه له ، ولا مثل في مثل سؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه ، والمالك الذي له الخلق والأمر "[2] .

الرب في الاصطلاح :

ومعنى الرب في الاصطلاح لا يخرج عن معناه في اللغة كما ذكر الطبري – رحمه الله - ، قال ابن تيمية : " والرب هو الذي يربي عبده، فيعطيه خلقه ، ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها "[3].

وقال صاحب " الدين الخالص " : " فالرب مصدر رب يربُ ربا فهو راب ، فمعنى قوله : "رب العالمين" ، أي : رابهم ، وهو الرب الخالق الموجد لعباده القائم بتربيتهم وإصلاحهم، المتكفل لهم من خلق ورزق وعافية ، وإصلاح دين ودنيا "[4] .

وكلمة رب : لا تطلق على المخلوق إلا مقيدة بالإضافة ، وإذا خلت من قيد الإضافة ، فتنصرف إلى الله وحده[5] ، وإذا جاء قبلها " الألف واللام " فقلنا "الرب"، فلا تدل إلا على الله سبحانه وتعالى[6] ، قال القرطبي[7] : " متى دخلت الألف واللام على " رب " اختص الله تعالى به ، لأنها للعهد "[8] .

---

[8] انظر معجم مقاييس اللغة (2/381) .
[2] تفسير الطبري (1/142) .
[3] مجموع الفتاوى (1/22) .
[4] الدين الخاص (1/64) .
[5] انظر المفردات للراغب الأصبهاني ص 184.
[6] انظر : المفردات ص 185، لسان العرب لابن منظور (3/1546) .
[7] هو : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح - باسكان الراء والحاء المهملة - الشيخ الإمام ، أبو عبدالله ، الأنصاري ، الأندلسي ، القرطبي ، المفسر ، له عدة مؤلفات ، منها (الجامع لأحكام القرآن، وهو المعروف بتفسير القرطبي ، والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، وشرح أسماء الله الحسنى ، وغيرها) ، توفي في شوال من سنة (671هـ) . انظر : الديباج المذهب لابن فرحون (2/308) ، طبقات المفسرين للداوودي (2/69) .
[8] ?تفسير القرطبي (1/137) .

*** تعريف الإله**

الإله في اللغة : من أله الرجل وتأله : إذا تعبد[1] .

قال ابن فارس[2] : " الهمزة ، واللام ، والهاء أصل واحد ، وهو التعبد . فالإله : الله تعالى، وسمي بذلك لأنه معبود ، ويقال تأله الرجل : إذا تعبد "[3].

وقال في " لسان العرب " : " الإله : الله عز وجل ، وكل ما اتخذ من دونه معبودا إله عند متخذه ، والجمع آلهة . والآلهة : الأصنام ؛ سموا بذلك لاعتقادهم أن العبادة تحق لها . وأسماؤهم تتبع اعتقاداتهم لا ما عليه الشيء في نفسه"[4] .

وفي الاصطلاح : معنى " الإله " : هو المعبود ، " هذا تفسير هذه اللفظة المباركة بإجماع أهل العلم ، سلفا وخلفا ، وكل من عبد شيئا فقد اتخذه إلها من دون الله "[5].

قال شيخ الإسلام : " إذ الإله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما ، فالإله من يستحق أن يألهه العباد ، ويدخل فيه حبه وخوفه ، فما كان من توابع الألوهية فهو حق لله محض"[6] .

قال الطبري : " الله أصله الألاه , أسقطت الهمزة التي هي فاء الاسم فالتقت اللام التي هي عين الاسم واللام الزائدة التي دخلت مع الألف الزائدة وهي ساكنة فأدغمت في الأخرى التي هي عين الاسم فصارتا في اللفظ لاما واحدة مشددة "[7] ، "وأما تأويل قول "الله" , فإنه على معنى

---

[1] انظر : القاموس (1546) .

[2] هو : أبو الحسين أحمد بن فارس المعروف بالرازي ، المالكي ، اللغوي ، كان رأسا في الأدب ، ومن أئمة اللغة . توفي بالري سنة (395هـ) . انظر : سير أعلام النبلاء (17/103) ، وفيات الأعيان لابن خلكان (1/118) ، طبقات المفسرين للداوودي (1/60) .

[3] معجم مقاييس اللغة (1/127) .

[4] لسان العرب (1/114).

[5] الدين الخالص (1/190) .

[6] الفتاوى (1/22) وانظر: المفردات للراغب (ص21) .

[7] تفسير الطبري (1/125-126) .

ما روي لنا عن عبد الله بن عباس : هو الذي يألهه كل شيء , ويعبده كل خلق , وساق بسنده إلى ابن عباس قال : " الله ذو الألوهية , والمعبودية على خلقه أجمعين "[1] .

1 تفسير الطبري (1/122-123) .

المطلب الثاني : أقسام التوحيد

اختلفت تقسيمات العلماء للتوحيد بعدة اعتبارات :

فإذا قسم التوحيد باعتبار ما يجب على الموحد ، فهو قسمان : يقول ابن أبي العز الحنفي : " ثم التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه ، نوعان :

توحيد في الإثبات والمعرفة[1] ، وتوحيد في القصد والطلب .

فالأول : هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى ، وصفاته ، وأفعاله ، وأسمائه ، ليس كمثله شيء في ذلك كله كما أخبر عن نفسه وكما أخبر رسوله .

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح كما في أول (الحديد) ، (طه) وآخر (الحشر) ، وأول (ألم تنزيل) السجدة ، وأول (آل عمران) ، وسورة (الإخلاص) بكمالها إلى غير ذلك .

والثاني : هو توحيد الطلب والقصد : مثل ما تضمنته سورة (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)(الكافرون:1) ، (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً)(آل عمران: من الآية64) ، وأول سورة (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (السجدة :2) وآخرها ، وأول سورة (يونس) وأوسطها وآخرها ، وأول سورة (الأعراف) وآخرها ، وجملة سورة (الأنعام) ، ثم يقول بعد ذلك :

" وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد ، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد . فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته ، فهو التوحيد العلمي الخبري .

وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له ، وخلع ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الإرادي ألطلبي .

وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته ، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته.

وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده ، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده .

---

[1] ويسمى : التوحيد العلمي القولي , والعلمي الخبري , وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات .
انظر : شرح التدمرية (ص28) .

وإما خبر عن أهل الشرك ، وما فعل بهم في الدنيا من النكال ، وما يحل بهم في العقبى من العذاب ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه . وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم"[1] .

أما تقسيم التوحيد باعتبار متعلقه ، فهو ثلاثة أقسام :

1. أحدها الكلام في الصفات .
2. والثاني توحيد الربوبية ، وبيان أن الله وحده خالق كل شيء .
3. والثالث توحيد الإلهية ، وهو استحقاقه أن يعبد وحده لاشريك له[2] .

1. توحيد الربوبية

* وهو الاعتقاد الجازم بأن الله وحده هو رب كل شيء ومليكه ، وهو الخالق الرازق المحيي المميت الضار النافع المعطي المانع المتصرف في هذا الكون بمشيئته المطلقة ، وليس معه رب آخر يشركه ، وهو من التوحيد الواجب ، لكن لا يحصل به الواجب ، ولا يخلص بمجرده عن الإشراك[3] .

* والقلوب مفطورة على الاعتراف بالرب سبحانه أكثر من اعترافها بأي شيء آخر ، ولذلك أجاب الرسل أممهم بالاستفهام الإنكاري بقولهم : (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)(إبراهيم: من الآية10) .

* وقد كان المشركون مقرين بتوحيد الربوبية ، وذلك واضح في كثير من آيات القرآن الكريم ، منها قوله تعالي : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ) (يونس:31) ، وقوله سبحانه : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) (الزخرف:9) .

---

[1] شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (1/42-43) ، وانظر : اقتضاء الصراط المستقيم (2/ 385-394) ، مدارج السالكين (3/449) . وانظر : دعوة التوحيد للشيخ محمد خليل هراس (ص 14 – 15).

[2] شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (1/24) .

[3] انظر : الاقتضاء (2/387) .

وهكذا نرى أن مشركي العرب ومن سبقهم من الأمم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية ؛ لأن دلائل ربوبيته تعالى واضحة في كل شيء ، فأشد الناس إلحادا لا يصدق بأن يكون الأثر بلا مؤثر ، أو أن تكون الصدفة هي التي نظمت هذا الكون بما فيه أبدع تنظيم وأحكمه ؛ ولهذا كان إقرار الخلق بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته[1] .وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل.

2.توحيد الأسماء والصفات

وقد بينه شيخ الإسلام في " الرسالة التدمرية " حيث يقول : " فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسله نفيا وإثباتا ، فيثبت لله ما أثبته لنفسه ، وينفى عنه ما نفاه عن نفسه .

وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها ، إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل ، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد ، لا في أسمائه ولا في آياته ؛ فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته ، كما قال تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (لأعراف: 180) "[2].

3.توحيد الألوهيـــــة

* وهو المسمى بتوحيد العبادة , والتوحيد العملي ، والتوحيد في القصد والإرادة والعمل , والتوحيد الطلبي والإرادي[3] , ومعناه : الاعتقاد الجازم بأن الله وحده هو المستحق لجميع أنواع العبادة ، مع صرف هذه العبادات له وحده ولا يصرف منها شيء لغيره .

---

[1] انظر : شرح الطحاوية (1/25) .
[2] التدمرية (6-7) .
[3] انظر : التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية (28) .

* والكلمة المعبرة عن هذا المعنى أدق تعبير هي كلمة الشهادة : لا إله إلا الله ، فمعناها: أنه لا معبود بحق إلا الله[1] .

* وهذا التوحيد هو الذي جاءت به الرسل ودعوا إليه أقوامهم ، فالرسل مقررون لتوحيد الربوبية ، داعون لتوحيد الألوهية كما أخبر الله عنهم[2] ، فقال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الانبياء:25)

وقال تعالى آمرا نبيه محمد أن يقول لقومه : (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي) (الزمر:14) ، وقوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (يونس:104) [3] .

وبالجملة فكل الرسل بعثوا بالدعوة لتوحيد الألوهية ، وإفراد الله بالعبادة ، وترك عبادة الطواغيت والأصنام كما قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)(النحل: من الآية36).

وكان كل رسول أو ما يبدأ به قومه : (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (لأعراف:59) .

وافتتاح الدعوة بهذا النداء دليل أكيد على أن الرسل لم يبعثوا لتعريف الخلق بخالقهم وإثبات وجوده ؛ لأن معرفته والإيمان بوجوده فطري ، إنما بعثوا لدعوة الخلق لإلههم ومعبودهم الحق ، ونبذ كل ما يعبد من دونه من الآلهة المزعومة[4] .

* وفي هذا النوع من التوحيد وقع النزاع بين الرسل وأممهم ، حيث أنكر المشركون الدعوة لتوحيد الإله المعبود بقولهم : (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) (ص:5) ؛ ولهذا كان سياق الآيات الدالة على الربوبية يأتي

---

[1] ?انظر : الفتاوى (1/104 ، 19/106) ، مدارج السالكين (1/25) ، اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم (ص 84) ، ودعوة التوحيد ص 47.

[2] انظر : تيسير العزيز الحميد (ص 20) ، ودعوة التوحيد (ص 37) .

[3] انظر : الصراط المستقيم (2/386-387) .

[4] انظر : الفتاوى (16/332) ، مدارج السالكين (3/443) ، وانظر : تطهير الاعتقاد للصنعاني (ص 6) .

بالإستفهام التقريري ؛ لأنهم مقرون بالرب ؛ كقوله تعالى: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) (النحل:17) .

* ويتضح هذا الأمر إذا علمنا أن مبدأ انحراف البشرية عن حقيقة التوحيد لم يكن شركا في الربوبية ، إنما كان شركا في الألوهية ، قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام : (وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً) (نوح:23) ، وهي أسماء رجال صالحين ماتوا فصورهم قومهم ثم جاء من بعدهم فعبدوهم[1] .

كذلك العرب الذين كانوا على بقية من دين إبراهيم حتى جاء عمرو بن لحي بن عامر الخزاعي بأصنام من الشام إلى الجزيرة فنصب هبل وعبده وعظمه وتبعه الناس في ذلك[2].

*** العلاقة بين توحيد الربوبية ، وتوحيد الإلهية**

ومما سبق يتبين لنا أن توحيد الربوبية باب لتوحيد الإلهية ، ودليل عليه , ومستلزم له ، فمن اعترف أن الله خالقه ، ورازقه لزمه أن لا يعبد غيره .

وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس ، فمن لا يقدر أن يخلق يكون عاجزا ، والعاجز لا يصلح أن يكون إلها ، قال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (لأعراف:191)[3]، والإنسان لايتأله إلا للرب –عز وجل- الذي يعتقد أنه هو الخالق وحد ، وهو المدبر لجميع الأمور –سبحانه وتعالى-.

ويوضح الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله - اجتماع الربوبية والألوهية وافتراقهما ، فيقول : " اعلم أن الربوبية والألوهية يجتمعان ، ويفترقان، كما في قوله تعالى :) قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ) (الناس: 1-3) ، وكما يقال رب العالمين وإله المرسلين ، وعند الإفراد يجتمعان كما في قول القائل: من ربك ؟ مثاله الفقير والمسكين ، نوعان في قوله : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ)(التوبة:60) ، ونوع واحد في قوله : "

---

[1] انظر : إغاثة اللهفان (2/209) ، فتح الباري (8/667) .
[2] فتح الباري (8/383) ، وانظر : إغاثة اللهفان (2/221) ، تطهير الاعتقاد ص 13 ، صيانة الإنسان ص 465 .
[3] شرح الطحاوية (1/41) .

افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم "[1] "[2] .

ولا يتم أحد التوحيدين إلا بالآخر ، ولهذا كان النبي يقرأ بسورتي الإخلاص[3] في سنة الفجر والمغرب ، اللتين هما فاتحة العمل وخاتمته ليكون مبدأ النهار توحيدا ، وخاتمته توحيدا[4] .

المطلب الثالث : ثمرة التقسيم

وتتبين ثمرة تقسيم التوحيد بأمور ، منها :

* معرفة ما كان عليه شرك الأولين والحذر من الوقوع بمثله .

* معرفة حقيقة دعوة الرسل وهي إفراد الله بالعبادة .

* معرفة الفرق بين أنواع التوحيد ، ثم الحكم على المخالفين في التوحيد بمعرفة حقيقة شركهم ؛ وذلك لتأدية حق الله فيهم سواء كان دعوة أو قتال أو معاداة .

* الحذر من الخطأ الذي وقع فيه أهل البدع لما غلوا بتوحيد الربوبية .

وبيان ذلك على النحو التالي :

إن عدم التفريق بين التوحيدين أصل ضلال كثير من الخلق ، والسبب في انتشاره بين المسلمين منطق اليونان المذموم ، ومن تتلمذ له من أهل الكلام ، وهو القاعدة التي ارتكز عليها أتباع أولئك الأقوام من أهل البدع في تفسير كلمة التوحيد.

لذا أنكر هؤلاء المبطلون هذا التقسيم زاعمين أنه لم يرد عن النبي ، وأنه من ابتداع ابن تيمية ، وتبعه عليه محمد بن عبد الوهاب .

والذي أوقعهم في ذلك عدم تفريقهم بين معنى كلمتي "الرب" و"الإله" ، حيث فسروا كلمة "الإله" : بالقادر على

---

[1] جزء من حديث رواه البخاري [كتاب الزكاة /باب : أخذ الصدقة من الأغنياء فترد إلى الفقراء] (2/544) ، ومسلم [كتاب الإيمان / باب : الدعاء إلى الشهادتين ، وشرائع الإسلام] (1/50) .

[2] مجموعة مؤلفات الشيخ ، الرسائل الشخصية ، الرسالة الثانية (3/9-10)

[3] هما (قل هو الله أحد) ، و (قل يا أيها الكافرون) .

[4] انظر : اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم (84) .

الاختراع ، واعتقدوا أن المشركين الذين حاربهم الرسول كانوا مشركين بربوبيته تعالى .

يقول ابن جرجيس : " إن هذه الشبهة – تقسيم التوحيد - هي التي غر بها إبليس هؤلاء وأشباههم ، فإذا رأيت جوانبها سقطت ، وتبين المؤمن من الكافر، والموحد من المشرك فاعلم أن الكفار كانوا مشركين بالله تعالى أصنامهم في الربوبية والعبادة.. فمن قال : إن الكفار كانوا يوحدون الله توحيد الربوبية أخذا من ظاهر بعض الآيات فقد أخطأ ، وما أصاب ، ولا تدبر السنة ولا الكتاب ؛ فإن الربوبية والألوهية متلازمان. الرب والإله معناهما واحد ، لأن الذي يستحق أن يعبد لابد أن يكون ربا "[1] .

وهذه الدعوى مردودة بما يلي :

1- أما اعتراضهم على التقسيم ؛ لأنه لم يرد عن الرسول فالجواب عليه هو:

أن هذا التقسيم وإن كان لم ينطق به الرسول لفظا ، إلا أن معناه مستقى من النصوص ، وقد أقر بذلك بعض من ينهج نهج المبتدعة في موقفهم من السلفية ، يقول عبد الفتاح أبو غدة[2] : " وأما تقسيم التوحيد إلى ما ذكره هؤلاء الأئمة : شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم ، والشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمهم الله تعالى – إلى توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية فهذا تقسيم اصطلاحي استقاه العلماء مما جاء في الكتاب والسنة في مواضع لا تحصى :

مما رد الله – تعالى - به على المشركين الذين كانوا يؤمنون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية، وفي سورة الفاتحة التي يقرأها المسلم في صلاته مرات كل يوم دليل على ذلك "[3] .

2- أن هذا التقسيم راجع للفرق بين معنى كلمتي " الرب " و " الإله " ، لغة واصطلاحا كما مر في المبحث السابق ، فلفظة الربوبية غير لفظة الألوهية مادة واشتقاقا ، والعرب يفهمون الألفاظ ويفهمون تغايرها ، فلا يحتاج إلى أن يقال

---

[1] صلح الإخوان ص 124 .
[2] هو عبد الفتاح بن محمد بشير الحلبي ، الشهير بأبي غدة أبو الزاهد الكوثري ، من المعاصرين الداعين إلى بدع القبورية ، للشيخ الألباني رد عليه في مقدمة الطحاوية ، وكذا الشيخ بكر أبو زيد في رسالته " تحريف النصوص من مآخذ أهل الأهواء في الاستدلال " ص115 وما بعدها .
[3] كلمات في كشف الأباطيل ص 37 .

لهم: إن الربوبية غير الألوهية ، كما لا يحتاج أن يقال : إن السماء غير الأرض.."[1].

ويدل على ذلك أنه يقال : رب الدار لصاحبها ، ورب الإبل لمالكها ، ورب القبيلة لسيدها ، فإن كان معنى الإله هو الرب – سواء- جاز أن يقال : إله الدار لصاحبها ، وإله الإبل لمالكها ، وإله القبيلة لسيدها. وهذا منكر باتفاق الأولين والآخرين[2] .

فالخلق والقدرة على الإنشاء من معنى كلمة الرب ، أما معنى كلمة الإله فهو المعبود ، وغاية قول المنكرين أنهم فسروا الإله : بالقادر على الاختراع ، فحصل عندهم الخلط وعدم التمييز ، والقرآن لم ينزل ليأمر الناس بتوحيد الربوبية فحسب، بل أمرهم بتوحيد الإله المعبود[3] .

ومنشأ الغلط عند هؤلاء ؛ أنهم فهموا أن معنى الإله في قول المسلمين : " لا إله إلا الله" ، هو القادر على الاختراع ، وأن إله بمعنى : آله ، لا بمعنى مألوه ، وهذا فهم خاطيء[4].

يقول شيخ الإسلام : " وأفضل الكلام قول لا إله إلا الله ، والإله هو الذي يستحق أن تألهه القلوب بالحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ، فهو بمعنى : المألوه وهو المعبود ، الذي يستحق أن يكون كذلك ؛ ولكن أهل الكلام الذين ظنوا أن التوحيد هو مجرد توحيد الربوبية ، وهو التصديق بأن الله وحده خالق الأشياء ، اعتقدوا أن الإله بمعنى : الآله ، اسم فاعل ، وأن الإلهية هي القدرة على الاختراع ، كما يقوله الأشعري وغيره ممن يجعلون أخص وصف الإله القدرة على الاختراع "[5].

3- أما زعمهم أن التقسيم من ابتداع ابن تيمية ، فجوابه :

أن الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية مذكور عند العلماء قبل شيخ الإسلام ابن تيمية.

---

[1] الفصل الحاسم بين الوهابية وخصومها لعبد الله القصيمي ص 66 .
[2] الفصل الحاسم ص 75 .
[3] عقيدة التوحيد في القرآن لمحمد ملكاوي (ص 110) ، صيانة الإنسان للسهسواني ص 158 وما بعدها .
[4] انظر : منهاج السنة (2/65) ، اقتضاء الصراط المستقيم (2/845) ، مجموع الفتاوى (8/101) . وقد سبق (ص   ) ذكر أقوال أهل اللغة على أن معنى " الإله " المعبود .
[5] درء التعارض (9/377) ، وانظر : (1/226 – 227) .

يقول ابن جرير الطبري (ت 310هـ) عند تفسير قوله تعالى: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم)(البقرة: من الآية 255) : " وأما معنى قوله: "لا إله إلا هو" فإنه خبر من الله جل وعز ، أخبر عباده أن الألوهية خاصة به دون ما سواه من الآلهة والأنداد، وأن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلا له لانفراده بالربوبية وتوحده بالألوهية..."[1].

بل نص الإمام ابن بطة[2] على هذا التقسيم ، وهو قبل شيخ الإسلام بقرون (ت387هـ) ، حيث يقول : " وذلك أن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء :

أحدها : أن يعتقد العبد آنيته[3] ليكون بذلك مباينا لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعا .

الثاني : أن يعتقد وحدانيته ؛ ليكون مباينا بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره .

والثالث : أن يعتقده موصوفا بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفا بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه "[4] .

وكتاب التوحيد للإمام ابن مندة (ت 395هـ) اشتمل على أقسام التوحيد الثلاثة[5] . فكيف يقال إن هذا التقسيم من ابتداع ابن تيمية ؟

---

[1] تفسير الطبري (6/149) .

[2] الإمام الحافظ ابن بطة أبو عبد الله بن عبيد الله ابن حمدان بن بطة العكبري ، الفقيه ، الحنبلي ، كان صاحب حديث ، خلق وصنف كتابا كبيرا في السنة ، كان أحد المحدثين العلماء ، من مصنفاته الإبانة في أصول الديانة . انظر : شذرات الذهب (2/122) ، سير أعلام النبلاء (16/529) .

[3] آنيته : اصطلاح فلسفي قديم معناه : تحقق الوجود العيني . وذكر أبو البقاء : أنه مشتق من " إنّ " التي تفيد التأكيد والقوة في الوجود , وقال : " ولهذا أطلقت الفلاسفة لفظ الإنيّة على واجب الوجود لذاته ؛ لكونه أكمل الموجودات في تأكيد الوجود , وفي قوة الوجود , وهذا لفظ محدث ليس من كلام العرب " , وقال بعضهم : إنه لفظ معرب من كلمة " أين " اليونانية , التي معناها : كان أو وجد , واختلفوا في ضبط هذه الكلمة , فقرأها بعضهم " آنية " كما في تعريفات الجرجاني , وقرأها بعضهم "أنيّة " نسبة إلى " الأنا " كما في المعجم الفلسفي . انظر : الكليات لأبي البقاء (190) , التعريفات للجرجاني (39) , المعجم الفلسفي لصليبيا (1/169-171) .

[4] الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية لأبي عبد الله بن بطة (الكتاب الثالث / المجلد الثاني /172-173) , وانظر : جهود علماء الحنفية لشمس الدين الأفغاني (1/220) .

[5] انظر : مقدمة التحقيق لكتاب التوحيد لابن مندة لعلي بن محمد فقيهي (1/27-28) .

4- أما زعمهم أن كفار قريش كانوا ينكرون الربوبية ، فجوابه :

أن نذكر الآيات والأحاديث وإجماع المفسرين ، ثم أشعار أهل الجاهلية التي يتضح فيها اعترافهم لله بالربوبية ، الدال على تقرير ذلك .

* نوع الله جل وعلا في كتابه الكريم الدلائل على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية[1] وإشراكهم في الألوهية :

- فتارة يلزمهم الله بما أقروا به من توحيد الربوبية ، ويجعله برهانا واضحا على وجوب إفراده سبحانه بالألوهية ، فإن الذي يستحق من العباد أن يعبدوه هو من كان ربا خالقا (قُلْ لِمَنْ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّا تُسْحَرُونَ)(المؤمنون:84-89) .

- وتارة يبين أن المشركين يشهدون بأن الله إلههم ، ولكنهم يقولون : إن معه آلهة أخرى قال تعالى : (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) (الأنعام:19) .

- وفي بعض الآيات يخبر تعالى عن المشركين أنهم يخلصون في الشدة لله وحده ، قال تعالى: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (العنكبوت:65) وغير ذلك من الآيات الكثير.

* أما الأدلة من السنة على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية :

- فمنه ما ورد في الصحيح أن المشركين كانوا يلبون والرسول يسمعهم يقولون " لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك "[2].

---

[1] انظر : الفصل الحاسم بين الوهابية وخصومهم للقصيمي (ص 46 – 52) ، وهذه مفاهيمنا لصالح آل الشيخ ص 108 – 112 .

[2] رواه مسلم في صحيحه [كتاب الحج / باب التلبية وصفتها ، ووقتها] (2/843) ، والبيهقي في السنن الكبرى (5/45) , والطبراني في المعجم الكبير (12/20) , وذكر الكلبي في " الأصنام " كيفية طوافهم في الجاهلية , وتلبيتهم

- ومن ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : " كان رسول الله يغير إذا طلع الفجر ، وكان يستمع الآذان ، فإن سمع أذانا أمسك وإلا أغار ، فسمع رجلا يقول : الله أكبر . الله أكبر. فقال رسول الله : على الفطرة . ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله . فقال رسول الله : خرجت من النار . فنظروا فإذا هو راعي معزى "[1].

فقول رسول الله على الفطرة لما قال : الله أكبر. يدل على أن توحيد الربوبية مستقر في الفطر ، لذا لم يحكم بنجاته من النار وإسلامه إلا بالشهادة[2] .

ومن ذلك ما جاء في صحيح مسلم أيضا عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: "ردفت رسول الله يوما ، فقال: " هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيئا ؟ " قلت : نعم ، قال: " هيه " فأنشدته بيتا ، فقال: " هيه " ، ثم أنشدته بيتا ، فقال: " هيه " ، حتى أنشدته مائة بيت " . وفي رواية " إن كاد ليسلم " ، وفي رواية " فلقد كاد يسلم في شعره "[3].

قال النووي[4] : " واستزاد من إنشاده لما فيه من الإقرار بالوحدانية والبعث"[5].

* إجماع المفسرين على إثبات أن مشركي العرب يقرون بتوحيد الربوبية.

قال الرازي[6] في تفسيره عند قوله تعالى : (وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ)(يونس: من الآية31) : "بين تعالى أن الرسول إذا سألهم عن مدبر هذه الأحوال فسيقولون إنه الله ، وهذا يدل على أن المخاطبين بهذا الكلام كانوا يعرفون

(ص7) .

[1] رواه مسلم في صحيحه [كتاب الصلاة / باب : الإمساك عن الإغارة في دار الكفر إذا سمع فيهم الآذان] (1/288) , والترمذي [كتاب السير / باب : ما جاء في وصيته – صلى الله عليه وسلم – في القتال] (4/140) , وأبو داود [كتاب الجهاد / باب : في دعاء المشركين] (3/43) , والأمام أحمد في المسند (3/132 , 229 , 253) .

[2] انظر : هذه مفاهيمنا ص 113.

[3] رواه مسلم في صحيحه [كتاب الشعر] (4/1767) .

[4] انظر ترجمته : (ص) .

[5] شرح النووي (15/11) .

[6] انظر ترجمته : (ص) .

الله ويقرون به .... وكانوا يعلمون أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر"[1].

وقال ابن كثير[2]: " فسيقولون الله أي : وهم يعلمون ذلك ويعترفون به "[3].

وفي قوله تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (يوسف:106) .

قال البغوي[4] في تفسير هذه الآية : " كان من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم من خلق السموات والأرض ؟ قالوا : الله ، وإذا قيل لهم : من ينزل القطر ؟ قالوا : الله ، ثم مع ذلك يعبدون الأصنام و يشركون به "[5] .

وهو مروي عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، وعكرمة والشعبي ، وقتادة، والضحاك ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم[6].

وقال السهسواني[7] – رحمه لله - : " اعلم أن الله لم يبعث رسله ، ولم ينزل كتبه ؛ لتعريف خلقه بأنه الخالق لهم ، والرازق لهم ، ونحو ذلك ، فإن هذا يقر به كل مشرك قبل بعثه الرسل"[8].

* ومن شعر العرب الدال على إقرارهم بالربوبية :

- قول أوس بن حجر:

وباللات والعزى ومن دان دينها   وبالله إن الله منهن أكبر[9].

- ومنه قول درهم بن زيد الأوسي.

إي ورب العزى السعيدة   والله الذي دون بيته سرف .[10]

- وقول لبيد.

---

[1] تفسير الرازي (17/61) .
[2] انظر ترجمته : (ص   ) .
[3] تفسير ابن كثير(2/645) .
[4] انظر ترجمته : (ص   ) .
[5] تفسير البغوي (4/283) .
[6] انظر : تفسير ابن كثير (2/764) .
[7] سبق (ص   ) .
[8] صيانة الإنسان ص 164 .
[9] الأصنام للكلبي (17) .
[10] الأصنام ص 17 ، 19.

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل[11]

وفي " سيرة ابن هشام " أنه لما قدم أبرهة يهدم الكعبة قام عبد المطلب ومعه نفر من قريش ، فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وجعلوا يدعون الله ويستنصرونه ، وقال عبد المطلب :

لاهم إن العبد يمنــع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدوا محالك [2]

5- زعمهم أن توحيد الربوبية هو الغاية ، ويظهر ذلك من تعريفهم للتوحيد , يقول الشهرستاني : " قال أهل السنة , وجميع الصفاتية : إن الله واحد في ذاته لا قسيم له ، وواحد في صفاته الأزلية لا نظير له , وواحد في أفعاله لا شريك له"[3], وقد يقولون : " إثبات ذات غير مشبهة بالذوات , ولا معطلة من الصفات "[4] , أو "إفراد القديم عن المحدث "[5] .

وهذه التعريفات فيها بعض الحق لا كله , لأنها اقتصرت على توحيد الربوبية والأسماء والصفات , ولا ذكر لتوحيد العبادة[6] , وقد أوقعهم ذلك بعدة مهالك منها :

إن من كان غاية اهتمامه العناية بتوحيد الربوبية غفل عن تقرير توحيد الألوهية ، والبعد عما يضاده من الشرك ، وكان من آثار ذلك الوقوع في ضلال مبين من جانبين :

1. وقوع بعضهم في أنواع من الشرك ، ظنا منهم أن ذلك لا يناقض التوحيد ، يقول شيخ الإسلام – بعد رده على الأشاعرة بسبب إهمالهم لتوحيد الألوهية- : " ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ، ويدعوها كما يدعو الله تعالى ، ويصوم لها، وينسك لها ، ويتقرب إليها ، ثم يقول : إن هذا ليس بشرك ، وإنما الشرك إذا اعتقدت

---

[11] وقد قال عنه : " أصدق بيت قالته الشعراء " ، صحيح مسلم ، [كتاب الشعر] (4/1768) .

[2] سيرة ابن هشام (1/51) .

[3] الملل والنحل للشهرستاني (1/37) ، وانظر : نهاية الإقدام للشهرستاني (ص 90) , كشاف اصطلاحات الفنون (4/310) , شرح التدمرية (359) .

[4] تفسير القرطبي (7/208) , عمدة القارئ للعيني (20/266) .

[5] فتح الباري (13/344) .

[6] وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية بطلان ذلك في مواضع عدة من مؤلفاته ، انظر مثلا : نقض التأسيس " الرد على الجهمية " (1/133-134، 478، 492-493) ، درء التعارض (7/119-223) .

أنها هي المدبرة ، فإذا جعلتها سببا وواسطة لم أكن مشركا ، ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك ، فهذا ونحوه من التوحيد الذي بعث الله به رسله ، وهم لا يدخلونه في مسمى التوحيد الذي اصطلحوا عليه "[1].

2. الغلو في توحيد الربوبية إلى حد ما يسميه الصوفية بالفناء[2] ، يقول شيخ الإسلام : " وإذا تبين أن غاية ما يقرره هؤلاء النظار ، أهل الإثبات للقدر، المنتسبون إلى السنة إنما هو توحيد الربوبية ، وأن الله رب كل شيء ، ومع هذا فالمشركون كانوا مقرين بذلك مع أنهم مشركون ، فكذلك طوائف من أهل التصوف المنتسبين إلى المعرفة والتحقيق والتوحيد ، غاية ما عندهم من التوحيد هو شهود هذا التوحيد ، وهو أن يشهد أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه.... ومعلوم أن هذا هو تحقيق ما أقر به المشركون من التوحيد ، ولا يصير الرجل بمجرد هذا التوحيد مسلما، فضلا عن أن يكون وليا لله أو من سادات الأولياء"[3].

- * * * *

---

[1] انظر: درء التعارض (1/227 – 228) ، نقض التأسيس (1/481) .

[2] الفناء: مصطلح من مصطلحات الصوفية ، ولهم في تعريفه عدة أقوال ، منها : -

الفناء بالفتح سقوط الأوصاف المذمومة كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة ، والفناء فناءان أحدهما ما ذكر وهو بكثرة الرياضة ، والثاني عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت ، وهو بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق .

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في شرح منازل السائرين في منزلة الفكرة لما تكلم على الفناء الذي يذكره الصوفية : وأصل هذا الفناء الاستغراق في توحيد الربوبية ، وهو رؤية تفرد الله بخلق الأشياء وملكها واختراعها وأنه ليس في الوجود قط إلا ما شاءه وكونه ، فيشهد ما اشتركت فيه المخلوقات من خلق الله إياها ومشيئته لها وقدرته عليها وشمول قيوميته وربو بيته لها. وهذا هو المقصود هنا . وللتوسع في معرفة أنواع الفناء , انظر : (ص) .

انظر: التعريفات للجرجاني (179) ، مجموع الفتاوى (2/313) ، شرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى (1/132)، مدارج السالكين (1/151-169).

[3] التدمرية (ص 186 - 187) ، وانظر : منهج ابن تيمية في الرد على الأشاعرة لعبد الرحمن المحمود (3/977 – 979) .

المسألة الثانية
العـذر بالجهـل

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب :

التمــهيـــد : في بيان أهمية المسألة .
المطـلـب الأول : المراد بالعذر بالجهل .
المطلب الثاني : الأقوال فيه .
المطلب الثالث : ضوابط العذر بالجهل .

المسألة الثانية
العـذر بالجهـل

من أهم المسائل التي تعرض لها الشيخ في هذا الكتاب مسألة "العذر بالجهل" ، وهذه المسألة وإن لم تكن من مسائل أصول الاعتقاد ، ولم يبحثها أهل العلم في الرسائل المؤلفة في عقيدة السلف ، حيث لم يطلق أحد من أهل العلم أن العذر هو عقيدة السلف ، أو عدم العذر هو عقيدة أهل السنة والجماعة ، وإنما بحثها أهل العلم في كتب الأحكام في أبواب "الردة" ، وفي كتب أصول الفقه في أبواب "عوارض الأهلية"[1]، إلا أن أهميتها في هذا الكتاب تظهر في احتجاج العراقي وانتزاعه لكلام أهل العلم في القول بالعذر بالجهل لتصحيح ما عليه عباد القبور ، وتقرير أنهم يؤجرون ولا يؤزرون ؛ لأنهم يعذرون بالجهل ، والجهل من أعظم الموانع التي تحول دون التكفير مطلقا دون ضوابط .

وسيكون بيان هذه المسألة من خلال ما يأتي :

التمـهيــد : في بيان أهمية المسالة .

المطلب الأول : المراد بالعذر بالجهل .

المطلب الثاني : الأقوال فيه .

المطلب الثالث : ضوابط العذر بالجهل .

التمهيد : في بيان أهمية المسألة

تبرز أهمية دراسة مسألة العذر بالجهل من خلال ما يأتي :

1- انتشار الجهل بالإسلام وأحكامه الذي نتج غالبا من التهاون في تصحيح العقائد والعبادات ، وترك طلب العلم الواجب .

---

[1] انظر : قواعد وضوابط التكفير والعذر بالجهل لخالد فوزي عبد الحميد ص 15 . وذكر الشيخ ابن عثيمين أن الاختلاف في مسألة العذر بالجهل من الاختلافات الفقهية الاجتهادية ، وربما يكون خلافا لفظيا في بعض الأحيان . شرح كشف الشبهات (ص50) .
وعوارض الأهلية هي: أوصاف غير لازمة بالمكلف تطرأ له بعد كمال أهليته ، فتزيلها أو تنقصها أو تغير بعض الأحكام المتعلقة بها . انظر: الأحكام للآمدي (1/152)، المستصفي للغزالي (1/48)

2- تلبيس أهل الضلال والبدع من الأئمة المضلين على المسلمين ، وتزيين الشرك والدعوة إليه ، ونشاطهم في ذلك ، فانتشر الشرك وعم الجهل .

3- فشو بعض وسائل الشرك ومظاهره ، بدأً بالتبرك البدعي ، وانتهاءً بالطواف حول القبور ، حتى أصبح ذلك من المألوفات ، وصار فعله من القربات في اعتقاد من يفعله . بل وصل بهم الأمر إلى اعتبار البحث في موضوع إخلاص العبادات لله ، وشرح ما يضادها من أنواع الشرك من الأمور المستنكرة ، لأنها تؤدي بزعمهم إلى التفرقة بين المسلمين ، وتكفير بعضهم ، والغلو في جزئيات لا ينبغي الوقوف عندها[1] .

وهكذا أصبحت الدعوة إلى تحقيق التوحيد ، وسد طرق الشرك ، والتحذير من وسائله حماية لجناب التوحيد الذي دعا إليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الأمور التي لا تعجب كثيرا من هؤلاء إن لم تثر سخطهم .

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكمـوا   من اللوم أوسدوا المكان الذي سدوا

فعاديتموه من سفاهة رأيكم وشيدتموا ركـنا من الغي قد هدوا [2]

4- انتشار الغلو في المخلوقين ، ودعاؤهم والاستغاثة بهم، والتوسل بالأموات منهم، والذبح والنذر لهم، وعبادة الطواغيت مع قلة دعاة التوحيد أحيانا ، والتضييق عليهم أحيانا أخرى .

5- عدم وجود السلطة الشرعية في أكثر البلاد الإسلامية التي تقيم الحجة ، وتستتيب من يقع في الشرك جهلا .

ولهذه الأسباب وغيرها انتشر الجهل بين المسلمين ، وتأكدت الحاجة إلى النظر في " الجهل " ، وهل يعد مانع من موانع التكفير .

المطلب الأول : المراد بالعذر بالجهل

المقصود بالعذر: الخروج من الذنب ، يقال : لي في هذا الأمر عذر ، وعذرى، ومعذرة : أي خروج من الذنب[3]. وعَذَرْت :

---

[1] انظر : (ص) .

[2] انظر : كشف الشبهتين لسليمان بن سحمان (24- 45) ، وبين أن الرد على أمثال هؤلاء من اتباع سبيل المؤمنين .

[3] لسان العرب (5/2854) .

أي مَحَوْتُ الإساءَة وطَمَسْتها[1]. والاعتذار : هو تحري الإنسان ما يمحو به أثر ذنبه[2] .

والمقصود بالجهل : خلو النفس من العلم ، هذا هو الأصل له.

وهو نوعان : بسيط : وهو عدم العلم عما من شأنه أن يعلم.

ومركب : وهو اعتقاد جازم غير مطابق ، سمي به لأنه يعتقد الشيء على خلاف ماهو عليه . فهذا جهل آخر قد تركبا معا[3].

ومقصود العلماء بالجهل الذي يعذر صاحبه أو لا يعذر، أن يقول قولا أو يفعل فعلا بخلاف ما حقه أن يقول أو يفعل ، أو يعتقد اعتقادا بخلاف ما هو عليه من الحق[4] .

ونعني بالعذر بالجهل : أن يكون الجهل سببا للمنع من لحوق العقاب بالمعين ، ولا يعني ذلك ألا نطلق على المعصية ما أطلقه الله ورسوله من كونها شركا أو كفرا ، أو أن صاحبها ملعون ، أو غير ذلك مما أطلقه الشرع ، ولا يعني ذلك أيضا التبرير لإبقاء الجهل ، وعدم رفعه قدر المستطاع ، يقول ابن تيمية – رحمه الله – في الجواب على من سأل عمّن يعاقب ، إذا كان المجتهد معذور ، والمقلد له معذور ، والجاهل معذور ؟ : " قلنا الجواب من وجوه :

أحدها – أن المقصود بيان أن هذا الفعل مقتض للعقوبة سواء وجد من يفعله أو لم يوجد ، فإذا فرض انه لا فاعل إلا وقد انتفى فيه شرط العقوبة ، أو قد قام به ما يمنعها لم يقدح هذا في كونه محرما، بل نعلم أنه محرم ليجتنبه من يتبين له التحريم ، ويكون من رحمة الله بمن فعله قيام عذر له ، ...هذا شأن جميع المحرمات المختلف فيها فإن تبين أنها حرام ، وإن كان قد يعذر من يفعلها مجتهدا أو مقلدا ، فإن ذلك لا يمنعنا أن نعتقد تحريمها.

الثاني - أن بيان الحكم سبب لزوال الشبهة المانعة من لحوق العقاب ، فإن العذر الحاصل بالاعتقاد ليس المقصود بقاءه ، بل المطلوب زواله بحسب الإمكان؛ ولولا هذا لما وجب بيان

---

[1] انظر : النهاية في غريب الحديث (3/197) .
[2] انظر : التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص508-509) .
[3] انظر : المفردات للراغب (ص 209) ، الكليات لأبي البقاء (ص 350) ، التعريفات للجرجاني (ص 93) .
[4] نواقض الإيمان الاعتقادية لمحمد الوهيبي (1/225) .

العلم ؛ ولكان ترك الناس على جهلهم خيرا لهم ؛ ولكان ترك دلائل المسائل المشتبهة خير من بيانها "[1].

المطلب الثاني : الأقوال فيه

*** تحرير محل النزاع :**

قبل أن أذكر الأقوال في " العذر بالجهل " يحسن التنبيه إلى أن الخلاف بين أهل السنة والجماعة كغيره من الاختلافات الفقهية الاجتهادية ، وربما يكون اختلافا لفظيا في بعض الأحيان من أجل تطبيق الحكم على الشخص المعين ، أي أن الجميع يتفقون على أن هذا القول كفر ، أو هذا الفعل كفر ، أو هذا الترك كفر ، ولكن هل يصدق الحكم على هذا الشخص المعين لقيام المقتضى في حقه ، وانتفاء المانع ، أو لا ينطبق لفوات بعض المقتضيات ، أو وجود بعض الموانع[2] .

أما الخلاف مع " عباد القبور " فهو خلاف معنوي ، وذلك لسببين :

الأول : أنهم يرون العذر بالجهل على إطلاقه دون ضوابط ولا محترزات ، حتى من قامت عليه الحجة يعذر بالجهالة ، وهذا لم يقل به أحد من أهل السنة ، حتى من يعذرون بالجهل قيدوا العذر بمن لم تقم عليه الحجة ، وجعلوا ضوابط لذلك وبينوا أن القول ليس على إطلاقه .

الثاني : أن عباد القبور جعلوا القول بالعذر بابا دخلوا منه للقول بتحسين ما عليه عباد القبور ، والدفاع عنهم ، والتشنيع على من أنكر عليهم ، وكفرهم بعد قيام الحجة .

ومما مر نبين أن محل النزاع ، الذي سأذكر الأقوال فيه ، هو : **حكم المسلم إذا وقع في الشرك كعبادة المقبورين من دون الله ، ولم تقم عليه الحجة لسبب من الأسباب ، هل يعذر بالجهالة ؟** ويخرج من محل النزاع صورتان :

الأولى – أن يكون المكفر واقع من شخص لم يدن بالإسلام ، ولم يكن يخطر بباله أن دينا يخالف ما هو عليه ، فهذا تجرى عليه أحكام الكفر الظاهر منه في الدنيا ، وأما في الآخرة فأمره إلى الله ، ويدخل فيه حكم أهل الفترة .

---

[1] انظر : مجموع الفتاوى (20/279) ، (22/16) .
[2] انظر : شرح كشف الشبهات لابن عثيمين (50-51) .

الثانية – أن يقع المكفر من شخص يدين بالإسلام ، وقامت عليه الحجة ، فهذا لم يقل أحد من أهل السنة بعذره ، وهذا النوع هم الذين تبنى ابن جرجيس الدفاع عنهم ، والقول بعذرهم ، ولبس في النقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية بالقول بعذرهم، وقال الشيخ عبداللطيف – رحمه الله - في الرد عليه : " فهذا هو الذي تمسك به العراقي ، أعني على هذا الكلام الأخير ، وظن أنه له لا عليه ، وهذا غلط ظاهر وجهل مستبين ، فإن النزاع[1] فيمن قامت عليه الحجة ، وعرف التوحيد، ثم تبين في عداوته ومسبته ورده ، كما فعل هذا العراقي ، أو أعرض عنه ولم يرفع به رأسا، كحال جمهور عباد القبور، أو لم يعلم لكن تمكن من العلم ومعرفة الهدى فأخلد إلى الأرض واتبع هواه ، ولم يلتفت إلى ما جاءت به الرسل، ولا اهتم به"[2].

وقد اختلف أهل العلم – رحمهم الله تعالى – في المسألة التي هي محل النزاع على قولين :

القول الأول : إن المسلم إذا وقع في الشرك لا يعذر بالجهل وإن لم تقم عليه الحجة .

قالوا : أصل الدين هو معرفة الله عز وجل وعبادته وحده لا شريك له ، وهذا لا عذر فيه بالجهل ، سواء وجدت مظنة العلم – كدار الإسلام- أم لم توجد – كدار الحرب- وسواء ثبتت إقامة الحجة أم لم تثبت ، ويجب اعتبار الجاهل فيه كافرا في ظاهر الأمر[3].

ومن الأدلة التي استدلوا بها :

1- قوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (لأعراف:172) .

وهذا أظهر أدلتهم التي استدلوا بها ، وقالوا : " فلما أخذ الميثاق ارتفع الجهل"[4]. ونقلوا جملة من أقوال المفسرين حول

---

[1] أي : النزاع مع عباد القبور .
[2] انظر : (ص) .
[3] الجواب المفيد في حكم جاهل التوحيد لأبي عبد الله عبد الرحمن بن عبد الحميد (ص 16 ، 17) .
[4] ضوابط التكفير والعذر بالجهل (23) .

هذه الآية ، ومن ذلك قول ابن كثير[1] : " المراد بهذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك "[2].

2 - استدلوا ببعض الأحاديث الدالة على الحكم على المشركين في الجاهلية من أهل الفترة أنهم من أهل النار، ومنها ما رواه مسلم في صحيحه : عن أنس – رضي الله عنه - أن رجلا قال : يا رسول الله ، أين أبي؟ قال: "في النار" . قال: فلما قفى الرجل دعاه فقال : " إن أبي وأباك في النار"[3].

قالوا : " يتضح من الأحاديث السابقة أن جهل من مضى قبل بعثة الرسول بالتوحيد، لم يكن عذرا لهم سواء في الحكم عليهم في الدنيا بظاهر أمرهم، أو في حقيقة أمرهم عند الله تعالى، وذلك بإخبار الرسول أنهم في النار"[4].

ثم نقلوا بعض أقوال العلماء لتأييد ما ذهبوا إليه ، ومن ذلك :

* ما نقلوه عن ابن تيمية : " وهذا إذا كان في المقالات الخفية ، فقد يقال: أنه فيها مخطئ ضال لم تقم عليه الحجة التي يكفر صاحبها ، لكن ذلك يقع في طوائف منهم في الأمور الظاهرة التي تعلم العامة والخاصة من المسلمين أنها من دين المسلمين ، بل اليهود والنصارى يعلمون أن محمدا بعث بها ، وكفر مخالفها ، مثل أمره بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهيه عن عبادة أحد سوى الله من الملائكة والنبيين والشمس والقمر والكواكب والأصنام وغير ذلك ، فإن هذا أظهر شعائر الإسلام.."[5] .

* ما نقل عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب في عدم العذر بالجهل في مسائل أصول الدين ، ومن ذلك قوله : " وأفادك أيضا الخوف العظيم ، فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه ، وقد يقولها وهو جاهل فلا يعذر بالجهل.."[6].

---

[1] هو : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي ، الفقيه الشافعي ، الحافظ عماد الدين المعروف بالحافظ ابن كثير ، ولد سنة (700هـ) ، وقدم دمشق ولازم الحافظ المزي ، وتزوج ابنته ، وسمع عليه أكثر تصانيفه ، وكان كثير الاستحضار وقليل النسيان ، وأخذ عن الشيخ تقي الدين ابن تيمية فأكثر عنه وصنف التصانيف الكثيرة في التفسير والتاريخ والأحكام . انظر : الدرر الكامنة (1/373) ، البدر الطالع (1/153) .

[2] تفسير ابن كثير (2/418) . وانظر : الجواب المفيد (17- 24) .

[3] رواه مسلم (1/196) . "باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار".

[4] الجواب المفيد ص 25.

[5] مجموع الفتاوى (4/54) .

[6] شرح كشف الشبهات لابن عثيمين ص 46.

القول الثاني : إن المسلم إذا وقع في الشرك ولم تقم عليه الحجة يعذر بالجهل[1].

ومن الأدلة التي استدلوا بها :

1- عموم بعض الآيات ، كقوله تعالى (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً) (النساء:165) ، وقوله (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)(الإسراء: من الآية15).

2- حديث الرجل من بني إسرائيل الذي أمر أهله بإحراقه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " كان رجل يسرف على نفسه ، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم أطحنوني، ثم ذروني في الريح ، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: أجمعي ما فيك منه، ففعلت إذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت ؟ قال: يارب خشيتك ، فغفر له"[2].

وهذا من أصرح الأدلة للقائلين بالعذر بالجهل[3] **:** " قال ابن عبد البر[4] : " وأما جهل هذا الرجل المذكور في هذا الحديث بصفة من صفات الله في علمه وقدرته فليس ذلك بمخرجه من الإيمان "[5].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقا على هذا الحديث : " فهذا الرجل ظن أن الله لا يقدر عليه إذا تفرق هذا التفرق ، فظن أنه لا يعيده إذا صار كذلك ، وكل واحد من إنكار قدرة الله

---

[1] انظر : مجموع الفتاوى (11/407) .

[2] أخرجه البخاري في عدة مواضع منها: (3/1283) [كتاب الأنبياء ، باب (52) (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم)] ، واللفظ له ، ومسلم (4/2210) [كتاب التوبة / باب في سعة رحمة الله ، وأنها سبقت غضبه] مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه ، ورواه ابن حبان في صحيحه (2/417) ، والطحاوي في شرح مشكل الآثار [باب : بيان مشكل ما روي عنه عليه السلام في الرجل الذي أوصى بنيه إذا مات أن يحرقوه ، ثم يسحقوه ، ثم يذروه ، في الريح في البر والبحر ، وفي غفران الله له مع ذلك] (2/27-38) ، وجمع طرقه .

[3] وقد أطلت في ذكر النقول على هذا الحديث لسببين : الأول – لأنه أصرح حديث للقائلين بالعذر بالجهل ، وهو القول الذي ترجح لي – والله أعلم - . الثاني – لتكرر وروده في " منهاج التأسيس " وهو الكتاب المحقق .

[4] هو : العلامة الحافظ أبو عمر بن عبد البر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، أحد الأعلام ، وصاحب التصانيف ، إمام عصره في الحديث والاثر وما يتعلق بهما، توفي (463هـ) ، وله خمس وتسعون سنة . انظر : شذرات الذهب (2/315) ، سير أعلام النبلاء (18/153).

[5] التمهيد (18/46-47) .

تعالى ، وإنكار معاد الأبدان وإن تفرقت كفر، لكنه كان مع إيمانه بالله وإيمانه بأمر وخشيته منه جاهلا بذلك ، ضالا في هذا الظن مخطئا، فغفر الله له ذلك[1] ، والحديث صريح في أن الرجل طمع أن لا يعيده إذا فعل ذلك، وأدنى هذا أن يكون شاكا في المعاد ، وذلك كفر إذا قامت حجة النبوة على منكره حكم بكفره ..."[2].، وقال في موضع آخر : " فهذا الرجل كان قد وقع له الشك ، والجهل في قدرة الله تعالى على إعادة ابن آدم بعد ما أحرق وذري ، وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك ، وهذان أصلان عظيمان :

أحدهما - متعلق بالله تعالى ، وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير .

والثاني - متعلق باليوم الآخر ، وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت ، ويجزيه على أعماله ، ومع هذا فلما كان مؤمنا بالله في الجملة ، ومؤمنا باليوم الآخر في الجملة : وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت ، وقد عمل عملا صالحا : وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه ؛ غفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح "[3].

وقال ابن الوزير[4] : " وهذا أرجى حديث لأهل الخطأ في التأويل "[5] .

---

[1] وقد ذكر الطحاوي في " شرح مشكل الآثار " قريبا من هذا القول - وإن رجح غيره - ، حيث قال: " غير أن قوما أخرجوا لحديث معاوية بن حيدة معنى ، وهو أنهم جعلوا قوله : " لعلي أضل الله" جهلا منه بلطيف قدرة الله ، مع إيمانه به جل وعز ، فجعلوه بخشيته عقوبته مؤمنا ، وبطمعه أن يضله جاهلا ، فكان الغفران من الله تعالى له بإيمانه ، ولم يؤاخذه بجهله الذي لم يخرجه من الإيمان به إلى الكفر به تعالى " (2/38) .

[2] مجموع الفتاوى (11/409).

[3] مجموع الفتاوى (12/491) .

[4] هو : محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل ، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ، المعروف بابن الوزير ، ولد سنة 775 إمام مجتهد ، له عدة تصانيف ، من أشهرها مصنفه في الرد على الزيدية " العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبى القاسم " ، توفي سنة 840هـ . نظر : البدر الطالع (2/81) .

[5] إيثار الحق على الخلق (436) .

وقال ابن حجر[1] : " قال الخطابي[2] قد يستشكل هذا فيقال كيف يغفر له وهو منكر للبعث ، والقدرة على إحياء الموتى ؟! والجواب أنه لم ينكر البعث ، وإنما جهل فظن أنه إذا فعل به ذلك لا يعاد فلا يعذب ، وقد ظهر إيمانه باعترافه بأنه إنما فعل ذلك من خشية الله ، قال ابن قتيبة : " قد يغلط فيه قوم من المسلمين فلا يكفرون بذلك " ، ورده ابن الجوزي وقال : " جحده صفة القدرة كفر اتفاقا ، وإنما قيل : إن معنى قوله : " لإن قدر الله عليّ " ، أي : ضيق ، وهي كقوله : (ومن قدر عليه رزقه) أي : ضيق "[3] ، وأما قوله : " لعلي أضل الله " فمعناه : لعلي أفوته ، يقال ضل الشيء إذا فات وذهب ، وهو كقوله (لا يضل ربي لا ينسى)، ولعل هذا الرجل قال ذلك من شدة جزعه وخوفه ، كما غلط ذلك الآخر ، فقال: "أنت عبدي وأنا ربك " ، أو يكون قوله : " لإن قدر علي " - بتشديد الدال – أي: قدر على أن يعذبني ليعذبني ، أو على أنه كان مثبتا للصانع ، وكان في زمن الفترة ، فلم تبلغه شرائط الإيمان . وأظهر الأقوال : أنه قال ذلك في حال دهشته، وغلبة الخوف عليه، حتى ذهب بعقله لما يقول ، ولم يقله قاصدا لحقيقة معناه بل في حالة كان فيها كالغافل والذاهل والناسي الذي لا يؤاخذ بما يصدر منه "[4].

وقد رد ابن حزم[5] – رحمه الله – على مثل هذه التأويلات مؤكدا أنه إنما عذر بالجهالة ، حيث قال : " قال أبو محمد فهذا إنسان جهل إلى أن مات أن الله عز وجل يقدر على جمع رماده وإحيائه ، وقد غفر له لإقراره وخوفه وجهله ، وقد قال بعض من يحرف الكلم عن مواضعه : أن معنى " لئن قدر الله علي " : إنما هو لئن ضيق الله علي ، كما قال تعالى : (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ

---

[1] هو : أحمد بن علي بن محمد ، أبو الفضل ، الكناني ، العسقلاني ، الشافعي ، المعروف بابن حجر ، وهو لقب لبعض آبائه ، أصله من " عسقلان " بفلسطين ، ومولده ووفاته بالقاهرة ، الحافظ ، الشهير ، المنفرد بمعرفة الحديث وعلله ، له مؤلفات كثيرة ، توفي سنة (852هـ) . انظر : البدر الطالع (1/87) ، وترجمته في آخر كتابه الدرر الكامنة لهاشم الندوي (4/492) .

[2] هو : حمد بن محمد أبو سليمان الخطابي البستي ، المحدث ، اللغوي ، من الأئمة الأعيان ، له عدة تصانيف من أشهرها ، كتاب " معالم السنن في شرح سنن أبي داود " ، توفي ببست سنة (388هـ) .
انظر : طبقات الشافعية الكبرى (3/282) ، سير أعلام النبلاء (17/23) .

[3] ورجح هذا القول الطحاوي في شرح مشكل الآثار (2/38) .

[4] فتح الباري (6/522-523) .

[5] أبو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأموي مولاهم الفارسي الأصل الأندلسي القرطبي الظاهري صاحب المصنفات ، كان شافعيا ثم أصبح ظاهريا ، له عدة تصانيف ، مات سنة (456هـ) . انظر : سير أعلام النبلاء (18/184) ، شذرات الذهب (2/299) .

عَلَيْهِ رِزْقَهُ)(الفجر:16) ، قال أبو محمد : وهذا تأويل باطل لا يمكن ؛ لأنه كان يكون معناه حينئذ : لئن ضيق الله علي ليضيقن علي ، وأيضا فلو كان هذا لما كان لأمره بأن يحرق ويذر رماده معنى ، ولا شك في أنه إنما أمره بذلك ليفلت من عذاب الله تعالى ، قال أبو محمد : وأبين من شيء في هذا قول الله تعالى : (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ) إلى قوله : (وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا)(المائدة:112-113) ، فهؤلاء الحواريون الذين أثنى الله عز وجل عليهم قد قالوا بالجهل لعيسى - عليه السلام-: هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ ولم يبطل بذلك إيمانهم ، وهذا ما لا مخلص منه ، وإنما كانوا يكفرون لو قالوا ذلك بعد قيام الحجة وتبيينهم لها"[1].

وكذلك ردها ابن تيمية – رحمه الله – حيث قال : " ومن تأول قوله لئن قدر الله على بمعنى " قضى " ، أو بمعنى " ضيّق " ، فقد أبعد النجعة ، وحرف الكلم عن مواضعه ، فإنه إنما أمر بتحريقه وتفريقه لئلا يجمع ويعاد ، وقال : " إذا أنا مت فأحرقوني ، ثم اسحقوني ، ثم ذروني في الريح في البحر ، فوالله لئن قدر علي ربى ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا " .

فذكر هذه الجملة الثانية بحرف الفاء عقيب الأولى يدل على أنه سبب لها ، وأنه فعل ذلك لئلا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك ، فلو كان مقرا بقدرة الله عليه إذا فعل ذلك كقدرته عليه إذا لم يفعل لم يكن في ذلك فائدة له ؛ ولأن التقدير عليه والتضييق موافقان للتعذيب ، وهو قد جعل تفريقه مغايرا ؛ لأن يقدر الرب . قال: فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا من العالمين . فلا يكون الشرط هو الجزاء ؛ ولأنه لو كان مراده ذلك لقال : فوالله لئن جازاني ربى ، أو لئن عاقبني ربى ليعذبني عذابا ، كما هو الخطاب المعروف في مثل ذلك ؛ ولأن لفظ "قدر" بمعنى : ضيّق . لا أصل له في اللغة ، ومن استشهد على ذلك بقوله : (وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ)(سبأ:11) ، وقوله : (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ)(الطلاق:7) فقد استشهد بمالا يشهد له ، فإن اللفظ كان بقوله : (وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ) أي : اجعل ذلك بقدر ولا تزد ولا تنقص. وقوله : (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) أي : جعل رزقه قدر ما يغنيه من غير فضل ، إذ لو ينقص الرزق عن ذلك لم يعش .

---

[1] الفصل في الملل والأهواء والنحل (3/140-141) .

وأما "قدر" بمعنى : قدّر . أي : أراد تقدير الخير والشر ، فهو لم يقل : "إن قدّر علي ربي العذاب" ، بل قال : " لئن قدر علي ربي" ، والتقدير يتناول النوعين ، فلا يصح أن يقال : لئن قضى الله علي ؛ لأنه قد مضى ، وتقرر عليه ما ينفعه وما يضره ؛ ولأنه لو كان المراد التقدير ، أو التضييق لم يكن ما فعله مانعا من ذلك في ظنه ، ودلائل فساد هذا التحريف كثيرة ليس هذا موضع بسطها، فغاية ما في هذا أنه كان رجلا لم يكن عالما بجميع ما يستحقه الله من الصفات، وبتفصيل أنه القادر ، وكثير من المؤمنين قد يجهل مثل ذلك فلا يكون كافرا "[1].

3- ومن الأدلة أيضا حديث حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : " يدرس الإسلام كما يدرس وشي[2] الثوب ، حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة ، وليسري على كتاب الله عز وجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية ، وتبقى طوائف من الناس ، الشيخ الكبير والعجوز، يقولون: أدركنا أباءنا على هذه الكلمة : لا إله ألا الله فنحن نقولها" ، فقال له صلة[3]: ما تغني عنهم " لا إله إلا الله " وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة ؟ فأعرض عنه حذيفة ، ثم ردها عليه ثلاثا كل ذلك يعرض عنه حذيفة ، ثم أقبل عليه في الثالثة ، فقال : ياصلة تنجيهم من النار ثلاثا[4].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - : " وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة التي يندرس فيها كثير من علوم النبوات ، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة ، فلا يعلم كثيرا مما بعث الله به رسوله، ولا يكون هناك من يبلغه ذلك ، ومثل هذا لا يكفر ؛ ولهذا اتفق الأئمة

---

[1] مجموع الفتاوى (11/410-411) ، وانظر : بغية المرتاد : (310) .

[2] وشي الثوب : نقشه . ووشاه وشيا : أي نسجه ، وحسنه ، ولونه ، وزينه . انظر : القاموس المحيط (1730) ، لسان العرب : (8/4846) .

[3] هو : صلة بن زفر العبسي ، أبو العلاء ، ويقال أبو بكر ، الكوفي ، روى عن عمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان ، وابن مسعود ، وعلي، وابن عباس ، تابعي كبير ، ثقة فاضل ، مخرج له في الكتب كلها ، توفي في زمن مصعب بن الزبير ، وولايته على العراق . انظر : الطبقات الكبرى لابن سعد (6/195) ، سير أعلام النبلاء (4/517) ، تهذيب التهذيب (4/384) .

[4] رواه : ابن ماجة (4/384) (كتاب الفتن / باب : ذهاب القرآن والعلم) ، وصحح إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة (3/254) ، ورواه الحاكم في المستدرك (4/473) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في شعب الإيمان (2/356) رقم (636). وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (87) .

على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان ، وكان حديث العهد بالإسلام فأنكر هذه الأحكام الظاهرة المتوترة ؛ فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول ، ولهذا جاء في الحديث : " يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة .. ثم ذكر بقية الحديث "[1].

مناقشة أدلة القول الأول

1- أما استدلالهم في الآية ، فلا يلزم منها اعتبار الميثاق حجة مستقلة دون إرسال الرسل ، وليس في كلام المفسرين ما يدل صراحة على هذا ، وإنما كلام بعضهم عام يحتمل هذا وغيره ، وكلام الآخرين صريح في أنه لا بد من بلوغ الحجة[2].

قال ابن بطة[3] – رحمه الله - : " فجعل تقريرهم بوحدانيته لما أخرجهم من ظهر آدم - صلى الله عليه وسلم - حجة عليهم إذا أنكروا في الدنيا ما كانوا عرفوه في الذر الأول ، ثم من بعد الإقرار جحدوه "[4].

وقال الشنقيطي[5] – رحمه الله - : " إن مقتضى القول الأول أن ما أقام الله لهم من البراهين القطعية كخلق السموات والأرض ، وما فيهما من غرائب صنع الله ، الدالة على أنه الرب المعبود وحده ، وما ركز فيهم من الفطرة التي فطرهم عليها تقوم عليهم به الحجة ، ولو لم يأتهم نذير ، والآيات القرآنية مصرحة بكثرة بأن الله تعالى لا يعذب أحدا حتى يقيم عليه الحجة بإنذار الرسل ، وهو دليل على عدم الاكتفاء بما نصب من الأدلة ، وما ركز من الفطرة فمن ذلك قوله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) ، فإنه قال فيها : حتى نبعث رسولا ، ولم يقل: حتى نخلق عقولا ، وننصب أدلة ، ونركز فطرة ...فصرح بأن الذي تقوم به الحجة على الناس ، وينقطع به عذرهم : هو إنذار الرسل لا نصب الأدلة والخلق على الفطرة "[6].

---

1 مجموع الفتاوى (11/407) .
2 انظر : نواقض الإيمان الاعتقادية لمحمد الوهيبي (1/254-258) .
3 سبق (ص   ) .
4 الإبانة لابن بطة (1/234) .
5 هو : محمد الأمين بن محمد المختار الجكني ، ولد عام (1325هـ) بشنقيط ، واجتهد في طلب العلم ، برع في التفسير والأصول ، له مؤلفات كثيرة ، توفي بمكة سنة (1393هـ) . انظر : ترجمة الشيخ عطية سالم له في آخر الجزء التاسع من أضواء البيان .
6 أضواء البيان (2/335-338) .

2- أما الاستدلال بحكم أهل الفترة في الدنيا والآخرة ، فلا علاقة له في هذه المسألة ، حيث أن محل النزاع حول المسلم الذي ثبت له عقد الإسلام ووقع في شيء من الكفر العملي أو الشرك جاهلا ذلك ، والأحاديث في حكم من مات قبل بعثة محمد ، وفيه حكم من لم تبلغهم الدعوة أصلا، أي في أناس كفار كفرا أصليا، فلا مجال للقياس بين المسألتين [1].

الجواب عن ما نقلوه عن بعض الأئمة :

* شيخ الإسلام ابن تيمية : بجمع أقواله – رحمه الله – في هذه المسألة يتبين أن مذهبه – رحمه الله – يتلخص بما يأتي : أن من وقع في عمل من أعمال الكفر – سواء كان ذلك في العقائد أو الأحكام ، وسواء كان في المسائل الظاهرة أو الخفية ، بما في ذلك الوقوع في الشرك- وكان جاهلا للحكم ، مثل أن يكون حديث عهد بإسلام ، أو نشأ ببادية بعيده ، فإنه لا يكفر حتى تقام عليه الحجة، يقول – رحمه الله - : " ومن أثبت لغير الله مالا يكون إلا لله فهو كافر إذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها"[2].

وبين – رحمه الله - أن الاعتبار بالتكفير بقيام الحجة ، بصرف النظر عن كون المسألة من العقائد أو الأحكام ، أو من الفرائض الظاهرة المتواترة أو غير ذلك ، قال – رحمه الله - : "..وأما الفرائض الأربع فإذا جحد وجوب شيء منها بعد بلوغ الحجة فهو كافر ، وكذلك من جحد تحريم شيء من المحرمات الظاهرة المتواتر تحريمها كالفواحش والظلم والكذب والخمر ونحو ذلك ، وأما من لم تقم عليه الحجة ، مثل أن يكون حديث عهد بالإسلام ، أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه فيها شرائع الإسلام ، ونحو ذلك ، أو غلط فظن أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستثنون من تحريم الخمر ؛ كما غلط في ذلك الذين استتابهم عمر ، وأمثال ذلك ، فإنهم يستتابون وتقام الحجة عليهم ، فإن أصروا كفروا حينئذ ، ولا يحكم بكفرهم قبل ذلك كما لم يحكم الصحابة بكفر قدامة بن مظعون وأصحابه لما غلطوا فيما غلطوا فيه من التأويل "[3].

---

[1] نواقض الإيمان الاعتقادية (1/258 – 259) ، وانظر (ص) .
[2] مجموع الفتاوى (1/112) ، وانظر : بغية المرتاد لابن تيمية (353 - 354) ، ولجمع أقوال ابن تيمية انظر : سعة رحمة رب العالمين للسيد بن سعد الدين الغباشي (20-28) ، نواقض الإيمان الاعتقادية (1/256).
[3] مجموع الفتاوى (7/609-610) .

أما النص الذي نقلوه عنه ، فكلامه على طائفة خاصة من المتكلمين الذين انسلخوا عن الدين في أشياء ظاهرة مع ادعائهم العلم [1]، ومثل هؤلاء لا يعذرون في جهل مثل هذه الأمور ، قال – رحمه الله - : " لكن ذلك يقع في طوائف منهم في الأمور الظاهرة التي تعلم العامة والخاصة من المسلمين أنها من دين المسلمين"[2].

* الشيخ محمد بن عبد الوهاب : اختلفت النقول عن الشيخ – رحمه الله – فهناك من ينسب له عدم العذر بالجهل في مسألة الشرك ونحوها ، وهناك من ينقل عنه خلاف ذلك .

وبجمع أقواله – رحمه الله – في هذه المسألة ، يتبين مذهبه الحق الذي لم يخالف فيه أهل السنة والجماعة والتزامه – رحمه الله – الكف عن تكفير المعين إلا بعد قيام الحجة[3].

ومن أقواله – رحمه الله - : " وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبر عبد القادر ، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي ، وأمثالهما ؛ لأجل جهلهم وعدم من ينبههم ، فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا ، أو لم يكفر ويقاتل ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم "[4].

ويقول الشيخ – رحمه الله – في موضع آخر: " وأما التكفير: فأنا أكفر من عرف دين الرسل ، ثم بعد ما عرفه سبه ، ونهى الناس عنه ، وعادى من فعله ، فهذا هو الذي أكفره ، وأكثر الأمة ولله الحمد ليس كذلك "[5].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن – رحمه الله - : " وقال شيخنا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: سألني الشريف عما نقاتل عليه ، وما نكفر به ؟ فقال في الجواب : إنا لا نقاتل إلا على ما أجمع عليه العلماء كلهم ، وهو الشهادتان بعد التعريف إذا عرف ثم أنكر "[6].

---

[1] انظر : سعة رحمة رب العالمين (19-20) .
[2] مجموع الفتاوى (4/53-55) .
[3] انظر : مجموعة مؤلفات الشيخ (المجلد الثاني / قسم الفتاوى والمسائل/ص 3-9) ، سعة رحمة رب العالمين لسيد بن سعد الدين الغباشي (20-28) ودعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (170 – 177) ، نواقض الإيمان الاعتقادية (1/268) .
[4] مجموعة مؤلفات الشيخ (المجلد الثاني / قسم الفتاوى والمسائل / ص 5-6) .
[5] رسالته إلى السويدي (المجلد الثالث / قسم الرسائل الشخصية / ص22) .
[6] المورد العذب الزلال (ص 186) ضمن مجموعة عقيدة الموحدين جمع عبدالله الغامدي العبدلي .

فهذه النصوص صريحة في عدم تكفير المعين إلا بعد قيام الحجة .

أما ما يستدل به من قال بعدم العذر بالجهل في مسائل أصول الدين فأشهرها قوله – رحمه الله - : " فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه، وقد يقولها وهو جاهل فلا يعذر بالجهل "[1].

فإن النص لا يخالف ما نقل عن الشيخ – رحمه الله - ، فإن على المسلم أن يتعلم التوحيد ، ويتجنب كل ما ينافي الوحدانية من خوف أو نذر أو ذبح .. ومن فعل ذلك في دار العلم ، أو فعل شيئا من هذه الأمور مما لا يجهلها مثله ، لم يعذر بالجهل ، فالعذر بالجهل ليس مطلقا لكل أحد ، لكن لا يمكن أن يفهم من النص أن الإمام يكفر الجاهل إذا تكلم بالكفر وهو لا يدري ..[2]

وقد بين أئمة الدعوة مذهب الشيخ بيانا واضحا في مؤلفاتهم ، يؤكدون ويقررون أن الشيخ لا يكفر المعين إلا بعد قيام الحجة ، وأنه – رحمه الله – يعذر بالجهل وقد تقدمت النصوص في ذلك .

وقال الشيخ ابن عثيمين[3] – رحمه الله – في تعليقه على هذه العبارة : " لا أظن الشيخ – رحمه الله – لا يرى العذر بالجهل ..لأن له كلاما آخر يدل على العذر بالجهل "[4].

ومما سبق يتبين أن القول الراجح – والله أعلم - ، هو قول من يعذر بالجهل قبل بلوغ الحجة ، يقول ابن تيمية : " وليس لأحد أن يكفر أحدا من المسلمين ، وإن أخطأ وغلط ، حتى تقام عليه الحجة ، وتبين له المحجة ، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل عنه ذلك بالشك ، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة ، وإزالة الشبهة "[5].

وقال ابن حزم : " وأما ما لم تقم الحجة على المخالف للحق في أي شيء كان فلا يكون كافرا "[6].

---

[1] شرح كشف الشبهات (46) .

[2] انظر : نواقض الإيمان الاعتقادية (1/270-271) .

[3] هو : أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين الوهيبي التميمي ، ولد في مدينة عنيزة سنة (1347هـ) ، عالم جليل ، له عدة مؤلفات ، توفي سنة (1422هـ) ودفن في مكة المكرمة .
انظر : مقدمة كتاب شرح كشف الشبهات (11-14) .

[4] شرح كشف الشبهات للشيخ ابن عثيمين (46-47) .

[5] مجموع الفتاوى (12/465) .

[6] الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (4/17) .

وقال الشيخ ابن عثيمين : " وإذا كان هذا مقتضى نصوص الكتاب ، والسنة، وكلام أهل العلم ، فهو مقتضى حكمة الله – تعالى – ولطفه ، ورأفته ، فلن يعذب أحدا حتى يعذر إليه ، والعقول لا تستقل بمعرفة ما يجب لله تعالى من الحقوق ، ولو كانت تستقل بذلك لم تتوقف الحجة على إرسال الرسل .

فالأصل فيمن ينتسب للإسلام بقاء إسلامه حتى يتحقق زوال ذلك عنه بمقتضى الدليل الشرعي ، ولا يجوز التساهل في تكفيره "[1] .

*** كيفية قيام الحجة**

والمقصود بالحجة : شرع الله ووحيه ، وهما حجته على خلقه .

ويكون قيام الحجة بالتبليغ لمن كان جاهلا ، وإزالة اللبس عمن كان عنده شبهة ، أو تأويل ، يقول ابن القيم : " إن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أخرى ، كما أنها تقوم على شخص دون آخر ؛ إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون ؛ وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان يترجم له ، فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئا ، ولا يتمكن من الفهم ، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة."[2]

وقال ابن تيمية : " فمعلوم أن الحجة إنما تقوم بالقرآن على من بلغه ، كقوله تعالى : (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)(الأنعام: من الآية19) ، فمن بلغه بعض القرآن دون بعض ، قامت عليه الحجة بما بلغه دون مالم يبلغه"[3] .

ومقصود الأئمة من بلوغ القرآن ، هو البلاغ التام الواضح الذي لايبقى معه لبس، وهذا راجع لشيئين ، هما:

الأول – وضوح القرآن في ذاته وبخاصة في الكليات الاعتقادية من أمر بتوحيد الله تعالى في المعرفة والإثبات ، والطاعة والإتباع، والنهي عن الإشراك به تعالى...

---

[1] شرح كشف الشبهات (55) .

[2] طريق الهجرتين (571) .

[3] الجواب الصحيح (2/293) .

الثاني - أن المبلغ يكون من أهل التبليغ العالمين ، إذ بهم تقوم الحجة.

فأهل العلم يعلمون اللبس الحاصل عند من انحرف بسبب شبهة أو تأويل، فيزيل عنه هذه الشبهة وتقوم عليه الحجة .

يقول الشيخ عبد اللطيف – رحمه الله - : " ومن الذي يبلغ وينقل نصوص الكتاب والسنة غير أهل العلم ورثة الرسل ؟ فإن كانت الحجة لا تقوم بهم وببيانهم أن هذا من عند الله وهذا كلام رسوله ، فلا حجة بالوحيين ، إذ النقل والتعريف يتوقف على أهل التعريف ، كما أن بيان المعاني المقصودة والتأويلات المرادة يتوقف على أهل العلم ، وتقوم الحجة بهم ، وهو نواب الرسول ﷺ في الإبلاغ عنه وقيام الحجة بهم.."[1].

ويقول ابن سحمان – رحمه الله - : " والذي يظهر لي – والله أعلم – أنها لا تقوم الحجة إلا بمن يحسن إقامتها، وأما من لا يحسن إقامتها كالجاهل الذي لا يعرف أحكام دينه ولا ما ذكره العلماء في ذلك، فإنه لا تقوم به الحجة فيما أعلم– والله أعلم–"[2].

فينبغي أن يقوم بإبلاغ الحجة من يحسنها ولا يجهل أمور الدين ، أو لا يجيد الجواب على شبهات المبتدعين، فيزيدهم تمسكا بباطلهم، ويكون سببا في الإضلال لا في الهداية .

*** لابد في إقامة الحجة من رفع الشبهة:**

ولا بد في إقامة الحجة من قطع الشبهات للجاهل المخالف ، والاستدلال بنصوص الكتاب والسنة وتفسير الأئمة المشهورين ، قال ابن حزم : " أن تبلغه فلا يكون عنده شيء يقاومها"[3].

وإذا عرض للإنسان جهل في أي مسألة من مسائل الدين ولم يستطع دفعه ، فإنه يكون له عذرا حتى يبين له ، لا فرق بين مسائل ظهر دليلها أو أخرى خفية والمناط فيها هو قيام الحجة الشرعية، والتمكن من العلم بها وفهمها[4].

ولا يحكم بقيام الحجة على شخص إلا برفع الشبهة التي قد تكون وردت عليه وشوشت فهم الحجة على الحقيقة .

---

[1] مصباح الظلام ص 123

[2] منهاج أهل الحق والاتباع : ص 68 ، وانظر : الجهل وأحكامه ص 273 – 274 .

[3] الإحكام في أصول الأحكام (1/67) .

[4] الجهل بمسائل الاعتقاد ص 317.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: " من لم يفهم الدعوة ، لم تقم عليه الحجة "[1].

وعلى هذا فقيام الحجة لا يكفي فيه مجرد بلوغها، بل لابد مع ذلك من فهم تلك الحجة ، وألا تعرض للمعين شبهة معتبرة تمنعه من اعتقاد ما هو مقتضى تلك الحجة ، وإلا كان معذورا إذا تأولها ، لا فرق في ذلك بين الشبهة في المقالات الخفية وغيرها ، ولا الشبهة عند من نشأ ببادية ، أو كان حديث عهد بالإسلام ، أو لم يكن كذلك[2].

والمقصود بالشبهة : الالتباس . وقيل : مشابهة الحق للباطل ، والباطل للحق من وجه إذا حقق النظر فيه ذهب[3] .

وإذا ذكر العلماء وجوب رفع الشبهة في إقامة الحجة ، فهل هذا على الإطلاق ؟ يقيد العلماء الشبهة بقولهم : " التي يعذر الله بها " ، فيقول شيخ الإسلام مثلا: "وقد عرضت له شبهات يعذره الله فيها"[4].

ويقول الشيخ عبد اللطيف : " وليس في كلام الشيخ – ابن تيمية- العذر بكل شبهة، ولا العذر بجنس الشبهة ؛ فإن هذا لا يفيده كلام الشيخ ولا يفهمه منه إلا من لم يمارس شيئا من العلوم، بل عبارته صريحة في إبطال هذا المفهوم ، فإنها تفيد قلة هذا كما في المسائل التي لا يعرفها إلا الآحاد "[5].

فالمقصود أن الشبهة التي ترد على الإنسان فيما يتعلق بأمر التوحيد ، وإفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة بعد أن تبلغه الأدلة ويرتفع عنه الجهل ، لا تكون عذرا للإنسان ، فالمشركين عبدوا مع لله غيره واحتجوا ببعض الشبه ولم تقبل منهم[6]؛ لأن أمر التوحيد مما لا يدخل عليه الشبه إلا من معاند لفطرته .

وإن كان في الشبهة نوع جهل ، إلا أنه جهل لا يعذر فيه فيما يتعلق بالتوحيد ، لوضوح أدلته ، بخلاف من لا تبلغه الأدلة أصلا ، أو تبلغه محرفة، فهذا هو الجاهل المعذور .

*** الفرق بين فهم الحجة وقيام الحجة**

---

[1] مجموعة الرسائل النجدية (5/514).
[2] ضوابط التكفير عند أهل السنة لعبد الله القرني ص 246.
[3] انظر : المفردات للراغب (373) ، القاموس المحيط (1610) ، التوقيف على مهمات التعاريف (422) .
[4] مجموع الفتاوى (23/326) .
[5] المطبوع ص 102 .
[6] انظر: الجهل بمسائل الاعتقاد ص 351 – 352.

يفرق العلماء بين اشتراط قيام الحجة في الحكم بالتكفير وبين فهم الحجة ، حتى أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب بين أن عدم التفريق بين قيام الحجة وفهمها هو سبب اللبس في هذه المسألة، حيث يقول – رحمه الله – : " وأصل الإشكال أنكم لم تفرقوا بين قيام الحجة وفهم الحجة ، فإن أكثر الكفار والمنافقين لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم، كما قال تعالى: (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً) (الفرقان:44).

وقيام الحجة وبلوغها نوع ، وفهمهم إياها نوع آخر، وكفرهم ببلوغها إياهم وإن لم يفهموها نوع آخر"[1].

ويقول الشيخ عبد اللطيف : " وينبغي أن يعلم الفرق بين قيام الحجة وفهم الحجة، فإن من بلغته دعوة الرسل فقد قامت عليه الحجة، إذا كان على وجه يمكن معه العلم، ولا يشترط في قيام الحجة أن يفهم عن الله ورسوله ما يفهمه أهل الإيمان والقبول والانقياد لما جاء به الرسول، فافهم هذا يكشف عنك شبهات كثيرة في مسألة قيام الحجة، قال تعالى: (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً) (الفرقان:44) ، وقال: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)(البقرة: من الآية7) "[2].

ويقول الشيخ حمد المعمر: " فكل من بلغه القرآن ودعوة الرسول فقد قامت عليه الحجة، فقال تعالى: (لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)(الأنعام: من الآية19) ، وقال تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)(الاسراء: من الآية15)....إلى أن قال : وليس المراد بقيام الحجة أن يفهمها الإنسان فهما جليا كما يفهمها من هداه الله ووفقه وإنقاد لأمره، فإن الكفار قد قامت عليهم حجة الله مع إخباره بأنه جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوا كلامه ... فهذا يبين لك أن بلوغ الحجة نوع وفهمها نوع آخر .."[3].

فلما أعرضوا عن مقتضى الحجة ، عاقبهم الله بالختم على قلوبهم ، وجعل عليها أكنة ، فجعل الطمس الثاني ، عقوبة على الإعراض الأول .

---

[1] مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (2/ قسم الفتاوى والمسائل / ص7) .

[2] منهاج التأسيس (250-251) .

[3] النبذة الشريفة اللطيفة (115-119) .

ومقصود الشيخ محمد ، وأئمة الدعوة - رحمهم الله - من فهم الحجة : أي الفهم الذي يقتضي الانتفاع والتوفيق والاهتداء ، أما معنى قيام الحجة : فيقتضي الإدراك وفهم الدلالة والإرشاد .

قال الشيخ محمد رشيد رضا: "من لم يفهم الدعوة ، لم تقم عليه الحجة .. وهذه المسألة قد اختلف فيها كبار علماء نجد المعاصرين في مجلس الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود بمكة المكرمة ، فكانت الحجة للشيخ عبد الله بن بليهد، بأن العبرة بفهم الحجة لا بمجرد بلوغها من غير فهم، وأورد لهم نصا صريحا في هذا من كلام المحقق ابن القيم – رحمه الله – فقنعوا به"[1].

[1] مجموعة الرسائل النجدية (5/514 – 519) ، وانظر : مجموعة الرسائل النجدية (5/638).

المطلب الثالث : ضوابط العذر بالجهل

عندما يقرر العلماء أن للعذر بالجهل اعتبارا في مسألة التكفير ، فلا يعني أن الجهل عذر مقبول لكل من ادعاه ، بل هناك ضوابط لقبول العذر بالجهل ، منها :

* **الضابط الأول** : يقول القرافي[1]: "وضابط ما يعفى عنه من الجهالات ، الجهل الذي يتعذر الاحتراز عنه عادة ، وما لا يتعذر الاحتراز عنه ولا يشق لم يعف عنه"[2].

وقد وضع العلماء عدة أمثلة لهذا الضابط ومنها :

1- حداثة العهد بالإسلام . فيكون الشخص لم تبلغه النصوص التي توجب معرفة الحق.

2- النشوء ببادية بعيدة لم ينتشر فيها العلم ولا أسبابه ، ويلحق به من نشأ في بيئة غلب عليها البدعة ، ولا قدرة عنده على معرفة الدين الصحيح الذي جاد به كتاب الله وسنة رسول الله ، ثم بعد ذلك لا يجد سوى علماء الابتداع والانحراف فلا يعرف الدين إلا من خلالهم[3].

يقول ابن تيمية: " وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة التي يندرس فيها كثير من علم النبوات ، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيرا مما بعث الله به رسوله ، ولا يكون هناك من يبلغه ذلك ، ومثل هذا لا يكفر، ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان ، وكان حديث عهد بالإسلام ، فأنكر شيئا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة، فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول.."[4] .

3- أن تكون بلغت الشخص النصوص ، ولكنها لم تثبت عنده لعلة من العلل ، كأن تعرض له شبهات تجعل الأمر ملتبسا عليه مما يمنعه من فهم النصوص على حقيقتها[5] .

---

[1] هو : أحمد بن إدريس الصنهاجي المالكي ، فقيه ، أصولي ، مفسر ، ولد بمصر سنة (626هـ) ، له مؤلفات كثيرة ، توفي بمصر سنة (684هـ) .
انظر : الديباج المذهب لابن فرحون (1/236) ، الأعلام (1/94) .

[2] الفروق للقرافي (2/150) .

[3] انظر : مجموع الفتاوى (23/346) ، الجهل في مسائل الاعتقاد (ص 289 – 291) .

[4] الفتاوى (11/408) .

[5] انظر : مجموع الفتاوى (23/346).

سئل الإمام الخطابي عمن أنكر فرض الزكاة وامتنع عن دفعها ، هل يكون حكمه حكم أهل البغي ، فأجاب : " لا ، فإن من أنكر فرض الزكاة في هذا الأزمان كان كافرا بإجماع المسلمين والفرق بين هؤلاء وأولئك أنهم إنما عذروا لأسباب وأمور لا يحدث مثلها في هذا الزمان ، منها قرب العهد بزمان الشريعة الذي كان يقع فيه تبديل الأحكام بالنسخ ، ومنها أن القوم كانوا جهالا بأمور الدين ، وكان عهدهم بالإسلام قريبا فدخلتهم الشبهة فعذروا ، فأما اليوم وقد شاع دين الإسلام ، واستفاض في المسلمين علم وجوب الزكاة حتى عرفها الخاص والعام واشترك فيه العالم والجاهل ، فلا يعذر أحد بتأول يتأوله في إنكارها ، وكذلك الأمر في كل من أنكر شيئا مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين إذا كان علمه منتشرا كالصلوات الخمس .."[1]

* **الضابط الثاني** : قال ابن اللحام[2]: " إذا قلنا أن الجاهل يعذر، فإنما محله إذا لم يقصر ويفرط في تعلم الحكم . أما إذا قصر أو فرط ، فلا يعذر جزما"[3].

فالجهل لا يكون عذرا إلا مع العجز عن إزالته ، وإلا فمتى أمكن الإنسان معرفة الحق فقصر لم يكون معذورا[4].

* **الضابط الثالث** : يقول الإمام الشافعي : " العلم علمان : علم عامة لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله ، مثل الصلوات الخمس ، وأن لله على الناس صوم شهر رمضان ، .. وأنه حرم عليهم الزنا والقتل ، والسرقة ، والخمر ، وما كان في معنى هذا ..وهذا الصنف كله من العلم موجودا نصا في كتاب الله ، وموجودا عاما عند أهل الإسلام ، ينقله عوامهم عن من مضى من عوامهم ، يحكونه عن رسول الله ، ولا يتنازعون في حكايته ، ولا وجوبه عليهم ، وهذا العلم العام الذي لا يمكن فيه الغلط من الخبر ، ولا التأويل ، ولا يجوز فيه التنازع "[5] .

---

[1] شرح النووي على صحيح مسلم (1/137) .

[2] هو : علي بن محمد بن عباس البعلي الحنبلي ، أبو الحسن علاء الدين ابن اللحام ، فقيه ، واعظ ، أصولي ، اشتغل بالتدريس ، والفتيا ، والقضاء ، له مؤلفات ، توفي في مصر سنة (803هـ) .
شذرات الذهب (7/31) ، الأعلام (5/7) .

[3] القواعد والفوائد الأصولية لابن اللحام ص 58.

[4] انظر : مجموع الفتاوى (2/280) ، طريق الهجرتين (569-570) .

[5] الرسالة للإمام الشافعي (357 - 359) .

* **الضابط الرابع** : أن القول بالعذر بالجهل لا يعني انتفاء المسميات الشرعية للأفعال الشركية ، فنقول : أن هذا الفعل شرك ، والفاعل المعين قد يكون معذورا بالجهل .

* * * * *

•

المسألة الثالثة

حق الله وحق الرسول صلى الله عليه وسلم وخطورة الخلط بينهما

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلــب الأول : حق الله على العباد .

المطلب الثاني : حق الرسول ﷺ على أمته .

المطلب الثالث : خطورة الخلط بين الحقين .

المسألة الثالثة
حق الله وحق الرسول صلى الله عليه وسلم وخطورة الخلط بينهما

تمهيد

قال ابن القيم في " النونية " :

لله حـق لا يكـون لعبـده ولعبـده حـق هما حقان

لا تجعلوا الحقين حقا واحدا من غير تمييز ولا فرقان[1]

أوجب الله علينا طاعته سبحانه ، وطاعة رسوله ، وجعل له– سبحانه- حقوقا على عباده لا يشاركه فيها أحد ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، وجعل لنبيه حقوقا على أمته لا يساويه فيها أحد من الخلق ، وهذا أمر مسلم لولا ما لبس به أهل البدع على الناس ، فأدخلوا صورا من الشرك بالله ، ودعوا إلى صرف بعض أنواع العبادة إلى النبي ثم إلى غيره ، زاعمين أن عبادة الله هي الركوع والسجود فقط ، مشترطين اعتقاد التأثير والربوبية فيمن يدعى من دون الله، فإذا دعي غير الله ، وتقرب إليه بأنواع القربات على أنه سبب ووسيلة، ولم يعتقد فيه الربوبية فهذا لا يسمى عبادة على زعمهم، فعظموا الرسول[2] التعظيم الذي لا يليق إلا بالله ، ثم اتهموا السلف ومن تبعهم بإحسان بأنهم يتنقصون الرسول ، وأنهم يحرمون مطلق التعظيم ، يقول ابن عبد الهادي–رحمه الله- : "وليس مع عباد القبور من الإجماع إلا ما رأوا عليه العوام والطغام في الأعصار التي قل فيها العلم والدين ، وضعفت فيها السنن ، وصار المعروف فيها منكرا ، والمنكر معروفا ؛ من اتخاذ القبر عيدا والحج إليه ، واتخاذه منسكا للوقوف والدعاء ؛ كما يفعل عند مواقف الحج بعرفة ومزدلفة ، وعند الجمرات ، وحول الكعبة. ولا ريب أن هذا وأمثاله في قلوب عباد القبور لا ينكرونه ، ولا ينهون عنه، بل يدعون إليه ويرغبون فيه ، ويحضون عليه، ظانين أنه من تعظيم الرسول ، والقيام بحقوقه، وأن من لم يوافقهم على ذلك ، أو خالفهم فيه ؛ فهو منتقص تارك التعظيم الواجب، وهذا قلب لدين الإسلام ،

---

[1] شرح قصيدة النونية لابن القيم لابن عيسى (2/347) .

[2] لم يقتصر تعظيمهم وغلوهم على الرسول ، بل غلوا في غيره من الأولياء ، ومن يدعي الولاية .

وتغيير له ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى ضمن لهذا الدين أن لا تزال طائفة من الأمة قائمة به لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة ؛ لجرى عليه ما جرى على دين أهل الكتاب قبله ، وكل ذلك باتباع المتشابه ، وما لا يصح من الحديث ، وترك النصوص المحكمة الصحيحة الصريحة "[1].

لذا كان من الأهمية بمكان دراسة هذه المسألة بين يدي الرد على ابن جرجيس؛ لتبنيه هذه العقيدة . وستكون الدراسة على النحو التالي :

المطلب الأول : حق الله على العباد .

المطلب الثاني : حق الرسول على أمته .

المطلب الثالث : خطورة الخلط بين حق الله وحق الرسول .

المطلب الأول : حق الله على العباد

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : كنت رديف النبي على حمار ، فقال لي: " يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ، وماحق العباد على الله ؟ فقلت: الله ورسوله أعلم ، قال : " حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركون به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا " . فقلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟ قال: " لا تبشرهم فيتكلوا "[2].

وحق الله على العباد : هو ما يستحقه عليهم ويجعله محتما[3].

*** والعبادة في اللغة :**

---

[1] الصارم المنكي (461-462) .
[2] رواه البخاري في عدة مواضع أولها : [كتاب الجهاد / باب : اسم الفرس والحمار] (3/1049) ، ومسلم [كتاب الإيمان / باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة] (1/58) .
[3] تيسير العزيز الحميد ص 65.

الخضوع ، والتذلل ، والطاعة ، والانقياد ، والتأله ، والتنسك[1] .

قال في " المفردات " : " العبودية إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها ؛ لأنها غاية التذلل ، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال ، وهو الله تعالى "[2] .

أما معنى **العبادة الشرعي** فقد تنوعت عبارات العلماء في تعريفها والمعنى واحد، ولا تخرج تعريفاتهم بمجموعها عن المعنى اللغوي ، ومن ذلك :

قال القرطبي : " العبادة : الطاعة والتذلل ، وطريق معبد إذا كان مذللا للسالكين"[3]. وقال شيخ الإسلام : " العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على السنة الرسل"[4]. وقال أيضا: " العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة "[5]. وهذا تعريف باعتبار المتعبد به[6] .

وقال ابن كثير: " العبادة في اللغة : من الذلة ، يقال: طريق معبد ، وبعير معبد، أي: مذلل . وفي الشرع : عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف "[7] .

وقال الشيخ حسين بن مهدي النعمي[8] : " ومعنى عبادتك الله وحده : هي وقفك النفس على مطلوب حكم الله تركا وعملا واعتقادا ، واستعمال نفسك له وحده تركا وعملا واعتقادا ، على مقتضى حكمه تعالى "[9].

وهكذا ذكر غيرهم من العلماء[10].

---

[1] انظر : تهذيب اللغة للأزهري (2/234) ، لسان العرب (5/2778) ، تاج العروس (8/331) .
[2] المفردات للراغب (319) .
[3] تفسير القرطبي (1/101) .
[4] الاستقامة (1/248) ، وانظر : مجموع الفتاوى (20/115) ، (10/157) ، (28/611) .
[5] الفتاوى (10/149) .
[6] انظر : القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (1/10) .
[7] تفسير ابن كثير (1/41) .
[8] حسين بن مهدي النعمي التهامي ثم الصنعاني ، عالم فاضل ، له عدة مؤلفات ، توفي في صنعاء سنة (1187هـ) . انظر : ترجمته في مقدمة كتابه " معارج الألباب " التي راجعها الشيخ مقبل الوادعي (11-12) الأعلام للزركلي (2/260) .
[9] معارج الألباب للنعمي (188) .
[10] انظر : تيسير العزيز الحميد (46 – 47) فقد ذكر جملة من أقوال العلماء في هذا المعنى .

أركان العبادة :

ومن التعريفات السابقة للعبادة ، وبالنظر إلى حقيقتها يتضح أن لها ركنين ، هما : كمال الخضوع والذل ، وكمال المحبة .

الركن الأول : كمال الذل :

والذل له أربع مراتب كما ذكر ابن القيم : " المرتبة الأولى: مشتركة بين الخلق وهي : ذل الحاجة والفقر إلى الله ، فأهل السموات والأرض جميعا محتاجون إليه فقراء إليه ، وهو وحده الغني عنهم...

المرتبة الثانية : ذل الطاعة والعبودية ، وهو ذل الاختيار ، وهذا خاص بأهل طاعته وهو سر العبودية .

والمرتبة الثالثة : ذل المحبة ، فإن المحب ذليل بالذات ، وعلى قدر محبته لله يكون ذله.

والمرتبة الرابعة : ذل المعصية والجناية .

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع : كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم ، إذ يذل له خوفا ، وخشية ، ومحبة ، وإنابة ، وطاعة ، وفقرا ، وفاقة "[1].

الركن الثاني : كمال المحبة :

وهذا مأخوذ من أصل التأله ، يقول ابن القيم : " والتعبد آخر مراتب الحب ، يقال : عبده الحب وتيّمه إذا ملكه ، وذلك لمحبوبه "[2].

وقال ابن تيمية : " والعبادة تجمع كمال المحبة ، وكمال الذل ؛ فالعابد محب خاضع، بخلاف من يحب من لا يخضع له ، بل يحبه ليتوسل به إلى محبوب آخر، وبخلاف من يخضع لمن لا يحبه كما يخضع للظالم ، فإن كلا من هذين ليس عبادة محضة "[3].

والذي يستحق أن يعبد بكمال الحب وكمال الذل ، هو الله سبحانه وتعالى ، وذلك لاتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن النقص والعيب ، فالله هو الخالق لجميع الخلق والمسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة ، وكلهم مفتقرون إليه ، ويرغبون نعمته

---

[1] المدارج (1/224) .
[2] المدارج (3/28) .
[3] قاعدة في المحبة ضمن جامع الرسائل (2/284).

وفضله، فالحاجة والرغبة في نعمته وفضله يبعثان على الانقياد لله والخضوع له[1].

قال ابن كثير-رحمه الله- : " إنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ؛ ولهذا قال: (فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة: من الآية22) "[2].

يقول شيخ الإسلام : " فحقه تبارك وتعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به كما تقدم في حديث معاذ ، ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ، ويتوكلوا عليه ، ويرغبوا إليه، ولا يجعلوا لله ندا ، لا في محبته ، ولا خشيته ، ولا دعائه ، ولا الاستعانة به، كما في الصحيحين أنه قال : " من مات وهو يدعو ندا من دون الله دخل النار"[3] "[4].

وقال أيضا : " وقد كان النبي يحقق هذا التوحيد لأمته ، ويحسم عنهم مواد الشرك، إذ هذا تحقيق قولنا لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب لكمال المحبة والتعظيم ، والإجلال والإكرام ، والرجاء والخوف "[5].

المطلب الثاني : حق الرسول على أمته

أوجب الله – سبحانه - لنبينا حقوقا على أمته زائدة على وجوب الإيمان به، لا يشركه فيها غيره ؛ وذلك لعظم حقه ، وعلو مكانته ، وإذا قامت الأمة بأداء هذا الحق له ، فهم يقومون في الحقيقة بأداء حق الله ؛ لأن الله هو الذي أمرهم، قال تعالى : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً)(النساء:80) ، وقد علم الصحابة علو هذه المكانة ، فأحبوه – رضي الله عنهم – أشد المحبة ،

---

[1] انظر : رسالة الشرك ومظاهره ص 88 .
[2] تفسير ابن كثير (1/ 58) .
[3] ?الحديث الذي في الصحيحين بلفظ : " من مات يشرك بالله شيئا دخل النار " رواه البخاري [كتاب الجنائز / باب : في الجنائز ، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله] (1/418) ، ومسلم [كتاب الإيمان/ باب : من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، ومن مات مشركا شيئا دخل النار] (1/94) . والحديث بهذا اللفظ الذي ساقه شيخ الإسلام ، رواه البخاري [كتاب التفسير / باب : قوله تعالى " ومن الناس ..] (4/1636) ، والإمام أحمد في المسند (1/374) ، وابن مندة في كتاب " الإيمان " (1/214) (ذكر ما يدل على أن من لقى الله بالتوحيد غير مشرك ولا شاك دخل الجنة) .
[4] مجموع الفتاوى (1/304).
[5] مجموع الفتاوى (1/136) .

وضحوا من أجله بأنفسهم، وأموالهم ، وكانوا نموذجا يحتذى للتعظيم المشروع ، وكل من أتى بعدهم يبتعد أو يقترب من هذا النموذج بحسب استنانه بهديهم ، قال عروة بن مسعود الثقفي -رضي الله عنه – عندما كان مشركـا واصفا حال الصحابة - رضي الله عنهم – مع النبي ، قال : " أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا ، والله ! إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيما له "[1].

وعلى ذلك سار السلف الصالح – رضي الله عنهم - ، فقد كان الإمـام مالك -رحمه الله – إذا أراد الجلوس للحديث اغتسل، وتطيب، وقعد، على منصته بخشوع، وخضوع، ووقار، تعظيما للحديث[2] . وذكر الأمثلة يطول .

وبالنظر إلى النصوص الواردة في ذكر حقه نجد أنها تنقسم أربعة أقسام[3] :

القسم الأول : الأمر بطاعته ، واتّباعه .

* أما ما أوجبه الله من طاعته ، والانقياد لأمره ، والتأسي بفعله ، والتحذير من معصيته فهذا باب واسع ، قال تعالى : (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)(آل عمران:32) .

وهذا الإلزام بالطاعة ناشيء من ضرورة العباد وحاجتهم للرسالة إذ لا بد لهم منها ، بل إن حاجتهم إليها فوق كل حاجة ، يقول شيخ الإسلام – رحمه الله - : "والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده ، فكما أنه لا صلاح له في

---

[1] رواه البخاري [كتاب الشروط / باب : الشروط في الجهاد ، والمصالحة مع أهل الحرب ، وكتابة الشروط] (2/974) ، والبيهقي في السنن (9/220) ، والطبراني في المعجم الكبير (20/12) .

[2] انظر : الشفاء للقاضي عياض (2/44-45) ، تذكرة الحفاظ للذهبي (1/210) .

[3] لم أذكر النصوص في بيان فضائله وهي كثيرة جدا . وهذا التقسيم الذي ذكرت لتقريب ما أردت إيضاحه في هذه المسألة فقط ، أي أنه لا يشمل جميع حقوق النبي على أمته ، وهذا يحتاج إلى بحث مستقل . وانظر : الشفاء للقاضي عياض ، ورسالة حقوق النبي على أمته لمحمد التميمي .

آخرته إلا باتباع الرسالة ، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة، فإن الإنسان مضطر إلى الشرع "[1].

ووجوب طاعته ، والإلزام بأن لا يعبد الله إلا باتباعه هو معنى " شهادة أن محمدا رسول الله " ، فهو الواسطة بين الله وبين خلقه .

قال الإمام أحمد : " نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول في ثلاثة وثلاثين موضعا ، ثم جعل يتلوا (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(النور: من الآية63) ، وجعل يكررها ، ويقول : وما الفتنة؟ الشرك . لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ ، فيزيغ قلبه فيهلكه ، وجعل يتلوا هذه الآية (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)(النساء:65) "[2] .

* **القسم الثاني : وجوب محبته ، وتعزيره , وتوقيره .**

* قال تعالى : " قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)(التوبة:24) .

وقال : " ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار "[3] قال ابن تيمية – رحمه الله - : " محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان ، وأكبر أصوله، وأجل قواعده ، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين "[4] .

ومحبته على درجتين : قال ابن حجر – رحمه الله - : " محبة الله على قسمين : فرض ، وندب .

---

[1] مجموع الفتاوى (19/99) .

[2] الصارم المسلول لابن تيمية (56) ، وذكر الشيخ سليمان بن عبد الله أن هذه الرواية عن الإمام أحمد من رواية الفضل بن زياد ، وأبي طالب عن الإمام أحمد . تيسير العزيز الحميد (ص545) .

[3] رواه البخاري [كتاب الإيمان / باب : حلاوة الإيمان](1/14) ، ومسلم [كتاب الإيمان / باب : خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان] (1/66) .

[4] مجموع الفتاوى (10/48-49) .

فالفرض - المحبة التي تبعث على امتثال أوامره ، والانتهاء عن معاصيه ، والرضا بما يقدره ، فمن وقع في معصية من فعل محرم ، أو ترك واجب ، فلتقصيره في محبة الله حيث قدم هوى نفسه ....

والندب - أن يواظب على النوافل ، ويتجنب الوقوع في الشبهات ، والمتصف عموما بذلك نادر ...

كذلك محبة الرسول على قسمين كما تقدم ، ويزاد أن لا يتلقى شيئا من المأمورات ، والمنهيات إلا من مشكاته ، ولا يسلك إلا طريقته ، ويرضى بما شرعه حتى لا يجد في نفسه حرجا بما قضاه ، ويتخلق بأخلاقه في الجود والإيثار والحلم والتواضع وغيرها ، فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان ، وتتفاوت مراتب المؤمنين بحسب ذلك "[1] . وهذا الكلام الأخير الذي ذكره ابن حجر هو معنى شهادة " أن محمدا رسول الله ".

* * وقال تعالى : (لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) (الفتح:9) .

فذكر الله – سبحانه وتعالى – حقا مشتركا بينه وبين رسوله وهو الإيمان ، وحقا خاصا به تعالى وهو التسبيح ، وحقا خاصا بنبيه وهو التعزير والتوقير[2] .

ومعنى التعزير في اللغة : قال ابن فارس : " أصل هذه الكلمة "عزر" كلمتان ، أحدهما : التعظيم والنصر ، والكلمة الأخرى : جنس من الضرب "[3] .

وفي " النهاية " : " أصل التعزير : المنع والرد ، فكأن من نصرته قد رددت عنه أعداءه ، ومنعتهم أذاه "[4] .

والتعزير في الشرع : قال الطبري : " التعزير : التقوية بالنصر والمعونة ، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال "[5] .

---

[1] فتح الباري لابن حجر (1/61) . وانظر : قاعدة في المحبة لابن تيمية ، ضمن مجموعة الرسائل والمسائل (2/279) ، وذكر أن محبة الله ورسوله على درجتين : واجبة وهي درجة المقتصدين ، ومستحبة وهي درجة المقربين .

[2] انظر : بغية المرتاد لابن تيمية (504) .

[3] معجم مقاييس اللغة (4/311) .

[4] النهاية في غريب الحديث (3/288) .

[5] تفسير الطبري (26/75) .

وقال شيخ الإسلام : " اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه "[1].

والتوقير : جاء في " تهذيب اللغة " : وقرت الرجل : إذا عظمته ، ومنه قوله عز وجل (وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ) "[2] .

وقال الطبري : " قال ابن عباس " (ويوقروه) التعظيم "[3] .

وقال شيخ الإسلام : " التوقير : اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام ، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار ، وهذا من أعظم مظاهر حبه ، ومن آكد حقوقه على أمته ، كما أنه من أهم واجبات الدين "[4].

وهذه المعاني هي المراد بتعظيم الرسول ؛ لأن التعظيم في اللغة : من أعظم الأمر وعظمه : فخمه . والتعظيم : التبجيل . ويقال : لفلان عظمة عند الناس ، أي : حرمة يعظم لها[5] . وهذا اللفظ " التعظيم " لم يرد في النصوص الشرعية ، إلا أنه استعمل لتقريب معنى (التعزير والتوقير)[6] .

والتعظيم المشروع : وهو ما يحبه المعظم ويرضاه ويأمر به ويثني على فاعله، فهذا هو التعظيم في الحقيقة[7].

وهذا التعظيم مثل المحبة من حيث كونه تابعا للمعرفة ، فعلى قدر المعرفة يكون التعظيم وتكون المحبة ؛ لذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم أكثر الناس حبا وتعظيما لرسول الله لمعايشتهم له وقربهم منه.

وتعظيم النبي يكون بالقلب ، واللسان، والجوارح[8] .

فالتعظيم بالقلب هو ما يستلزم اعتقاد كونه رسولا اصطفاه الله برسالته ، وخصه بنبوته ، وأعلى قدره ، ورفع ذكره ، وفضله على سائر الخلق أجمعين، كما يستلزم تقديم محبته على النفس والولد والوالد والناس أجمعين ، قال تعالى : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا

[1] الصارم المسلول (422) .
[2] تهذيب اللغة للأزهري (9/280) .
[3] تفسير الطبري (26/74-75) .
[4] الصارم المسلول (422) .
[5] انظر : لسان العرب (5/3005) .
[6] انظر : حقوق النبي على أمته لمحمد التميمي (2/422) .
[7] الصارم المنكي (449) .
[8] المرجع السابق (452) .

أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة:24) .

أما التعظيم باللسان فيكون بالثناء عليه بما هو أهله ، مما أثنى به على نفسه، أو أثنى به عليه ربه ، من غير غلو ولا تقصير، كما يشمل الأدب في الخطاب معه والحديث عنه ، والصلاة عليه والتسليم إذا ذكر[1] ، والصلاة تتضمن ثناء الله عليه ، ودعاء الخير له ، وقربه منه ، ورحمته له ، والسلام عليه يتضمن سلامته من كل آفة ، فقد جمعت الصلاة عليه والتسليم جميع الخيرات[2] ، قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (الأحزاب: 56).

وأما التعظيم بالجوارح فيشمل العمل بطاعته ، وتجريد متابعته ، وموافقته بحب ما يحبه، وبغض ما يبغضه ، والسعي في إظهار دينه ، ونصرة شريعته ، والذب عنه وصون حرمته[3].

يقول السهسواني - رحمه الله - : " وبالجملة فنحن معاشر أهل الحديث نعظم رسول الله بكل تعظيم جاء في الكتاب أو السنة الثابتة ، سواء كان ذلك التعظيم فعليا أو قوليا أواعتقاديا ، والوارد في الكتاب العزيز والسنة المطهرة من ذلك الباب في غاية الكثرة ، وما ذكر هو بعض كمه ، ولو رمت إحصاء ذلك على التمام لجاء في مؤلف بسيط ، نعم تجتنب التعظيمات التي تشتمل على موجبات الكفر والشرك ، وما نهى الله عنه ورسوله ، والتعظيمات المحدثة المبتدعة "[4].

والتعظيم أعلى منزلة من المحبة ؛ لأن المحبوب لا يلزم أن يكون معظما[5]

القسم الثالث : النهي عن الجفاء بحقه .

وقد وردت نصوص كثيرة في النهي عن إساءة الأدب معه ، والجفاء والتفريط في حقوقه ، وجعل ذلك من أعظم الكبائر ، ومن ذلك :

---

[1] وقد جمع ابن القيم رحمه الله في كتابه " جلاء الأفهام " المواطن التي يتأكد فيها الصلاة على النبي وأوصلها إلى احدى وأربعين موضعا . انظر : جلاء الأفهام (463-611) .

[2] جلاء الأفهام لابن القيم (262) .

[3] انظر : الصارم المنكي في الرد على السبكي لابن عبد الهادي (ص452-454) .

[4] صيانة الإنسان (236) .

[5] انظر : شعب الإيمان للبيهقي (2/193) .

* أن الله سبحانه حرم رفع الأصوات فوق صوت نبيه ، وحرم الجهر له بالقول لما في ذلك من الجفاء والإيذاء له ﷺ ، كما أنه حرم التقدم بين يديه بالكلام حتى يأذن ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) (الحجرات:1-2).

وأخبر أن ذلك سبب حبوط العمل ، فهذا يدل على أنه يقتضي الكفر، لأن العمل لايحبط إلا به[1]. قال ابن جرير الطبري – رحمه الله - في تفسير هذه الآية : " لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم ، قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله "[2].

وهذا الأمر فرض باق على الأمة إلى يوم القيامة – طاعته ﷺ حيا وميتا – فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته ﷺ كالتقدم بين يديه في حياته ، ولا فرق بينهما ، فالأدب كل الأدب معه ﷺ تقديم سنته وأقواله على كل قول أو رأي[3].

ويدخل في ذلك رفع الأصوات عند قبره ﷺ ، فهو في حكم رفع الصوت عنده في حياته من حيث التحريم ، لأن حرمة النبي ﷺ ميتا كحرمته حيا[4] ، لذا شدد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - النكير على رجلين رفعا أصواتهما في المسجد النبوي ، فعن السائب بن يزيد قال : " كنت قائما في المسجد ، فحصبني رجل ، فنظرت ، فإذا عمر ابن الخطاب ، فقال : اذهب فأتني بهذين ، فجئته بهما. قال : من أنتما – أو من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما. ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ !"[5].

ومن أعظم مخالفة الأدب في هذا الباب رفع آراء بعض البشر وأقوالهم ومذاهبهم على سنة النبي ﷺ ، ومحاولة إسكات صوت السنة والداعين إليها وفي هذا من الإيذاء والجفاء ما هو أكبر بكثير من مجرد رفع الصوت عند النبي ﷺ[6] .

---

[1] انظر : الصارم المسلول لابن تيمية (54-55) .
[2] تفسير ابن جرير الطبري (26/116) .
[3] انظر: مدارج السالكين لابن القيم (2/389) .
[4] انظر : الشفاء في بيان حقوق المصطفى للقاضي عياض (2/40) .
[5] رواه البخاري [كتاب الصلاة / باب رفع الصوت في المساجد] (1/179) ، والبيهقي في السنن الكبرى (2/447) ، وعبد الرزاق في مصنفه (1/285) .
[6] انظر : مدارج السالكين (2/389) .

* ومن ذلك : أنه حرم على الأمة أن يؤذوه بما هو مباح أن يعامل به بعضهم بعضا، مثل نكاح أزواجه من بعده ، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً) (الأحزاب:53) لأن ذلك يؤذيه ، وجعله عظيما عند الله تعظيما لحرمته[1].

* ومن ذلك : استحقاق من نسبه إلى ما لا يليق بمقام النبوة القتل ، كالطعن في صدقه أو أمانته وعدالته ، كما صنع ذو الخويصرة التميمي الذي طعن في قسمة رسول الله للغنائم ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : "بينما نحن عند رسول الله وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة ، وهو رجل من بني تميم ، فقال : يا رسول الله اعدل . فقال : " ويلك . ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل " ، فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال : " دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية..."[2]، ونهى عن قتله لدرء المفسدة ؛ لئلا يقال محمد يقتل أصحابه.

* ومن ذلك : النهي عن ترك الصلاة والسلام عليه إذا ذكر ، قال : " رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي "[3] .

---

[1] انظر : الصارم المسلول (59) .

[2] رواه البخاري [كتاب المناقب / باب علامات النبوة في الإسلام] (3/1321) ، ومسلم [كتاب الزكاة / باب : ذكر الخوارج وصفتهم] (2/740) .

[3] رواه الترمذي [كتاب الدعوات / باب : ما جاء في فضل التوبة والاستغفار] (5/210) ، وابن حبان في صحيحه [كتاب الرقائق / باب الأدعية] (3/189) ، والإمام أحمد في المسند (2/254) ، والحاكم في المستدرك ، وصححه (1/549) ، ووافقه الذهبي . وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لصحيح ابن حبان : إسناده صحيح .

* ومما يلحق بالجفاء البعد عن الاستنان بسنته ظاهراً وباطنا ، ونسيان السنن ، وعدم تعلمها ، وترك البحث عنها رغبة عن العمل بها ، وعدم التأدب في الحديث والكلام عن النبي كما يفعل بعض الشعراء من تشبيه بعض الأمراء به ، وقد نقل القاضي عياض[1] أمثلة من هذا القبيل من أقوال بعض الجفاة والمنافقين[2].

القسم الرابع : النهي عن الغلو فيه

الغلو هو : مجاوزة الشيء حده الذي وضع له[3] .

قال تعالى : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ) (النساء:171) . قال ابن كثير – رحمه الله - : " ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه "[4] .

قال ابن تيمية – رحمه الله - : " فالذين يعظمون القبور والمشاهد لهم شبه شديد بالنصارى "[5] .

وغلو النصارى هدم أصلي الدين : التوحيد ، والاتباع . هدموا التوحيد بجعل عيسى – عليه السلام – في مقام الربوبية والألوهية ، وهدموا أصل الإتباع بجعل التشريع ، والتحليل ، والتحريم حقا لرهبانهم .

وقد حذر النبي أمته من الغلو في حقه ، لمّا خشي على أمته أن يدفعهم حبهم وتعظيمهم له إلى رفعه فوق منزلته

---

[1] هو : القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي ، المالكي ، صاحب المصنفات الكثيرة المفيدة منها(الشفا، وشرح مسلم، ومشارق الأنوار) وغير ذلك ، وله شعر حسن ، كان إماما في علوم كثيرة ، مثل الفقه واللغة والحديث والأدب وأيام الناس - ولي القضاء وله خمس وثلاثون سنة ، كان هينا من غير ضعف، صليبا في الحق ، ولد سنة 476 ، ومات يوم الجمعة في جمادى الآخرة وقيل في رمضان سنة (544هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء (20/212-213) ، البداية والنهاية (16/352) ، شذرات الذهب (4/138).

[2] انظر : الشفا (2/238 – 247) .

[3] انظر : المفردات للراغب (364-365) ، معجم مقاييس اللغة (4/387-388) .

[4] تفسير ابن كثير (1/898) .

[5] الفتاوى (27/460،461) .

التي جعلها الله له ، وقد جاء تحذيره من الغلو في شخصه بعدة أساليب ، تارة بأسلوب النهي الصريح ، وتارة بالتجائه إلى ربه ودعائه بأن لا يتحول قبره إلى وثن يعبد ، وتارة بلعنه الغلاة الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد .

والغلو في الرسول : هو التعظيم غير المشروع بما يكرهه ، ويبغضه ، ويذم فاعله ، فهذا ليس بتعظيم ، بل هو غلو مناف للتعظيم ؛ ولهذا لم يكن الرافضة معظمين لعلي بدعواهم الإلهية والنبوة أو العصمة ونحو ذلك ، ولم يكن النصارى معظمين للمسيح بدعواهم فيه ما ادعوا ، وكذلك لم يعظم محمد من رفعه فوق مرتبته التي وضعه الله عليها ، واعتقد أنه يعلم الغيب مطلقا ، أو أن وجوده سابق لهذا العالم، وأن من نوره خلق الكون كله ، إلى غير ذلك من الاعتقادات الباطلة التي لم ترد في كتاب ولا في سنة ، والنبي قد أنكر على من عظمه بما لم يشرعه فأنكر على معاذ سجوده له ، وهو محض التعظيم[1].

وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه - : أن رجلا قال : " يا محمد ، يا سيدنا، وابن سيدنا، وخيرنا ، وابن خيرنا ، فقال رسول الله : " عليكم بقولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله ، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل "[2].

وقال : " لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد، فقولوا : عبدالله ، ورسوله "[3].

وكان يكره من أصحابه أن يقوموا له إذا رأوه ، ونهاهم أن يصلوا خلفه قياما وهو قاعد ، وقال : " إن كدتم آنفا لتفعلون فعل فارس والروم ، يقومون على ملوكهم "[4].

---

[1] الصارم المنكي 288.

[2] رواه الإمام أحمد في المسند (3/153، 241، 249) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص 248، 249) ، ورواه الترمذي بنحوه برقم (3349) ، وقال : حسن صحيح ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (3/88) ، برقم (1097) .

[3] رواه البخاري [كتاب الأنبياء / باب : " واذكر في الكتاب مريم..] (3/1271) ، والإمام أحمد في المسند (1/23،24،27،55) ، وابن حبان في صحيحه (2/147،154) وهو جزء من حديث السقيفة، وأبو يعلى (1/142) .

[4] أخرجه مسلم [كتاب الصلاة / باب إئتمام المأموم بالإمام] (1/309) ، والنسائي [كتاب السهو/ باب الرخصة في الالتفات في الصلاة يمينا وشمالا] (3/9) .

وقد أنكر النبي ﷺ على من قال له: ما شاء الله وشئت ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رجلا قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال له النبي ﷺ "أجعلتني لله ندا ، بل ما شاء الله وحد "[1].

وكل هذا من التعظيم الذي يبغضه ويكرهه[2]، فأبى عباد القبور إلا مخالفة أمره، وارتكاب نهيه ، يقول السهسواني – رحمه الله - : " وأما أهل البدع فمعظم تعظيمهم تعظيم محدث، كشد الرحال إلى قبر رسول الله ﷺ، والفرح بليلة ولادته، وقراءة المولد، والقيام عند ذكر ولادته ﷺ، وتقبيل الإبهام عند قول المؤذن " أشهد أن محمدا رسول الله " ، والتمثل بين يدي قبره قياما، وطلب الحاجات منه ﷺ ، والنذر له وما ضاهاها"[3].

والأنبياء يتبرؤن من الذين يخالفون شريعتهم ، ويغلون فيهم ، ويزعمون أنهم يحبونهم ويوالونهم ، ويعظمونهم بذلك ، ومحمد ﷺ بريء من كل عمل يخالف أمره وسنته ، قال الله تعالى : (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) (الشعراء: 216) ، ولا ينفع من عصى أمر الرسل أن يقول : قصدي تعظيمهم ، فإنه إنما أمر بطاعتهم، ولم يؤمر أن يعبد الله بالظن، وما تهوى الأنفس ، قال الله تعالى : (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ) (المائدة:116)[4].

وعلى ذلك فأساس التعظيم للنبي ﷺ وقاعدته التي ينبني عليها هو تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهي وزجر، وعبادة الله بما شرع . فمن فقد هذا الأساس أو أخل به فقد أخل بتعظيمه وتوقيره ﷺ[5] .

---

[1] رواه النسائي في عمل اليوم والليله(545) ، وابن ماجه [كتاب الكفارات/باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت] (1/684) بنحوه ، و رواه الإمام أحمد في المسند (1/214،224،283،347) عن ابن عباس ،وفيه (جعلتني لله عدلا) ، ومعناهما واحد . وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (1/266)، برقم (139) . المسند، 1/214، والحديث إسناده حسن.

[2] الصارم المنكي في الرد على السبكي (288) .

[3] صيانة الإنسان (236) .

[4] الرد على الأخنائي لابن تيمية (498) .

[5] الصارم المنكي (463) .

المطلب الثالث : خطورة الخلط بين الحقين

تبين مما مر كيف حذر النبي من الغلو في تعظيمه ، حماية لجناب التوحيد، وتعظيما لحق الله تعالى ، فمن خلط بين الحقين فقد أشرك بالله– سبحانه وتعالى–، وجفا في جناب المصطفى ، وإن زعم أنه أراد تعظيمه.

فلابد من التفريق بين الخالق والمخلوق، وبين العبد والرب ، فالرسل مهما جلوا وعظموا وقربوا من الله ومن مكان الحظوة لديه ، لا يخرج أحد منهم عن مقام العبودية ، وهو أشرف مقام يصل إليه المخلوق .

والعبادة حق خالص لله وحده ، فلا يتقى غيره ، ولا يخاف غيره ، ولا يتوكل على غيره ، ولا يدعى غيره ، ولا يصلى لغيره ، ولا يصام لغيره ، ولا يتصدق إلا له ، ولا يحج إلا إلى بيته ، قال الله تعالى: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) (النور:52) ، فجعل الطاعة لله والرسول ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده .

وقال تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) (التوبة:59) ، فجعل الإيتاء لله والرسول ، وجعل التوكل والرغبة إلى الله وحده ، قال تعالى: (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) (الشرح:7-8) .

يقول شيخ الإسلام : " وأما إجابة الداعي، وتفريج الكربات، وقضاء الحاجات، فهذا لله سبحانه وتعالى وحده لا يشركه فيه أحد ؛ ولهذا فرق الله سبحانه في كتابه بين ما فيه حق للرسول ، وبين ما هو لله وحده، كما في قوله تعالى : (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) (النور:52) ، فبين سبحانه ما يستحقه الرسول من الطاعة ، فإنه من يطع الرسل فقد أطاع الله ، وأما الخشية والتقوى فقد جعل ذلك له سبحانه وحده...

فالعبادة ، والخشية ، والتوكل ، والدعاء ، والرجاء ، والخوف لله وحده ، لا يشركه فيه أحد ، وأما الطاعة والمحبة والإرضاء : فعلينا أن نطيع الله ورسوله ، ونحب الله ورسوله ، ونرضي الله ورسوله ، لأن طاعة الرسول طاعة لله ، وإرضاءه إرضاء لله ، وحبه من حب الله"[1].

---

[1] الفتاوى (24/337 – 338) .

وكذلك جعل الهدى في قلوب العباد ، فهو إلى الله تعالى لا إلى الرسول ، كما قال الله تعالى: (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)(القصص:56) .

أما صرف حق الله لغيره ولو لرسوله بدعوى أنه تعظيم له ، فهذا عين المحادة والمشاقة لله ورسوله ، وهو من الشرك الذي نهى الله عنه ، فإذا تبين ذلك علمنا أن ما يفعله بعض المنتسبين إلى الإسلام من التجائهم وقت الشدائد إلى غير الله ، طالبين منه كشف الضر ، ورفع الشدة ، وما يفعل من هذا القبيل عند قبر الرسول بدعوى تعظيمه ، كل هذا من قبيل الشرك الذي حرمه الله ورسوله ، يقول الشيخ عبدالرحمن بن حسن – رحمه الله - : " وهذا المعترض وأمثاله ، ادعوا تعظيم أمر رسول الله بما قد نهى عنه من الغلو والإطراء ، وهضموا ربوبية الله ، وتنقصوا الهيته ، وحاولوا أن يكون حق الله من العبادة التي خلق لها عباده ، نهبا بين الأحياء والأموات ، هذا يصرفه لنبي ، وهذا لملك ، وهذا لصالح"[1].

ومنشأ الغلط عند من غلط في ذلك أمور منها :

1- أنهم فهموا أن معنى الإله في قول المسلمين " لا إله إلا الله " هو القادر على الاختراع، وأن إله : بمعنى آله ، لا بمعنى مألوه ، وهذا فهم خاطيء[2] أوقعهم في كثير من مظاهر الشرك في الألوهية كما مر ، وبناءا على ذلك اعتقدوا أن أي تعظيم للرسول مشروع ما لم ينسب له شيء من صفات الربوبية ، يقول أحمد زيني دحلان : " والحاصل أن هنا أمرين أحدهما : وجوب تعظيم النبي ورفع رتبته عن سائر الخلق ، والثاني : إفراد الربوبية واعتقاد أن الرب تبارك وتعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه...، وأما من بالغ في تعظيمه بأنواع التعظيم ، ولم يصفه بشيء من صفات الباري عز وجل ، فقد أصاب الحق ، وحافظ على جانب الربوبية والرسالة جميعا"[3].

يقول شيخ الإسلام مبينا أن من اعتقد ذلك لم يفهم حقيقة التوحيد : " والإله بمعنى المألوه المعبود ، الذي يستحق العبادة، ليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق، فإذا فسر

---

[1] بيان المحجة في الرد على اللجة لعبد الرحمن بن حسن (330) ضمن مجموعة التوحيد .

[2] انظر : منهاج السنة (2/65) ، اقتضاء الصراط المستقيم (2/845)، مجموع الفتاوى (8/101).

[3] خلاصة الكلام (255) ، وانظر : ما ذكره السبكي في شفاء السقام .

المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع ، واعتقد أن هذا أخص وصف الإله ، وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد ، كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية- وهو الذي ينقلونه من أبي الحسن وأتباعه – لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء ، وكانوا مع هذا مشركين"[1].

وقد سبق في المسألة الأولى بيان هذا الخلل ، والرد عليه[2].

2- ظن بعضهم أن غير الله تعالى يكون منعما بشيء ، أو له تأثير في التصرف ونحو ذلك ، فيقع في تعظيمه والخوف منه ورهبته ورجائه ، وتلك هي عبادته[3]، يقول ابن جرجيس : " ولهذا ترى العبد يطلب من الله سبحانه الشئ فلا يعطيه إياه حتى يسببه على يد مخلوقه وهذا كثير جداً ، فيقال : إن الله لا يقدر على إعطاء السائل ؟ حاشا وكلا بل ربط الله الأسباب بالمسببات لحكمة هو سبحانه يعلمها "[4] ، وقال عن الذبح للجن : " إن قصد الذبح لله ليدفع شر الجن ، فهذا لا شك في جوازه "[5] ؛ لهذا وقعوا في الشرك بالأنبياء وغيرهم .

أما خطورة الخلط بين الحقين فتتمثل في أمور منها :

الأمر الأول : وقوعهم في الشرك .

ونتيجة لخلط المبتدعة بين حق الله وحق الرسول وقعوا في الشرك الأكبر والأصغر ، ووقوعهم في الشرك الأصغر أكثر من أن يحصر ، مثل تجويزهم الحلف بغير الله ، وقول ما شاء الله وشئت ، وهذا باب واسع وليس داخل في مسألة الدراسة .

أما وقوعهم في الشرك الأكبر ، فقد أشرك عباد القبور مع الله غيره في الألوهية والربوبية جميعا ، وقبل أن أذكر صور ذلك الشرك ، سأذكر مثالا يجمع الشركين، وهو ما يسمونه "

---

[1] درء التعارض (1/226 – 227) .
[2] انظر : (ص) .
[3] انظر : منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة لخالد بن عبد اللطيف (1/72) .
[4] صلح الإخوان (53) .
[5] صلح الإخوان (108) .

بالمدائح النبوية " ، مثل ماجاء في " بردة " البوصيري[6] التي يعتني بها هؤلاء المبتدعة أيما اعتناء ، حيث يقول :

يـا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حدوث الحادث العمم

ولن يضيق رسول الله جاهك بي   إذا الكريم تجلى بـاسم منتقـم[1]

ولا يخفى مافي البيت الأول من الالتجاء إلى الرسول فيما لا يقدر عليه إلا الله، يقول الشيخ سليمان بن عبد الله – رحمه الله - : " فتأمل ما في هذه الأبيات من الشرك : منها أنه نفى أن يكون له ملاذا إذا حلت به الحوادث إلا النبي وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له ، فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا هو.

الثاني - أنه دعاه وناداه بالتضرع وإظهار الفاقة والاضطرار إليه وسأل منه هذه المطالب التي لا تطلب إلا من الله وذلك هو الشرك في الالهية .

الثالث - سؤاله منه أن يشفع له في قوله : " ولن يضيق رسول الله " البيت وهذا هو الذي أراده المشركون ممن عبدوه ، وهو الجاه والشفاعة عند الله ، وذلك هو الشرك "[2] . وقال :

فإن من جودك الدنيا وضرتـها   ومن علومك علم اللوح والقـلم

يقول الشيخ عبدالرحمن بن حسن – رحمه الله - : " فمن المعلوم أن الجواد لا يجود إلا بما يملكه ، فمقتضى ذلك أن الدنيا والآخرة ليست لله ، بل لغيره "[3] .

---

[6] هو : محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي ، كان أحد أبويه من بوصير والآخر من دلاص ، فركبت له نسبة منهما ، وقيل : " الدلاصيري " ، لكنه اشتهر بالبوصيري – نسبة إلى بوصير من أعمال بني سويف بمصر – وله في مدائح الرسول صلى الله عليه و سلم قصائد : أشهرها البردة ، فيها من الغلو، والشرك العظيم المضاهي لشرك النصارى و نحوهم من صرف خصائص الربوبية والإلهية لغير الله .مات سنه (696هـ) . انظر : فوات الوفيات (3\362) ، الوافي بالوفيات (3/105) , بيان المحجة في الرد على صاحب اللجة للشيخ عبد الرحمن بن حسن (ص308) من مجموعة التوحيد .

[1] قصيدة البردة / ضمن مجموع أمهات المتون (90) . وانظر : بيان المحجة في الرد على صاحب اللجة للشيخ عبد الرحمن بن حسن (ص308) من مجموعة التوحيد .

[2] تيسير العزيز الحميد (222) .

[3] المرجع السابق (318) .

ويقول البكري في قصيدة له :

ولذ به في كل ما ترتجي فإنـه المـأمن والمعقـل
ونـاده إن أزمـة أنشبت أظفارها واستحكم المعضل
يا أكـرم الخلق على ربه وخيـر من فيهم به يسـأل
قد مسني الكرب وكم مرة فرجت كربا بعضه يعضـل
عجل بإذهاب الذي أشتكي فإن توقفـت فمـن أسـأل[1]

فماذا أبقى لله عز وجل ، وهل لقائل أن يبرر مثل هذا الشرك ؟!

1- **شركهم في الربوبية** : وهذا ما كانوا في الأصل يريدون الفرار منه ، حيث أجازوا وصفه ومدحه بكل تعظيم ما لم يصل إلى حد الربوبية[2] ؛ يقول دحلان: "فإن الله تعالى عظم نبيه ﷺ في القرآن الكريم بأعلى أنواع التعظيم ، فيجب علينا أن نعظم من عظمه الله تعالى ، وأمر بتعظيمه ، نعم يجب علينا أن لا نصفه بشيء من صفات الربوبية ، ورحم الله الأبوصيري حيث قال :

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه

فليس في تعظيمه بغير صفات الربوبية شيء من الكفر والإشراك "[3] ؛ ولأن الغلو لا يقف عند حد ، وإذا انفتح باب البدعة يصعب إغلاقه ، وقعوا في الشرك في الربوبية من باب التأويل ، كاعتقادهم أن النبي ﷺ يعلم الغيب[4] ، وأنه خلق من نوره تعالى[5]، وأنه يكشف الكرب ، ثم انتهى بهم الغلو إلى أن قال بعضهم : " فشأن محمد في جميع تصرفاته هو شأن الله تعالى ، فليس لمحمد ﷺ من محمد شيء ؛ ولذلك كان نورا ذاتيا من عين ذات الله "[6] ، ويقول آخر : " اعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش ، وفرش ، وسماوات وأرضين ، وجنات وحجب

---

[1] أورد هذه القصيدة محمد بن علوي مالكي في كتابه " الذخائر المحمدية " ، وقال : إنها مجربة لقضاء الحوائج . ص 158.
[2] انظر : (ص) .
[3] الدرر السنية (19) .
[4] وهذا مشهور عندهم ، وقد نقل ابن تيمية في الرد على البكري قوله : " إن النبي ﷺ عنده مفاتح الغيب " (1/305) ، تيسير العزيز الحميد (272-273) .
[5] الرد على الألوسي لابن جرجيس (7) .
[6] النفحات الأقدسية للبيطار (ص9) ، نقلا عن محبة الرسول بين الاتباع والابتداع لعبد الرؤوف عثمان (ص205) . وذكر هذا النقل عن البيطار عبدالرحمن الوكيل في " هذه هي الصوفية " (ص77) .

، وما فوقها وما تحتها ، إذا جمعت كلها ، وجدت بعضا من نور النبي ، وأن مجموع نوره لو وضع على العرش لذاب ...ولو جمعت المخلوقات كلها ، ووضع ذلك النور العظيم عليها لتهافتت ، وتساقطت "[1] ، وبعضهم يزعم أن النبي لا يخلو منه زمان ولا مكان، يريدون بذلك أنه ما من زمان إلا وهو موجود فيه ، وما من مكان إلا وهو موجود فيه[2] ، قال النبهاني : " أما كونه يعطي ويمنع، ويقضي حوائج السائلين، ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء، فهو لا شكك فيه، ولا يتردد بصحته ووقوعه إلا كل من تراكم على قلبه الجهل والظلام "[3] .

2- **أما الشرك في الألوهية** ، فله عدة صور ، منها :

* الشرك في التعظيم : ويرون أن المبالغة في تعظيمه واجبة ، حتى استحبوا الحج إلى قبره ، والسجود له والطواف به ، فدعوى وجوب المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك وانسلاخ من جملة الدين .

* الشرك في الدعاء : فهم يجيزون أن يدعى الرسول ، ويطلب منه كل ما يطلب من الله، يقول النبهاني : " فعلم أنه يطلب منه الدعاء بحصول الحاجات كما في حياته لعلمه بسؤال من سأله ، كما ورد ، مع قدرته على التسبب في حصول ما سئل فيه بسؤاله وشفاعته إلى ربه عز وجل ، وأنه يتوسل به في كل خير قبل بروزه لهذا العالم ، وبعده ، في حياته ، وبعد وفاته "[4] . كما وقعوا في الشرك في العبادة أيضا ، وليس بخصوص الدعاء فقط ، ويقولون : " نحن نعبد الله ورسوله " ، فيجعلون الرسول معبودا[5] .

* الشرك في الاستغاثة : وقد ذكر فيما سبق الكتب التي ألفت في الاستغاثة بالنبي ، وقد ذكر شيخ الإسلام عن بعض أهل زمانه أنهم جوزوا الاستغاثة بالرسول في كل ما يستغاث فيه

---

[1] نقله عبدالرحمن الوكيل في " هذه هي الصوفية " (ص87) عن الإبريز للدباغ (2/84) .
[2] انظر : غاية الأماني للألوسي (1/48) .
[3] شواهد الحق للنبهاني (ص213) .
[4] شواهد الحق (103) .
[5] الرد على البكري (1/309) . وذكر ابن تيمية عدة نماذج لوقوعهم في الشرك في العبادة .

بالله ، وصنف فيه مصنفا[1] ، يقول النبهاني ناقلا عن أحد مشايخهم لما سئل عن حكم ما يقع من العامة من قولهم عند الشدائد : " يا شيخ فلان، ونحو ذلك " ؟ فأجاب : " الإستغاثة بالانبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام -، والأولياء، والعلماء، والصالحين، جائزة،...ولهم إغاثة بعد موتهم ؛ لأن معجزة الأنبياء وكرامة الأولياء لا تنقطع "[2]، ويقول آخر : "من كان له حاجة فليصل على النبي ألف مرة بتوجه تام ، ثم يسأله في قضاء حاجته، فإنها تقضى إن شاء الله تعالى "[3].

* أما تجويزهم النذور والذبح للأنبياء فهذا أشهر من أن يستدل له ، بل لا يكاد يخلو كتاب من كتبهم من عقد فصل أو باب في الترغيب في ذلك ، وسبق بيان أسماء الفصول والأبواب في كتاب " صلح الإخوان " ، وكذلك فعل غيره ، كالنبهاني في " شواهد الحق " ، والسمنودي (ت1326هـ) في " سعادة الدارين " ، ومما قال : " الباب التاسع في الكلام على النذر والذبح للأنبياء والصالحين "[4] ، وقال غيره : " المبحث الثالث في النذور، النذر للأنبياء والأولياء وغيرهم من القرب التي يدعو إليها الدين "[5].

* وانتهى بهم المآل إلى السجود لغير الله مع أنهم متفقون على إدخاله في مسمى العبادة ، يقول الشيخ محمود شكري الألوسي : " وقد رأيت بعيني رأسي من سجد للأعتاب ، معرضا عن رب الأرباب ، ولا أقول إن العوام فقط على هذا المنوال ، فكم قد رأينا وسمعنا عمن يدعي العلم قد فعل هذه الأفعال ، وأما من ينتسب إلى طريقة من الطرائق الكثيرة فعنده أن الاستمداد من روحانية المشائخ والاستغاثة بهم من الواجبات الشهيرة "[6] .

الأمر الثاني : الإعراض عن السنة ، وترك الاتباع .

---

[1] انظر : الاستغاثة في الرد على البكري ( ) ، وانظر : (ص) .
[2] شواهد الحق (105) .
[3] شواهد الحق 111
[4] سعادة الدارين للسمنودي (2/37-56) .
[5] التوسل والزيارة لمحمد الفقي (242) ، نقلا عن جهود علماء الحنفية (3/1547) .
[6] فتح المنان للألوسي (493) ، وانظر ما ذكره المعصومي – رحمه الله – في كتابه " المشاهدات المعصومية عند قبر خير البرية " من مظاهر الشرك الأكبر عند قبر الرسول . (ص258-263) ضمن المجموع المفيد في نقض القبورية ، ونصرة التوحيد لمحمد الخميس .

وهذا من أعظم الجفاء بحقه ، فالمبتدعة يبالغون في تعظيمه ؛ لأنهم يحبونه أشد المحبة – زعموا - ، وليس كل من زعم شيئا صدق في زعمه ، يقول القاضي عياض – رحمه الله - : " اعلم أن من أحب شيئا آثره ، وآثر موافقته ، وإلا لم يكن صادقا في حبه ، وكان مدعيا فالصادق في حب النبي من تظهر علامة ذلك عليه ، وأولها الإقتداء به.. واتباع أقواله ، وأفعاله ...وشاهد هذا قوله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (آل عمران:31) "[1].

وقد عقد شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - مقارنة بين حال أهل التوحيد وحال الغلاة مع الأنبياء ، يبين فيها أن فعل الغلاة هو عين الجفاء والمحادة لله والرسول ، ومما قال – رحمه الله - : " الوجه الرابع : أن يقال : الغلاة المشركون هم في الحقيقة بخسوا الرسل ما يستحقونه من التعظيم، دون الأمة الوسط أهل التوحيد ، وبيان ذلك بأمور: منها :

أنهم بغلوهم ينقطع العمل الصالح الذي كان يحصل بتوحيدهم وطاعتهم، وحصل لهم مع ذلك عذاب أليم ، وإن كان هو سليما من العذاب ، لكن فوتوه الأجر الذي كان يحصل له بتوحيدهم وطاعتهم.

والأمر الثاني : أن أهل التوحيد والسنة يدعون لهم دائما فينتفعون بذلك الدعاء، وأهل الشرك والبدعة يكلفونهم حوائجهم، وأين من يحصل بسعيه منفعة لهم؟ إلى من يكلفهم ويؤذهم بسؤاله.

الأمر الثالث : أن أهل التوحيد والسنة يصدقونهم فيما أخبروا ، ويطيعونهم فيما أمروا، ويحفظون ما قالوا ، ويفهمونه ويعملون به .. ويفعلون ذلك تقربا إلى الله طلبا للجزاء منه لا منهم.

وأهل الجهل والغلو لا يميزون بين ما أمروا به ونهوا عنه ، ولا يبين ما صح عنهم وما كذب عليهم، ولا يفهمون حقيقة مرادهم، ولا يتحرون طاعتهم ومتابعتهم، بل هم جهال بما أتوا به معظمون لأغراضهم ، إما لينالوا منهم منفعة، أو ليدفعوا بهم عن أنفسهم مضرة "[2]، ثم قال : " وكل من جعل الرسول يطلب منه الناس ما يطلبونه من الله ، فقد آذى الرسول،

[1] الشفاء للقاضي عياض (2/24) .
[2] انظر : الاستغاثة (2/497-499) .

وأساء في حقه؛ وسلط عليه العامة على اختلاف أغراضهم ،....فنزلوا المخلوق منزلة الإله ، وطلبوا منه جلب المنافع ودفع المضار ما لا يقدر عليه إلا الله – تبارك وتعالى – ، وقد كان النبي يقول : " من لا يسألنا أحدب إلينا لمن سألنا"[1] ، وكانوا يسألونه ما يقدر عليه، فكيف إذا طلبوا منه ما لا يقدر عليه مخلوق؟ "[2].

ومما سبق يتبين أن الوقوف مع النصوص وإن كان فيه حماية لجناب التوحيد ، فهو أيضا أعظم للقيام بحقه ، وليس في ذلك أي تنقص له عليه الصلاة والسلام.

وأختم هذا المبحث برد موجز على يدعيه المبتدعة من زعمهم أن أهل السنة يحرمون مطلق التعظيم ، وأنهم متنقصين للرسل – عليهم السلام - ، يقول دحلان: " وكأن هؤلاء المانعين التوسل والزيارة يعتقدون أنه لا يجوز تعظيم النبي ، فحيثما صدر من أحد تعظيم له حكموا على فاعله بالكفر والإشراك "[3] .

ويجاب عنه : بأن هذا الإيجاب الكلي والسلب الكلي اللذان يشتمل عليهما هذا الكلام الساقط الفاسد بهتانان صريحان ، فإن المانعين للتوسل لا يمنعون مطلق التعظيم، ولا يحكمون على فاعله بالكفر والإشراك، إنما يمنعون التعظيم الذي يتضمن عبادة غير الله أو ما نهى الله عنه ورسوله، أو التعظيم المحدث الذي لا يدل عليه دليل من الكتاب والسنة، وإنما يحكمون بالكفر والشرك على من عظم تعظيما يتضمن شيئا من موجبات الكفر والشرك، وأما التعظيم الذي هو ثابت بالكتاب والسنة فهو عين الإيمان[4].

أما منعهم لخصوص التوسل والزيارة، فيقال لهم : هذا الوصف – التوسل بالذوات والزيارة - عندكم ثابت لآحاد الناس، بل قولكم يقتضي أنه ثابت لكل مخلوق ، وما ثبت لآحاد الناس لم يكن من خصائص الرسل التي تعد من كمالاتهم، فلا يقول عاقل إن ما شارك فيه عامة الناس، يكون من كمالات الرسالة التي يكون نفيها قدحا في رسالته وتعظيمه[5].

---

[1] انظر : تخريجه : (ص) .
[2] انظر : الاستغاثة (2/554 – 555).
[3] خلاصة الكلام (19) .
[4] انظر : صيانة الإنسان للسهسواني ( ) .
[5] انظر : الرد على البكري (2/538) .

أما زعمهم بأن أهل السنة يتنقصون الرسل ، فيجاب عن ذلك : بأن الله – عز وجل – قد نهى عن الغلو في عيسى – عليه السلام - ، حيث قال سبحانه : (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) (المائدة:116) ، ولم يكن ذلك من باب التنقيص للمسيح وأمه[1] .

*****

[1] انظر : المرجع السابق (1/349) .

المسألة الرابعة
ذرائع الشرك ، وأسبابه

وفيه : تمهيد ومطلبان

التمـهيــد : في حماية المصطفى جناب التوحيد .

المطلـب الأول : وسائل الشرك ، وذرائعه .

المطلب الثاني:الأسباب التي أدت إلى الوقوع في الشرك.

المسألة الرابعة
ذرائع الشرك ، وأسبابه

التمهيد : في حماية المصطفى جناب التوحيد :

حمى المصطفى جناب التوحيد حماية محكمة ، لما له من منزلة عظيمة، فهو المقصود لذاته ، وخلق الخلق لأجله ، لذا حرم جميع الوسائل التي قد تنال منه منالا ، وسد جميع أبواب الشرك وذرائعه ، وشدد في أمره، كل ذلك ليبقى هذا المقصد السامي صافيا نقيا ، قال الشيخ سليمان آل الشيخ[1]: " ولقد بالغ ، وحذر وأنذر، وأبدأ وأعاد ، وخص وعم في حماية الحنيفية السمحة التي بعثه الله بها ، فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، كما قال بعض العلماء: هي أشد الشرائع في التوحيد والإبعاد عن الشرك ، وأسمح الشرائع في العمل"[2].

وقال الميلي – رحمه الله - : " وكان من آيات المرشد النصوح، وأخص مظاهر نصحه أن يجعل أولى ما يتقدم به إلى العامة ، وأول ما يقرع به أسماعهم : التحذير من الشرك ومظاهره ، وبيان مدلوله وأنواعه ، ثم الصبر على ما يلحقه لذلك من أذى جاهل متحمس ، ومغرض متعصب ، وضال متأول"[3] .

ولما كان الشرك هو أعظم ما حرم الله عز وجل ، فقد حرم كل الوسائل والأسباب المفضية إليه ، فالله عز وجل إذا حرم شيئا وله طرق ووسائل تفضي إليه ، فإنه يحرمها ويمنع منها تحقيقا لتحريمه ، وتثبيتا له ، ومنعا أن يقرب حماه ، ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه ؛ لكان ذلك نقضا للتحريم ، وإغراء للنفوس به، وحكمته تعالى وعلمه يأبى ذلك كل الإباء[4].

قال القرافي[5] – رحمه الله - : " وموارد الأحكام على قسمين : مقاصد : وهي المتضمنة للمصالح والمفاسد في

---

[1] هو الشيخ العلامة الفقيه المحدث الأصولي سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، ولد في الدرعية سنة (1200هـ) ، كان نادرة في العلم والحفظ ، له مؤلفات نافعة ، توفي مقتولا في الدرعية على يد إبراهيم باشا سنة (1233هـ) . انظر : مشاهير علماء نجد وغيرهم (29) ، عنوان المجد (183) .

[2] تيسير العزيز الحميد ص 347 - 318

[3] الشرك ومظاهره لمبارك الميلي (18) .

[4] انظر : إعلام الموقعين (3/111 – 112).

[5] هو : أحمد بن إدريس ، المشهور بالقرافي ، أبو العباس الصنهاجي ، المالكي ، نسب إلى القرافة ولم يسكنها ، عالم ، فقيه ، أصولي ، له عدة مؤلفات ، توفي في مصر سنة (682هـ). انظر : الديباج المذهب (1/62) ، الوافي بالوفيات للصفدي (6/235) ، المنهل الصافي لابن تغري بردي (1/232) .

أنفسها . ووسائل : وهي الطرق المفضية إليها ، وحكمها حكم ما أفضت إليه من تحريم وتحليل غير أنها أخفض رتبة من المقاصد في حكمها ، والوسيلة إلى أفضل المقاصد أفضل الوسائل ، وإلى أقبح المقاصد أقبح الوسائل.." [1].

ووسائل الشرك : هي ذرائعه الموصلة إليه ، وغالبا ما يعبر العلماء عن تحريم وسائل الشرك بسد الذرائع .

والذريعة في اللغة : هي ما كان طريقا ووسيلة إلى الشيء[2].

وفي الاصطلاح : قال القرطبي : الذريعة : " عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع "[3].

وقال ابن تيمية : " الذريعة ما كان وسيلة وطريقا إلى الشيء ...، ثم قال : لكن صارت في عرف الفقهاء عبارة عما أفضت إلى فعل محرم "[4].

ومعنى سد الذرائع : الحيلولة دون الوصول إلى المفسدة إذا كانت تفضي إليها[5].

المطلب الأول : وسائل الشرك وذرائعه

ومن الوسائل التي نهي الرسول عنها حماية لجناب التوحيد :

الوسيلة الأولى : تعظيم القبور

إن الفتنة بالقبور أعظم الفتن وأشدها ، وهي التي أوقعت الأمم السابقة في الشرك الأكبر ، إذ كانت سببا في عبادة غير الله من الأنبياء والصالحين.

قال شيخ الإسلام : " والشرك في بني آدم أكثره عن أصلين: أولها: تعظيم قبور الصالحين ، وتصوير تماثيلهم للتبرك بها ، وهذا أول الأسباب التي بها ابتدع الآدميون ، وهو شرك قوم نوح " [6].

---

1 الفروق (2/33) .
2 انظر : لسان العرب (3/1498) .
3 الجامع لأحكام القرآن (2/40).
4 مجموع الفتاوى (3/139) .
5 أصول الفقه وابن تيمية لصالح بن عبد العزيز المنصور (2/481) .
6 الفتاوى (17/460) ، وذكر أن السبب الثاني عبادة الكواكب .

وذكر أبن القيم أيضا أن غالب شرك الأمم كان من جهة الصور والقبور ، فقال : " فقد رأيت أن سبب عبادة ود ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا ، واللات ، إنما كانت من تعظيم قبورهم ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها، كما أشار إليه النبي ، قال شيخنا : وهذه العلة التي لأجلها نهي الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيرا من الأمم إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك ، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين ، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم للكواكب ونحو ذلك ، فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفس من الشركة بخشبة أو حجر ؛ ولهذا نجد أهل الشرك كثيرا ما يتضرعون عندها ، ويخشعون ويخضعون ، ويعبدونهم بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله، ولا وقت السحر ، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد ، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقا وإن لم يقصد المصلى بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها ، لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاة فيها للشمس ، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد المصلي ما قصده المشركون ، سدا للذريعة "[1]، وتعظيم القبور يكون في الزيارة البدعية ، وما يحصل فيها مما يغضب الله عز وجل يقول شيخ الإسلام : " وأما الزيارة البدعية فهي من جنس الشرك والذريعة إليه ، كما فعل اليهود والنصارى عند قبور الأنبياء والصالحين "[2] ، ولهذا التعظيم عدة صور ، منها :

*** اتخاذ القبور مساجد**

وردت أحاديث كثيرة في النهي عن اتخاذ القبور مساجد ، والصلاة إليها أو عندها ، ولعن من فعل ذلك ، فعن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم أن رسول الله لما حضرته الوفاة جعل يلقي على وجهه خميصة له ، فإذا اغتم كشفها عن وجهه، وهو يقول : " لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" تقول عائشة : "يحذر ما صنعوا "[3]، قال ابن

---

[1] إغاثة اللهفان (1/184-185) .
[2] مجموع الفتاوى (27/31) .
[3] رواه البخاري [كتاب المساجد /باب الصلاة في البيعة](1/168) ، ومسلم [كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور] (1/377) .

حجر - رحمه الله- : " وكأنه علم أنه مرتحل من ذلك المرض ، فخاف أن يعظم قبره ؛ كما فعل من مضى ، فلعن اليهود والنصارى إشارة إلى ذم من يفعل فعلهم "[1].

وقال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله- عند قوله : " والذين يتخذون القبور مساجد " : " فهم من شرار الخلق وإن لم يشركوا ؛ لأنهم فعلوا وسيلة من وسائل الشرك ، والوسائل لها أحكام المقاصد ، وإن كانت دون مرتبتها ولكنها تعطى حكمها بالمعنى العام ، فإن كانت وسيلة لواجب صارت واجبة، وإن كانت وسيلة لمحرم فهي محرمه "[2] .

واتخاذها مساجد يكون : بالصلاة عندها ، أوبناء المساجد عليها ، ولا يغير تسميتها مشاهد ومزارات كون الصلاة عندها من اتخاذها مساجد[3].

قال شيخ الإسلام : " والأحاديث عن النبي في النهي عن اتخاذ القبور مساجد ، والصلاة في المقبرة كثيرة جدا ، مثل ما في الصحيحين والسنة ، عن أبي هريرة أن رسول الله قال : " قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"[4]. ونهى عن الصلاة إلى القبور ، فقال : " لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها "[5] ؛ لأن ذلك يدعو إلى الشرك ، ودعاء الموتى ، واعتقاد أن الصلاة عند القبور أفضل من الصلاة في المساجد "[6] .

وقال في موضع آخر: " وتظن طائفة من أهل العلم أن الصلاة في المقبرة نهي عنها من أجل النجاسة ؛ لاختلاط تربتها بصديد الموتى ولحومهم ، وهؤلاء قد يفرقون بين المقبرة الجديدة والقديمة ، وبين أن يكون هناك حائل أو لا يكون، والتعليل بهذا ليس مذكورا في الحديث ، ولم يدل عليه الحديث لا نصا ولا ظاهرا ، وإنما هي علة ظنوها ، والعلة الصحيحة عند غيرهم ما ذكره غير واحد من العلماء من السلف والخلف في

---

[1] فتح الباري (1/532) .
[2] القول المفيد (1/ 413 – 414).
[3] انظر: مجموع الفتاوى (27/160).
[4] سبق .
[5] رواه مسلم [كتاب الجنائز / باب : النهي عن الجلوس على القبر ، والصلاة عليه] (2/668) ، وأبو داود [كتاب الجنائز / باب في كراهية القعود على القبور] (3/217) .
[6] الفتاوى (27/ 157-158) .

زمن مالك والشافعي وأحمد وغيرهم : إنما هو ما في ذلك من التشبه بالمشركين ، وأن يعتبر ذريعة إلى الشرك..." [1] .

ويدخل في ذلك قصدها للدعاء عندها ، قال شيخ الإسلام : " فإذا كان قد لعن من يتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، امتنع أن يكون تحريها للدعاء مستحبا ؛ لأن المكان الذي يستحب فيه الدعاء يستحب فيه الصلاة "[2].

وقد جرد السلف الصالح التوحيد ، وحموا جانبه ، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ثم أراد الدعاء استقبل القبلة ، وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا ، ونص على ذلك الأئمة الأربعة : أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء ، حتى لا يدعو عند القبر ، فإن الدعاء عبادة [3].

*** العكوف عليها**

والمراد بالعكوف : البقاء والإقامة على الشيء في المكان عبادة وتعظيما وتبركا ؛ كما كان المشركون يفعلون ذلك عند أصنامهم[4].

فالعكوف على القبور ، والتمسح بها ، وتقبيلها ، والدعاء عندها وفيها، ونحو ذلك ، هو أصل الشرك وعبادة الأوثان ؛ لما تقدم ؛ ولهذا قال عليه السلام : "اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد "[5] ، قال ابن تيمية : " العكوف والمجاورة عند قبر نبي ، أو غيره ، أو مقام نبي، أو غير نبي ، ليس هو من دين المسلمين ، بل هو من جنس دين المشركين الذين أخبر الله عنهم بما ذكره في كتابه حيث قال (مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)(الأنبياء: من الآية52)...، فعكوف المؤمنين في المساجد ، وعكوف الجاهلين في المشاهد ، وهو من جنس عكوف المشركين"[6]..

وقال ابن القيم : " وتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور ، معرضين عن طريقة من فيها وهديه وسنته ، مشتغلين بقبره عما أمر به ودعا إليه ، وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما هي باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع ، والعمل الصالح ،

---

[1] المرجع السابق (27/159) .
[2] المرجع السابق (27/120) .
[3] إغاثة اللهفان (1/200 201) .
[4] لسان العرب (5/3058)، معارج الألباب للنعمي (264)، حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم(150) .
[5] سبق
[6] اقتضاء الصراط المستقيم (2/356-357) . بتصرف يسير .

واقتفاء آثارهم وسلوك طريقتهم ، دون عبادة قبورهم والعكوف عليها ، واتخاذها أعيادا "[1].

*** اتخاذها أعيادا**

والعيد : ما يعتاد مجيئه وقصده من مكان وزمان[2].

واتخاذها عيدا هو الاجتماع عندها واعتياد قصدها لذلك ، فإن العيد من المعاودة ، وإذا جعل اسما للمكان : فهو المكان الذي يقصد للاجتماع فيه ، وإتيانه للعبادة[3].

وقد حذر من اعتياد قبره صلوات الله وسلامه عليه ، فقال فيما رواه أبو هريرة: " لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم"[4].

قال ابن تيمية : " وبالجملة فهذا الذي يفعل عند هذه القبور هو بعينه الذي نهى عنه رسول الله بقوله : " لا تتخذوا قبري عيدا " ، فإن اعتياد قصد المكان المعين في وقت معين ، عائد بعود السنة أو الشهر أو الأسبوع هو بعينه معنى العيد ، فينهى عن دق ذلك وجله"[5] ؛ لأنه إذا سوغ فعل القليل من ذلك أدى إلى فعل الكثير ، ثم إذا اشتهر دخل فيه عوام الناس وتناسوا أصله فيعتقدون ذلك المبتدع سنة أو واجبا[6].

وقال ابن القيم : " إن قبر رسول الله أفضل قبر على وجه الأرض وقد نهي عن اتخاذه عيدا ، فقبر غيره أولى بالنهي كائنا من كان ، ثم إنه قرن ذلك بقوله : " ولا تتخذوا بيوتكم قبورا " ، أي : لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري النافلة في البيوت ونهى عن تحري العبادة عند القبور"[7].

---

[1] إغاثة اللهفان (1/331) .
[2] إغاثة اللهفان (1/190) ، وانظر : النهاية (3/317) .
[3] انظر : الاقتضاء (2/176) ، شفاء الصدور للنجمي الحنبلي (202) ، إغاثة اللهفان (1/192).
[4] رواه أبو داود [كتاب المناسك / باب : زيارة القبور] (2/534) رقم 2042، والإمام أحمد: (2/367) . وقال ابن تيمية : "وهذا حديث حسن ورواته ثقات مشاهير لكن عبد الله بن نافع فيه لين لا يمنع الاحتجاج به" الاقتضاء (2/170) . وحسنه الحافظ ابن عبد الهادي في الصارم المنكي . وللتوسع في تخريجه ، انظر : (ص   ) .
[5] الاقتضاء (2/258) .
[6] انظر : الاقتضاء (1/531) .
[7] إغاثة اللهفان (1/192) .

ومن اتخاذها أعيادا : شد الرحال إلى قبره وإلى غيره من القبور والمشاهد، وقد قال : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد ، المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى" ، ومن أقل ذلك ما يعتقده كثير من الحجاج من وجوب زيارة قبر النبي والصلاة في مسجده أربعين صلاة ، وأن من لم يفعل ذلك فإن حجته ناقصة أو باطلة ، ويظنون أيضا أن من شعائر الحج زيارة القبور والمزارات والمشاهد بمكة والمدينة..[1].

قال ابن تيمية : "والمقصود هنا: أن الصحابة لم يكونوا يستحبون السفر لشيء من زيارات البقاع : لا آثار الأنبياء ، ولا قبورهم ، ولا مساجدهم إلا المساجد الثلاثة"[2].

وقال الشيخ سليمان آل الشيخ : "وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره ، وإلى غيره من القبور والمشاهد ؛ لأن ذلك من اتخاذها أعيادا، بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابها "[3].

وقد نهى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن اتخاذ آثار الأنبياء أعيادا خوف الافتنان، ومخالفة النهي، وإحداث البدع ، وأمر رضي الله عنه بقطع الشجرة التي توهموا أنها الشجرة التي بويع الصحابة تحتها بيعة الرضوان، لما رأى الناس ينتابونها ويصلون عندها[4].

وذكر ابن القيم كلاما رائعا في وصف حال المتخذين للقبور أعيادا حيث قال: " فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدا ، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد ، فوضعوا لها الجباه ، وقبلوا الأرض وكشفوا الرؤوس ، وارتفعت أصواتهم بالضجيج ، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج ، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج ، فاستغاثوا بمن لا يبدي ولا يعيد ، ونادوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين ، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر- ولا أجر- من صلى إلى القبلتين ، فتراهم حول القبر ركعا سجدا يبتغون فضلا من الميت ورضوانا ، وقد ملئوا أكفهم خيبة وخسرانا ، فلغير الله بل للشيطان ما يراق هناك من العبرات ، ويرتفع من الأصوات ، ويطلب من الميت الحاجات ، ويسأل من تفريج

---

1 انظر : شفاء الصدور (215) ، هامش رقم (6) .
2 الفتاوى (27/33) .
3 تيسير العزيز الحميد ص 359 .
4 أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (2/100) عن نافع ، وقال ابن حجر: إسناده صحيح ، الفتح (7/448) .

الكربات ، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة أولى العاهات والبليات ، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائعين ، تشبيها له بالبيت الحرام، الذي جعله الله مباركا وهدى للعالمين ، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام، أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام ، ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود ، التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود .

ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق ، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق ، وقربوا لذلك الوثن القرابين.

وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين ، فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضا، ويقول : أجزل الله لنا ولكم أجرا وافرا وحظا ، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحج المتخلف إلى البيت الحرام، فيقول: لا، ولا بحجك كل عام .

هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم، إذ هي فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال.

وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم، وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور سد الذريعة إلى هذا المحذور"[1].

* البناء عليها وإسراجها وتجصيصها والكتابة عليها

ونهى عن إيقاد السرج عليها ؛ لكونه وسيلة إلى تعظيمها وجعلها نصبا يوفض إليها المشركون ، فعن ابن عباس – رضي الله عنه – قال : " لعن رسول الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج "[2] ، وكل ما لعن رسول الله فاعله فهو من الكبائر.

ونهى عن تجصيص القبر ، والبناء ، والكتابة ، والزيادة عليه من غير ترابه ، فعن جابر – رضي الله عنه – قال : نهى رسول الله عن تجصيص القبر والبناء عليه ، وفي رواية "وأن يكتب عليه" وفي رواية "وأن يزاد عليه" وكل ذلك سدا لذريعة تعظيمها والافتتان بها الموصل إلى عبادة أربابها.

[1] إغاثة اللهفان (1/194).
[2] سبق .

كما أمر بتسوية القبور، فعن أبي الهياج الأسدي قال : قال على بن أبي طالب – رضي الله عنه - : " ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله "لا تدع تمثالا إلا طمسته ، ولا قبرا مشرفا إلا سويته "[1].

ومما يدخل في البناء على القبور، بناء القباب على القبور وغيرها من الأبنية العظيمة ، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله - : " أما بناء القباب عليها فيجب هدمها ، ولا علمت أنه يصل إلى الشرك الأكبر، وكذلك الصلاة عندها، وقصدها لأجل الدعاء فكذلك لا أعلمه يصل إلى ذلك ، ولكن هذه الأمور من أسباب حدوث الشرك فيشتد نكير العلماء لذلك... وذكر العلماء أنه يجب التغليط في هذه الأمور لأنه يفتح باب الشرك ..." [2].

وقال الشوكاني – رحمه الله - : " وكل عاقل يعلم أن لزيادة الزخرفة للقبور، وإسبال الستور الرائعة عليها ، وتسريجها ، والتأنق في تحسينها تأثير في طبائع غالب العوام، وينشأ عنه التعظيم والاعتقادات الباطلة.

وهكذا إذا استعظمت نفوسهم شيئا مما يتعلق بالأحياء ، وبهذا السبب اعتقد كثير من الطوائف الإلهية في أشخاص كثيرة "[3].

فإذا جاء العامي عند مشهد من تلك المشاهد ، رأى ما يبهره من القباب المزخرفة ، والأضرحة المزينة ، ورأى الستائر المسدولة ، والأبخرة المتصاعدة، والأزهار المتناثرة، ورأى الناس يطوفون حول القبر، ويصرخون بندائه واستغاثته، ورأى هذا يبكي، وآخر يناجي ويتضرع، وآخر يتمرغ بتراب القبر، وآخر يقبض النذور ويبارك، وآخر يحكي كرامات الشيخ وخوارقه، وآخر يقول: كنت في شدة فدعوت الشيخ فاستجاب لي، إذا رأى العامي هذه الأمور - ولم يجد من ينكر ذلك – ظن أن هذا من دين الإسلام ، وقلد هؤلاء وعمل مثل عملهم وتأثر بما رأى وسمع ، " ويضيق صدره عن تصور ما لهذا الولي من المنزلة، ويدخله من الروع والمهابة ما يغرس في قلبه من العقائد الوهمية... ما يزلزله عن الإسلام قليلا قليلا حتى يطلب من صاحب هذا القبر ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى"[4].

---

[1] رواه مسلم [كتاب الجنائز / باب: الأمر بتسوية القبر] (2/666) .
[2] مؤلفات الشيخ (المجلد الثاني / قسم الفتاوى/42) .
[3] الدر النضيد (ص 11 – 12) .
[4] الإبداع في مضار الابتداع (ص 213) .

الوسيلة الثانية : الغـــلو

حذر النبي أمته من الغلو، وأخبر أنه الداء العضال الذي هلكت به الأمم السابقة ، فقال : " إياكم والغلو في الدين ، فإنما أهلك من كان قبلكم بالغلو في الدين "[1]. " والغلو هو: مجاوزة الحد بأن يزاد الشيء في حمده أو ذمه على ما يستحق . والإطراء : هو مجاوزة الحد في المدح [2]..

وقد غر الشيطان حزبه وقال : بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشد لها تعظيما، وأشد فيهم غلوا ، كنتم بقربهم أسعد ، ومن أعدائهم أبعد "[3]. والغلو يتضمن مفاسد كثيرة منها:

1. أنه يؤدي إلى عبادة هذا المغلو فيه كما هو الواقع من أهل الغلو .
2. أنه يصد عن تعظيم الله - سبحانه وتعالى - ؛ لأن النفس إما أن تنشغل بالباطل أو بالحق، فإذا انشغلت بالغلو بهذا المخلوق وإطرائه وتعظيمه تعلقت به ونسيت ما يجب لله تعالى من حقوق[4].

ومن أنواع الغلو التي هي من أعظم وسائل الشرك :

* الغلو في النبي : وهو من أعظم الوسائل الموصلة إلى عبادته ، كما فعلت النصارى مع عيسى ابن مريم حيث رفعته إلى مرتبة الألوهية ، وسدا للذريعة بيّن النبي مرتبته ومنزلته ، وأنه عبد ورسول ، ليس له من خصائص الإلهية شيء ، وبين أن هاتين المرتبتين أعلى مراتب العبد[5] .

* الغلو في الصالحين : إذا كان الغلو في حقه ممنوعا ، فالغلو في حق غيره من الصالحين من باب أولى . والمراد بالغلو في الصالحين : رفعهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله

---

[1] أخرجه الإمام أحمد (1/215) ، وابن ماجة [كتاب المناسك / باب : قدر حصى الرمي] (2/1008) ، وابن خزيمة في صحيحه (4/274) ، وابن حبان (9/184) ، وصححه الألباني، والأرنؤوط .

[2] تسير العزيز الحميد / 272.

[3] إغاثة اللهفان (1/185) .

[4] القول المفيد (1/370) .

[5] ? ينظر : المسألة الثالثة ، وفيها بيان كيف أفضى الغلو فيه إلى الشرك .

إلى ما لا يجوز إلا لله ، من الاستغاثة بهم في الشدائد ، والطواف بقبورهم ، والتبرك بتربتهم ، وذبح القرابين لأضرحتهم ، وطلب المدد منهم ، وهذا هو نهايته وغايته ، وإن كانت بدايته وسيله من وسائل الشرك ، ولكنه ينتهي به ولا شك .

وقد أدخل الشيطان الشرك على قوم نوح من باب الغلو في الصالحين ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما : " أن ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا كانت أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت "[1].

ثم وقع الشرك بعد قوم نوح عليه السلام في الأمم الأخرى بسبب الغلو في الصالحين أيضا، فقد اخبرنا الله تعالى أن اليهود غلوا في عزير وقالوا : ابن الله، وغلت النصارى في عيسي ، فقالوا : ابن الله - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا- ، قال تعالى: (وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) (براءة:30) ، ولم يقتصر غلو اليهود والنصارى على أنبيائهم ، قال تعالى : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)(براءة :31) ، فقد غلوا في الأحبار والرهبان ، فعبدوهم من دون الله، إذ أطاعوهم في التحليل والتحريم ، كما في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، قال : " أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه "[2].

كما أنهم عبدوهم بغير الطاعة لقول النبي : " أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح صوروا فيه تلك الصور..." [3]..

---

[1] رواه البخاري [كتاب التفسير/ باب : " ولا تذرن ودا ولا سواعا...] (4/1873) .

[2] رواه الترمذي (5/278) ، رقم 3095 ، وابن جرير (10/114) ، وقال الترمذي: هذا حديث غريب ، والحديث له شاهد موقوف عن حذيفة أخرجه ابن جرير(10/114) .

[3] تقدم تخريجه . وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية عبادة النصارى للقديسين ولمريم وغلوهم في الأحبار والرهبان بقصد قبورهم لدعائهم وغير ذلك مما يفيد عبادتهم لهم بغير الطاعة ايضا . انظر ذلك في : الفتاوى 1/135، والجواب الصحيح 1/319، ومنهاج السنة 2/435، كما ذكر عبادتهم لصور القداديس في الكنائس : الفتاوى 17/455.

ثم إن الشرك عندما وقع في مشركي العرب ، وقع بسبب الغلو في الصالحين أيضا، ومما يدل على ذلك ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما- : " كان اللات رجلا يلت سويق الحاج "[1] ، وفي رواية ابن أبي حاتم زيادة : "كان يلت السويق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا سمن فعبدوه "[2].

وكذلك عندما وقع الشرك في هذه الأمة ، وقع بسبب الغلو في الصالحين، وهو الذي وقع من السبئية الذين غلوا في علي - رضي الله عنه - حتى ألهوه، وقالوا له : أنت ربنا، وخالقنا، ورازقنا[3].

وتبعهم الرافضة الذين غلوا في علي وأئمة أهل البيت ، ووصفوهم بصفات الربوبية، وأعطوهم حق التصرف في الكون.

وقد ذكر المؤرخون أن الروافض هم السبب في نشر الشركيات في هذه الأمة، ثم تأثر بهم الصوفية ، ومن طريقهم انتشر الشرك في عوام المسلمين . قال ابن خلدون[4] : " ثم حدث أيضا عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف ، وفيما وراء الحس، وظهر منهم القول بالحلول والوحدة، فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم ، وظهر منهم القول بالقطب والأبدال ، وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الإمام ، والنقباء ، وأشربوا أقوال الشيعة ، وتوغلوا في الديانة بمذهبهم ، حتى جعلوا مستند طريقهم في لبس الخرقة : أن عليا - رضي الله عنه - ألبسها الحسن البصري.. ولا يعلم هذا من وجه صحيح "[5].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - في رسالته إلى السويدي[6]: " إن أول من أدخل الشرك في هذه

---

[1] ? رواه البخاري [كتاب التفسير / باب : أفرأيتم اللات والعزى] (4/1841) . والطبري (27/59) .

[2] ? فتح الباري (8/612) .

[3] ? ذكره والأشعري في مقالات الإسلاميين(1/ 86) . وابن تيمية في منهاج السنة (1/23 -34)، والفتاوى (4/518) ، وابن حجر في فتح الباري (12/270) .

[4] هو : عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ، أبو زيد ، القاضي ، المالكي ، المعروف بابن خلدون ، المتوفى سنة (808هـ) صاحب كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " . انظر : نفح الطيب (3/274) ، شذرات الذهب (7/76) .

[5] مقدمة ابن خلدون (323) .

[6] سبق (ص) .

الأمة هم الرافضة الملعونة الذين يدعون عليا وغيره، ويطلبون منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات"[1].

وعلى هذا فيجب الحذر من الغلو ، وإن كان القصد حسنا ، وقد وقع في هذه الأمة مثل ما وقع لقوم نوح ، لما أظهر الشيطان لكثير من المفتونين الغلو والبدع في قالب تعظيم الصالحين ، ومحبتهم ، فما زال الشيطان يوحي إلى عباد القبور، ويلقي إليهم أن البناء والعكوف على قبور الصالحين يعتبر محبة لهم ، وأن الدعاء عند قبورهم يستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها والتوسل بها، فإذا ألفوا ذلك نقلهم منه إلى دعاء المقبورين وعبادتهم ، وسؤالهم الشفاعة من دون الله عز وجل، فتصبح قبورهم أوثانا تعلق عليها القناديل ، وتسدل عليها الستور ، ويطاف بها ، وتستلم ، وتقبل، فإذا ألفوا ذلك نقلهم إلى أن يدعوا الناس إلى عبادة هذه القبور واتخاذها أعيادا ومناسك، فإذا ألفوا ذلك وتقرر عندهم ، نقلهم إلى اعتقاد أن من نهى عنه فقد تنقص الأولياء وأبغضهم وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر له، وقد سرى ذلك في نفوس كثير من الجهال ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " فكل من غلا في نبي ، أو رجل صالح ، وجعل فيه نوعا من الإلهية ، مثل أن يقول : يا سيدي فلان انصرني ، أو أغثني ، أو ارزقني ، أو أنا في حسبك ، ونحو هذه الأقوال ، فكل هذا شرك وضلال ، يستتاب صاحبه ، فإن تاب وإلا قتل، فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ؛ ليعبد وحده لا شريك له ، ولا يدعي معه إله آخر، والذين يدعون مع الله إلها آخر ، مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق ، أو تنزل المطر ، أو تنبت النبات ، وإنما كانوا يعبدونهم ، أو يعبدون قبورهم ، أو يعبدون صورهم ، ويقولون: " ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " ، ويقولون : " هؤلاء شفعاؤنا عند الله" ، فبعث الله سبحانه رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة ولادعاء استغاثة..."[3].

الوسيلة الثالثة : التبرك البدعي

---

[1] مؤلفات الشيخ (المجلد الثالث / الرسائل الشخصية 21) .
[2] الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (ص 42 – 43) .
[3] مجموع الفتاوى (3/395-396) .

التبرك : من البركة : وهي النماء والزيادة ، حسية كانت أو معنوية، وثبوت الخير الإلهي ودوامه [1].

ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس ، وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة ، هو مبارك وفيه بركة[2]، والتبرك في تأديته وإفضائه إلى الشرك له حالتين :

الأولى : أن يكون التبرك الممنوع في حد ذاته شركا ، مثل التبرك بالأموات من الأنبياء والصالحين وغيرهم – في دعائهم لقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات والاستغاثة بهم، والتقرب إليه بالذبح أو النذر لهم، والطواف على قبورهم فهذا ونحوه من الشرك الأكبر.

الثانية : أن يؤدي التبرك الممنوع إلى الشرك، فيكون التبرك الممنوع من وسائله، ويكون الشرك من نتائج التبرك وآثاره[3]، ومن أنواعه التبرك التي هي من وسائل الشرك ما يلي :

1- الدعاء والصلاة عند القبور طلبا للبركة ، قال شيخ الإسلام : " فأما إذا قصد الرجل الصلاة عند بعض قبور الأنبياء، أو بعض الصالحين تبركا بالصلاة في تلك البقعة فهذا عين المحادة لله ورسوله، والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله "[4].

2- التمسح بحائط قبر الرسول أو تقبيله ، أو قبر غيره رجاء الخير والبركة، قال شيخ الإسلام : " وأما التمسح بقبر النبي وتقبيله فكلهم كره ذلك ، ونهى عنه ، وذلك أنهم علموا ما قصده النبي من حسم مادة الشرك وتحقيق التوحيد"[5]. وقال أيضا : " ولهذا اتفق السلف على أنه لا يستلم قبرا من قبور الأنبياء وغيرهم، ولا يتمسح به، ولا يستحب الصلاة عنده، ولا قصده للدعاء عنده أو به، لأن هذه الأمور كانت من أسباب الشرك وعبادة الأوثان، كما قال تعالى: (وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً)(نوح:23) "[6].

---

[1] المفردات للراغب (44) ، الكليات لأبي البقاء (248) ، التوقيف على مهمات التعاريف (124) ، وانظر : التبرك للجديع ص 43.

[2] الشرك ومظاهره للميلي (ص 93 – 100) .

[3] انظر : التبرك أنواعه وأحكامه (483-484)، مجموع فتاوى الشيخ ابن باز (2/956)

[4] الاقتضاء (2/193) .

[5] مجموع الفتاوى (27/79-80) .

[6] مجموع الفتاوى (27/31) .

وقال في موضع آخر مبينا سبب كراهة العلماء للتمسح بقبر النبي أو تقبيله : " ولأنهم علموا ما قصده النبي من حسم مادة الشرك ، وتحقيق التوحيد ، وإخلاص الدين لله رب العالمين "[1]. وقال النووي – رحمه الله - : " ومن خطر بباله أن المسح باليد ، ونحوه أبلغ في البركة ، فهو من جهالته وغفلته ؛ لأن البركة إنما هي في ما وافق الشرع وأقوال العلماء ، وكيف يبتغي الفضل في مخالفة الصواب "[2].

3- ومنه : التبرك بالمواضع التي جلس فيها الرسول أو صلى فيها، فهذا التبرك منهي عنه سدا لذريعة الشرك والفتنة ، فهو وسيلة إلى الفتنة بتلك المواضع وتعظيمها، وربما أفضى ذلك إلى جعلها معابد[3]. قال ابن تيمية : " مثل من يذهب إلى حراء ليصلي فيه ويدعو، أو يسافر إلى غار ثور ليصلي فيه ويدعو، أو يذهب إلى الطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ليصلى فيه ويدعو، أو يسافر إلى غير هذه الأمكنة من الجبال وغير الجبال التي يقال فيها مقامات الأنبياء.. ولا شرع لأمته زيارة موضع المولد ، ولا زيارة موضع بيعة العقبة.... ومعلوم أنه لو كان هذا مشروعا مستحبا يثيب الله عليه ، لكان النبي أعلم الناس بذلك ، وأسرعهم إليه، ولكان يعلم أصحابه ذلك ، وكان أصحابه أعلم بذلك وأرغب فيه ممن بعدهم ، فلما لم يكونوا يلتفتون إلى شيء من ذلك علم أنه من البدع المحدث "[4].

وقد رد الشيخ عبد العزيز بن باز على من طالب بإحياء الآثار النبوية ، كطريق الهجرة، ومكان خيمة أم عبد، ونحو ذلك ، وبين أن ذلك يجر إلى تعظيمها، أو الدعاء عندها، أو الصلاة ونحو ذلك، وهذه من الوسائل المفضية إلى الشرك "[5] .

---

[1] المرجع السابق (27/80) . وانظر: التبرك أنواعه وأحكامه للجديع ص 328 .

[2] الإيضاح في المناسك للنووي (456) .

[3] انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم (1/368)، والتبرك للشيخ ناصر الجديع (ص 347) .

[4] الاقتضاء (2/331-335) .

3 مجموع فتاوى الشيخ ابن باز (3/334) .

4 وقد أصبحت الموالد الآن مظهرا من مظاهر الشرك . والله المستعان .

[5] مجموع فتاوى الشيخ ابن باز (3/334) .

2 وقد أصبحت الموالد الآن مظهرا من مظاهر الشرك الأكبر – والله المستعان - .

3 انظر : اقتضاء الصراط المستقيم (339) ت: الفقي ، الاعتصام للشاطبي (8) .

4- ومنه : التبرك بليلة مولد النبي ، فهم يعتقدون بركة تلك الليلة، وما يوافقها كل سنة، وبركة ما يقرأ فيها مما يسمى " بمولد النبي " الذي يتضمن قصة مولده وجانبا من سيرته ، هذا إذا اقتصر المولد على ذلك[2].

5- التبرك بالأمكنة المباركة على غير ما ورد به الشرع ، كتقبيل أبواب المساجد ، والتمسح بأعتابها ، والاستشفاء بتربتها ، ومثل ذلك التمسح بجدران الكعبة ، أو مقام إبراهيم ، أو غير ذلك .

6- ومن التبرك الباطل : التبرك بذوات الصالحين ، وآثارهم ، فلم يؤثر عن أحد من الناس أنه تبرك بوضوء أبي بكر أو عمر ، أو ثيابه ، أو عرقه ، وإنما كان الصحابة – رضي الله عنهم – يتبركون بوضوء النبي ، وجسمه ، وعرقه ، وشعره ، وهذا خاص بالنبي ، ولا يجوز أن يقاس عليه أحد من الصالحين ، ولو كانوا الخلفاء الراشدين، أو العشرة المبشرين فضلا عن غيرهم، لأن التبرك عبادة مبناها على التوقيف والاتباع[3].

الوسيلة الرابعة : التوسل بالجاه

إن التوسل بجاه الذوات الفاضلة من البدع التي انتشرت عند المتأخرين ، وهو ذريعة من ذرائع الشرك ، فهو الباب الرئيس الذي دخل منه الشيطان على المسلمين لنشر دعاء غير الله تعالى ، والاستغاثة بالأموات والاستمداد بهم [1]، وهو : أن يسأل الله مستشفعا بهم ، كأن يقول : اللهم إني أسألك بنبيك محمد ، أو أتوجه إليك به[2].

وذلك أن الشيطان يزين للإنسان أولا الدعاء بمن يعتقد فيه ، ثم ينقله إلى دعائه نفسه والعياذ بالله.

قال الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله - : " التوسل بجاهه ، أو بحقه ، أو بذاته مثل أن يقول الإنسان : أسألك يا الله بنبيك ، أو جاه نبيك ، أو حق نبيك ، أو جاه الأنبياء، أو حق الأنبياء ، أو جاه الأولياء والصالحين، وأمثال ذلك ، فهذا بدعة ، ومن وسائل الشرك "[3].

---

[1] انظر : منزلة الدعاء لجيلاني خضر ص 613 – 644.
[2] انظر : المرجع السابق ص 630.
[3] مجموع فتاوى الشيخ ابن باز (2/947) .

وقال في موضع آخر: " بل هو من البدع ، ومن وسائل الشرك عند أكثر أهل العلم "[4].

الوسيلة الخامسة : التصـــوير

التصوير وسيلة من وسائل الشرك ، وادعاء المشاركة لله بالخلق ، أو المحاولة لذلك ، وأول حدوث الشرك في الأرض كان بسبب التصوير، لما زين الشيطان لقوم نوح تصوير الصالحين ، ونصب صورهم على المجالس؛ لأجل تذكر أحوالهم ، والاقتدء بهم في العبادة ، حتى آل الأمر إلى عبادة تلك الصور ، واعتقاد أنها تنفع وتضر من دون الله . فالتصوير هو منشأ الوثنية، لأن فيه تعظيم للمخلوق ، وتعلق به في الغالب ، خصوصا إذا كان المصور له شأن ، من سلطة ، أو علم ، أو صلاح ، وخصوصا إذا عظمت الصورة[2]، فعن عائشة رضي الله عنها : أن أم حبيبة وأم سلمه ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ، فقال : " إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح ، فمات بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله "[3].

وقد أمر بطمس التماثيل والصور كما في حديث علي – رضي الله عنه – المتقدم ، قال الشيخ سليمان آل الشيخ : " وإنما صور أوائلهم الصور، ليتأسوا بها ، ويتذكروا أفعالهم الصالحة ، فيجتهدون كاجتهادهم ، ويعبدون الله عند قبورهم ، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ، ووسوس لهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها "[4].

الوسيلة السادسة : الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها

لما في ذلك من التشبه بالذين يسجدون لها في هذه الأوقات ، قال : " إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تبرز ، وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب ، ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها ، فإنها تطلع بين قرني شيطان ، أو الشيطان "[5] ، قال النووي : "

---

[4] المرجع السابق (2/948)

[2] الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد لصالح الفوزان (ص 45) .

[3] سبق ، رواه البخاري (1/523) ، ومسلم (1/375) .

[4] تيسير العزيز الحميد ص 278.

[5] رواه البخاري [كتاب بدء الخلق/ باب : صفة إبليس وجنوده] (3/1193) ، ومسلم [كتاب صلاة المسافرين وقصرها / باب : إسلام عمرو

ومعناه أنه يدنى رأسه إلى الشمس في هذه الأوقات ليكون الساجدون لها من الكفار كالساجدين له في الصورة ، وحينئذ يكون له ولبنيه تسلط ظاهر وتمكن من أن يلبسوا على المصلين صلاتهم ، فكرهت الصلاة حينئذ صيانة لها كما كرهت في الأماكن التي هي مأوى الشيطان"[1] ، وقال ابن حجر – رحمه الله - : " وفيه إشارة إلى علة النهي عن الصلاة في الوقتين المذكورين ، وزاد

مسلم من حديث عمرو بن عبسة : " وحينئذ يسجد لها الكفار " ، فالنهـي حينئذ لترك مشابهة الكفار ، وقد اعتبر ذلك الشرع في أشياء كثيرة "[2] .

وقال ابن تيمية: " ونبينا نهى عن الشرك دقه وجله ، وحقيره وكبيره، حتى أنه قد تواتر عنه : أنه نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ، ووقت غروبها بألفاظ متنوعة : تارة يقول : " لا تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها ".

وتارة ينهى عن الصلاة بعد طلوع الفجر حتى تطلع الشمس ، وبعد العصر حتى تغرب الشمس ، وتارة : يذكر أن الشمس إذا طلعت طلعت بين قرني شيطان ، وحينئذ يسجد لها الكفار، ونهى عن الصلاة في هذا الوقت ، لما فيه من مشابهة المشركين في كونهم يسجدون للشمس في هذا الوقت ، وأن الشيطان يقارن الشمس حينئذ ليكون السجود له فكيف بما هو أظهر شركا ومشابهة للمشركين من هذا "[3].

الوسيلة السابعة : الذبح لله في مكان يعبد فيه صنم ، أو يقام فيه عيد من أعياد الجاهلية .

وقد نذر رجل على عهد رسول الله أن ينحر إبلا ببوانة ، فقال رسول الله : : هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا .

قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا .

بن عبسة] (1/571) .

[1] شرح صحيح مسلم (6/112) .

[2] فتح الباري (2/60) .

[3] مجموع الفتاوى (27/94) .

فقال رسول الله ﷺ : أوف بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم "[4] .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي[2] تعليقا على قول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب " التوحيد " : " باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله " : " ما أحسن اتباع هذا الباب بالذي قبله[3]، فالذي قبله من المقاصد ، وهذا من الوسائل، ذاك من باب الشرك الأكبر، وهذا من وسائل الشرك القريبة، فإن المكان الذي يذبح فيه المشركون لآلهتهم تقربا إليها وشركا بالله ، صار مشعرا من مشاعر الشرك ، فإذا ذبح المسلم ذبيحته ، ولو قصدها لله ، فقد تشبه بالمشركين وشاركهم في مشعرهم ، والموافقة الظاهرة تدعو إلى الموافقة الباطنة ، والميل إليهم ، ومن هذا السبب نهى الشارع عن مشابهة الكفار في شعارهم وأعيادهم ، وهيئاتهم ، ولباسهم وجميع ما يختص بهم ، إبعادا للمسلمين عن الموافقة لهم في الظاهر التي هي وسيلة قريبة للميل والركون إليهم ، حتى أنه نهي عن الصلاة النافلة في أوقات النهي التي يسجد المشركون فيها لغير الله خوفا من التشبة المحذور"[4].

---

[4] ?انظر تخريجه (ص447) .

[2] هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي الناصري التميمي ، ولد في عنيزة سنة (1307هـ)، ونشأ يتيما ، عالم ، زاهد ، ورع ، له عدة مؤلفات ، جلس للتدريس وعمره (23 سنة)، توفي في عنيزة ، سنة (1376هـ) . انظر : مشاهير علماء نجد (256) ، النعت الأكمل (428) .

[3] باب ما جاء في الذبح لغير الله .

[4] القول السديد ص 46 .

المطلب الثاني : الأسباب[1] التي أدت إلى الوقوع في الشرك

إن العاقل يعلم أن أمة من الأمم لم تجمع على أمر بلا سبب[2] يقتضي ذلك ، فعبادة غير الله قد اجتمع عليها أصناف من الناس ، فلا يتصور أن يكون ذلك بدون سبب ، فلا بد من معرفة الأسباب التي أدت إلى انتشار مظاهر الشرك ووسائله ، لأن معرفة المرض وسببه يعين على مداواة صاحبه ، وإزالة شبهاته[3] ، وهذه الأسباب متفاوتة من حيث تأثيرها على الناس ، ولكن لا يخلو من وقع في الشرك أن يكون متأثرا بواحد منها :

السبب الأول : الجهـــل

وأهل الجهل دائما أقرب إلى الشرك والبدع ، يقول شيخ الإسلام : " فالعارفون بسنة رسول الله وحديثه أولى بالتوحيد وإخلاص الدين لله ، وأهل الجهل بذلك أقرب إلى الشرك والبدع "[4].

وللجهل المؤدي إلى الوقوع في الشرك أنواع :

* الجهل بحقيقة الدين : فعندما يجهل الإنسان حقيقة ما تعبده الله به ، تلتبس عليه الأمور، وتختلط المقاصد بالوسائل ، ولا يميز بين الحق والباطل ، قال الإمام ابن القيم عندما ذكر الأمور التي أوقعت عباد القبور في الافتتان بها ، مع العلم أن ساكنيها أموات ، لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا : " منها : الجهل بحقيقة ما بعث الله به رسوله ، بل جميع الرسل : من تحقيق التوحيد ، وقطع أسباب الشرك ، فقل نصيبهم جدا من ذلك ، ودعاهم الشيطان إلى الفتنة، ولم يكن عندهم من العلم ما يبطل دعوته، فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل، وعصموا بقدر ما معهم من العلم"[5].

* الجهل بتفسير الآيات وفهم معانيها ، والذي أدى إلى هذا الجهل شبه شيطانية وحجج واهية ، فتارة يقولون : إن كلام الله أجل

---

[1] الأسباب والوسائل : بينهما عموم وخصوص ، فكل وسيلة سبب ، وليس كل سبب وسيلة ، فالأسباب أعم من الوسائل لأنها قد تؤدي إلى الشرك وقد تؤدي إلى ما دونه من الانحراف ، أما الوسائل فهي مفضية إلى الشرك ولا شك ، لذا حرمها الشرع ، ثم إن الوسائل أعمال حسية مقصودة لذاتها بخلاف الأسباب ، فقد لا تكون مقصودة لذاتها .

[2] انظر : مجموع الفتاوى (27/178).

[3] الاستغاثة في الرد على البكري (1/158) .

[4] مجموع الفتاوى (17/497) .

[5] إغاثة اللهفان (1/214) .

من أن يفسر ، وتارة يقولون : إن فهم القرآن صعب على عوام الناس ، ولا يستطيعه إلا من درس كل العلوم من نحو، وصرف ، وبيان، ومعان، ولغة، وفقه، وأصوله، وقد يستدلون بما يروونه عمن لا يعرفون : " أن تفسيره خطأ ، وخطأه كفر " ، يقول الشيخ الميلي : "ويؤكدون ذلك بحكايات في امتناع مشاهير الشيوخ من الإقدام على التفسير ، مثل كذبهم على الشيخ عبد الرحمن الثعالبي – دفين الجزائر – أنه كان إذا ألح عليه تلاميذه في ذلك ، قال لهم : لنخرج إلى الشاطىء حتى لا ينقض علينا جدار ولا يخر علينا سقف ..وكل هذا نبذ لكتاب الله ، وتعطيل لأحكامه "[1]، ونتيجة لهذه التنحية لتفسير كتاب الله وفهم معانيه ، أصبح الحال كما ذكر الشيخ أبو بكر الجزائري في وصف أحوال المسلمين في القرون الأخيرة : " كان القرآن يقرأ على الأموات دون الأحياء ، ويعتبر تفسير خطيئة من الخطايا ، وذنبا من الذنوب، إذ ساد بين المسلمين القول بأن تفسير القرآن صوابه خطأ وخطأه كفر ، فلذا القاريء يقرأ : (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً) (الجـن:18) ، والناس حول ضريح الولي المدفون في ناحية المسجد يدعون بأعلى أصواتهم : يا سيدي ، يا سيدي كذا وكذا ، ولا يجرؤ أحد أن يقول : يا إخواننا لا تدعوا السيد فإن الله تعالى يقول: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً) "[2].

وقبله قال ابن القيم : " ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له ، ويظنونه في نوع ، وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن ، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم ، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك، ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية "، وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك ، وما عابه القرآن وذمه وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوبه وحسنه ، وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية ، أو نظيره ، أو شر منه أو دونه "[3].

ونتيجة لجهلهم بمعاني الآيات صاروا يفسرون الآيات المتعلقة بالشرك بما يفهم أنها خاصة بكفار قريش ولا تنطبق على واقع

---

[1] الشرك ومظاهره (38) .
[2] السنن والمبتدعات ص 218، وانظر: الدعاء لجيلاني خضر (1/441)
[3] المدارج (1/343-344) .

الناس ، فصاروا كما قال تعالى في اليهود: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (البقرة:78).

* الجهل بالسنة وبالأسانيد ، فالذين انتشرت بينهم الأعمال الشركية أغلبهم لا يفقهون في الحديث ، ولا همة لهم في معرفته ، ولا في التدين به ، بل الصحيح والموضوع عندهم بنسبة واحدة ، إنما همتهم في السماع على جهلة الشيوخ، وتكثير العدد من الأجزاء والرواة، ولا يتأدبون بآداب الحديث[1].

ولجهلهم بالسنة راجت عندهم سوق الأحاديث الضعيفة ، بل والموضوعة ، وسيأتي لذلك زيادة بيان .

* الجهل بحقيقة تعظيم جناب الله : فإن المشرك قصده من عبادة غير الله تعظيم جناب الله ، وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء ، فإذا كان العبد مذنبا أو مقصرا فلا يليق أدبا أن يلجأ إلى الله مباشرة ، وإنما يأتي بالوسائط الذين لهم منزلة وقرب من الله ، من أنبياء وصالحين وغيرهم ، فيسألهم وهم يرفعون حاجته إلى الله[2] ، وبهذه المقاييس استمرأ المشركون عبادة غير الله ، معتقدين أنهم من أشد الناس تعظيما له ، ولفرط جهلهم لم يقيسوا الله إلا بالظالم من خلقه ، يقول صاحب كتاب " الصراع " : " الغريب في هذا أنهم لم يقيسوا الله إلا بالظالم من خلقه ، فقد رأوا أن الظالمين من البشر لا تنال منهم الحقوق والحاجات إلا بالوسائل والشفعاء ، وقد رأوا أيضا أن العادلين المنصفين من البشر يعطون الحقوق والواجبات من أنفسهم بلا وسيط ، ولا شفيع ، فشبهوا الله بالفريق الظالم الجاهل من عباده "[3].

والرسل أعرف الخلق بالله كانوا يرفعون حوائجهم إلى الله في وقت الحاجة ، ولم يعتبروا ذلك من سوء الأدب ، بل إن الله سبحانه مدح فعلهم ، وأثنى عليه، حيث قال تعالى عن آدم وحواء لما خالفا أمره بالأكل من الشجرة : (قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ) (الأعراف:23) فالشرك ليس تعظيما لله ، إنما هو تنقص له – سبحانه – وهضم لحقوق الربوبية ، وسوء ظن برب العالمين ، لذا قال تعالى:(قَالا

---

[1] زغل العلم للشيخ بكر أبو زيد ص 27.
[2] انظر : الجواب الكافي ص 192
[3] الصراع بين الوثنية والإسلام لعبد الله القصيمي (2/207).

رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ)(الحج:23)[1].

وقد ذكر السيوطي[2] أن الجهل هو الذي أوقع كثيرا من العباد في الشرك ، رغم حرصهم على العبادة ، وحسن قصدهم ، حيث قال : "... ويقع ذلك في بعضهم بسبب الحرص على الإكثار من إيقاع العبادات والقرب والطاعات ، فيحملهم الحرص على فعلها في أوقات ، وأماكن نهاهم الشرع عن اتخاذ تلك الطاعات فيها، ومنها ما هو محرم ، ومنها ما هو مكروه ، ويورطهم الجهل وتزيين الشيطان ، بأن يقولوا : هذا طاعات وقرب ، قد ثبت في غير هذه الأوقات فعلها، فنحن نفعلها أبدا ، فإن الله لا يعاقبنا على فعل الطاعة متى ما فعلناها"[3].

السبب الثاني : التقليد وإلف العوائد

والتقليد من أهم أسباب الوقوع في الشرك ، وهو دين المشركين قال تعالى: (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)(الزخرف:23)، وقال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ)(البقرة:170) ، وهذا يدل على أن أهل الجاهلية كانوا في ربقة التقليد ، لا يحكمون لهم رأيا ، ولا يشغلون فكرا ، فلذلك تاهوا في أودية الجهالة[4].

قال ابن الجوزي[5] : " وقد لبس إبليس على جمهور العوام بالجريان مع العادات، وذلك من أكثر أسباب هلاكهم ، فمن ذلك أنهم يقلدون الآباء والأسلاف في اعتقادهم على ما نشأوا عليه من العادة ، فترى الرجل منهم يعيش خمسين سنة على ما كان عليه أبوه ، ولا ينظر أكان على صواب أم على خطأ"[6].

---

[1] انظر : ص من هذا البحث .

[2] هو : عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري السيوطي ، جلال الدين ، إمام حافظ ، له نحو 600مصنف ، توفي سنة (911هـ) . انظر : شذرات الذهب (8/51) ، مقدمة ذيل تذكرة الحفاظ (ص6-10) .

[3] الأمر بالاتباع للسيوطي ص 153، نقلا عن علم أصول البدع لعلي بن حسن ص 78.

[4] شرح مسائل الجاهلية لمحمود شكري الألوسي ص 10 ، وانظر: معارج الألباب للنعمي (9-وما بعدها).

[5] هو : عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن القرشي ، البكري ، الصديقي ، البغدادي ، الحنبلي، الواعظ، الحافظ ، عالم العراق ، جمال الدين أبو الفرج ، المعروف بابن الجوزي ، صاحب التصانيف في فنون العلم ، توفي سنة (597هـ) . انظر : البداية والنهاية (706/16-710) ، طبقات المفسرين (1/275) .

[6] تلبيس إبليس ص (480) ، وانظر : القول الفصل النفيس ص 100.

فالذين يدعون غير الله تعالى ويجيزونه يستدلون بالكثرة ، وبالآباء والأجداد على صحة دعاء غير الله تعالى ، بل بعضهم يتهم من لا يجيز ذلك بأنه خالف إجماع الأمة المحمدية المرحومة ، وهذا الاستدلال والاحتجاج بتقليد الآباء والأجداد له سبب خفي ، وهو أنه " ينشأ أحدهم وهو حسن الظن بأسلافه ، ومشايخه ، فلا يزال يسمع ما يقوي حسن ظنه ، ويسمع ما يبعد المخالف ، ثم يتدرج إلى مثل هذه الحالة من عدم قبول الحق ، ومع هذه الحالة هناك عوامل وأسباب أخرى خفية ربما يذهل عنها"[1].

والمقلد يزين له الشيطان أن التقليد أفضل لسلامته من الوقوع في اشتباه الأدلة، وأن الأسلاف لا يخطئون إلى غير ذلك من الشبه ، قال ابن الجوزي - رحمه الله- في بيان طريق دخول إبليس في إفساد العقائد : " فإن إبليس زين للمقلدين أن الأدلة قد تشتبه ، والصواب قد يخفى ، والتقليد سليم ، وقد ضل في هذا الطريق كثير ، وبه هلاك عامة الناس... واعلم أن العلة التي بها مدحوا التقليد بها يذم ، لأنه إذا كانت الأدلة تشتبه والصواب يخفى وجب هجر التقليد لئلا يوقع في ضلال...."[2]. ثم قال : " واعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم في قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر بما قال ، وهذا عين الضلال ؛ لأن النظر ينبغي أن يكون إلى القول لا إلى القائل كما قال علي رضي الله عنه : " إن الحق لا يعرف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله"[3].

ويدخل في التقليد الافتتان بزلات العلماء ، يقول الشيخ إسماعيل الأنصاري : "إن اعتبار فعل بعض المشايخ حجة على ما تقرر في الشريعة هو الذي أفسد أحوال بعض الناس ، فتجد أحدهم يعمل البدعة ويتهاون بها فتنهاه... فيقول: كيف يكون مكروها أو بدعة وقد كان سيدي فلان يعملها" [4]، وبمثل هذا انتشر الشرك .

السبب الثالث : الانحراف في مصادر التلقي

وهذا من أعظم أسباب الزيغ ، والوقوع في الشرك ، وإن كان له ارتباط في الجهل من بعض الوجوه ، إلا أنه يعد سبب مستقل ،

---

[1] العلم الشامخ ص 287 .
[2] تلبيس إبليس (100-101) .
[3] تلبيس إبليس (100-101) .
[4] القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل لإسماعيل الأنصاري (ص 321) .

لأهميته ، ولأن الباعث عليه قد يكون الجهل ، وقد يكون الهوى ، وقد يكون غير ذلك ، وله عدة صور :

* الابتداع في الدين :

ولمخالفة أمر الرسول بحماية جناب التوحيد ، وعدم امتثال أمره بسد ذرائع الشرك ، تفشت البدع ، وانتشرت الشركيات ، والمتتبع لتاريخ هذه الأمة يجد أن البدع من أهم أسباب ظهور الشرك واستفحال أمره ، لا سيما مع تقبل النفوس لها وتشرب القلوب لتعظيمها ، حتى انطمس بسببها كثير من معالم التوحيد.

والبدع كما قال العلماء بريد الكفر، فأول ما يظهر البدع ، ثم تتدرج حتى تصل إلى الشرك والكفر، فالشيطان لا يأتي إلى ابن آدم فيأمره بالشرك مباشرة ، بل يتدرج به ، فيزين له بعض الأمور البدعية فإذا تشربها أوصله إلى الشرك.

يقول ابن القيم مبينا مخالفة المبتدعة لأمر الرسول في أمر واحد فقط وهو – القبور – وكيف كان سببا للوقوع في الشرك : " ومن جمع بين سنة رسول الله في القبور، وما أمر به ونهى عنه ، وما كان عليه أصحابه ، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم ، رأى أحدهما مضادا للآخر، مناقضا له ، بحيث لا يجتمعان ، فنهى رسول الله عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها ، ونهى عن اتخاذها مساجد ، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله تعالى ، ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها، ونهى أن تتخذ عيدا ، وهؤلاء يتخذونها أعيادا ومناسك ، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد وأكثر.."[1] .

* الشبهات والأقيسة الفاسدة :

من المقرر أن العبادات في الشريعة الإسلامية مبناها على التوقيف ، ولا يدخل فيها القياس ، وإذا دخل القياس فسدت الشرائع ، يقول الشيخ حامد الفقي : " فاعلم وفقني الله وإياك ، وثبتنا على الهدى ودين الحق ، أنه ما ضل من ضل في القديم والحديث عن سنن المرسلين ، وما كفر من كفر بالله رب العالمين ، وما حدث ما حدث من البدع الضالة التي أفسدت العقائد والأعمال ، وفرق الناس بها دينهم شيعا إلا بالقياس في العبادات ، والأمور الغيبية من شئون الله وأسمائه وصفاته"[2].

---

[1] إغاثة اللهفان (1/195) .
[2] حاشية كتاب القول الفصل النفيس ص 44

وقد مر معنا بالتفصيل خطر الشبهات وتقسيماتها ، والذي يعنينا هنا هو الإشارة إلى كون هذه الشبهات من الأسباب التي أدت إلى حدوث الشرك ، وفي هذا يقول الشيخ عبد اللطيف مقررا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في التأكيد على أن الشبهات كانت من أهم أسباب الشرك : " وإنما عبدت الشمس والقمر بالمقاييس ، وبمثل هذه الشبهات حدث الشرك في أهل الأرض "[1].

* التمسك بالأحاديث الضعيفة أو الموضوعة :

ومن أسباب الوقوع في الشرك الأحاديث المختلقة التي يحتجون بها ، مثل : "إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور" ، فهذا الحديث كذب مفترى على النبي ، بإجماع العارفين بحديثه لم يروه أحد من العلماء بذلك ، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة[2].

وأشار ابن القيم - رحمه الله - إلى أن هذا الحديث من الأحاديث المختلقة التي وضعها أشباه عباد الأصنام من المقابرية على رسول الله [3].

* الاستدلال بالرؤى والحكايات :

يقول ابن القيم في ذكر أسباب الوقوع في الشرك : " ومنها حكايات حكيت لهم عن تلك القبور: أن فلانا استغاث بالقبر الفلاني في شدة فخلص منها ، وفلانا دعاه أو دعا به في حاجة فقضيت له ، وفلانا نزل به ضر فاسترجى صاحب ذلك القبر فكشف ضره ، وعند السدنة والمقابرية من ذلك شيء كثير يطول ذكره ، وهم من أكذب خلق الله تعالى على الأحياء والأموات ، والنفوس مولعة بقضاء حوائجها، وإزالة ضروراتها ، ويسمع بأن قبر فلان ترياق مجرب ، والشيطان له تلطف في الدعوة ، فيدعوهم أولا إلى الدعاء عنده ...."[4].

ويقول ابن تيمية : " فإنه ما من أحد يعتاد دعاء الميت والاستغاثة به ، نبيا كان أو غير نبي ، إلا وقد بلغه من ذلك ما كان من أسباب ضلاله "[5]، وهذه الحكايات إما كذب أو غلط ، أو ليست حجة[6]، وقد تكون تلك الحكايات صحيحة ، ولكنها من

---

[1] ?الاقتضاء (320) ت: حامد الفقي .
[2] مجموع الفتاوى ، 1/356.
[3] إغاثة اللهفان (1/215) .
[4] إغاثة اللهفان (1/215)
[5] مجموع الفتاوى (1/174) .
[6] اقتضاء الصراط المستقيم(345) ت: الفقي .

الشيطان ، فإنه قد يتراءى لبعضهم في صورة من يعتقد فيه ، ويتسمى باسمه ، وقد تقضي الشياطين بعض حوائج من استغاث بالأموات.

ويقول أيضا: " وهكذا كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين إلى هذه الأمة، فإن أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذي يعظمه وهو ميت.. ويرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض ما يكره، أو كلمه ببعض ما سأله عنه.. وهو لا يعرف أن تلك شياطين تصورت على صورته لتضله، وتضل أتباعه، فتحسن لهم الإشراك بالله ودعاء غير الله"[1].

وقال أبو شامة : " ومن هذا القسم أيضا ما قد عم به الابتلاء من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد ، وسرج مواضع مخصوصة من كل بلد ، يحكي لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحد ممن شهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك، ويحافظون عليه ، مع تضييعهم فرائض الله وسننه"[2].

السبب الرابع : الأئمة المضلون

وهم الأمراء ، والعلماء ، والعباد الذين يقتدي بهم الناس[3]، وقد قال ﷺ : "وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة "[4]، والمتتبع لتاريخ ظهور البدع وانتشارها يلحظ دور الأئمة المضلين من أمراء وعلماء .

* دور الأمراء : وكما قيل " الناس على دين ملوكهم " ، وأوضح مثال يبين دور الحكام في نشر البدع ما فعله المأمون بإجبار الناس على القول بخلق القرآن حتى أنه لم يثبت على الحق من الأئمة إلا القليل .

ثم مثال آخر ، وهو دور الدولة العبيدية التي تسمى زورا وبهتانا بالدولة الفاطمية، وكيف نشرت الشرك ، وابتدعت بناء الأضرحة[5] ، وابتدعت المولد[6] ، وغير ذلك من البدع ، وحمتها

---

[1] مجموع الفتاوى (17/456).
[2] نقلا عن إغاثة اللهفان (1/211).
[3] تيسير العزيز الحميد (327) .
[4] رواه أبو داود [كتاب الفتن / باب : باب ذكر الفتن ودلائلها] (4/97) ، والترمذي [كتاب الفتن / باب : ما جاء في الأئمة المضلين] (4/504) ، والإمام أحمد (4/123) ، وابن حبان في صحيحه (15/110) ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (3/801) .
[5] انظر : الخطط المقريزية (4/316) وما بعدها .
[6] انظر : الخطط المقريزية (2/436) وما بعدها .

بسيف السلطان ، ومنذ ذلك الحين وما يزال حتى وقتنا الحاضر الاهتمام بالأضرحة والموالد لدى كثير من جهلة المسلمين ، وعلماء السوء بحثا عن المال أو الشهرة ، يقول الجبرتي عن الاحتفال بالمولد : " وكذلك كان ينادى للاحتفال به كل سنة ..، وكل ذلك في عهد محمد علي الذي استمر أولاده وأحفاده من بعده على رعاية شؤون المولد ، ..مع أن غالبهم كان حربا على الإسلام "[1].

ثم دور الدولة العثمانية[2] في محاربة الدعوة السلفية ، والوقوف ضدها ، وترويج الشبهات التي أثيرت حولها ، حتى كرهها العامة ، ونفروا عنها ، فصار العامي في سائر البلاد الإسلامية يعرف عن مثالب الوهابية وخطرها أكثر مما يعرف عن توحيد الألوهية ، ولا يزال هذا الأثر يصد كثيرا من المسلمين عن قبول الحق لمجرد أن الذي قال به وهابي ، " وقد تولت الدولة العثمانية رسميا حرب هذه الدعوة السلفية في جميع المجالات ..وتسابق العلماء في رحابها في الرد علي هذه الدعوة ، والنيل منها ، لعلمهم أن هذا وأمثاله مما تقر به أعين الدولة ويرضي حكامها"[3].

وإذا كان هذا هو موقف الدولة العثمانية من الدعوة السلفية ، فلها موقف مناقض تماما مع الصوفية دعما وتأييدا واحتراما وتقديرا ، مما ساعد على انتشار التصوف بين المسلمين ، حتى أصبح دين العامة إلا من حمى الله ، ومن ذلك اعفاء العثمانيين لأتباع بعض الطرق الصوفية من الخدمة العسكرية ، فجعل الناس يبادرون بالانضواء إلى تلك الطرق ، فرارا من مشاق الخدمة العسكرية[4].

يقول د/محمد قطب : " لقد كانت الصوفية قد أخذت تنتشر في المجتمع العباسي ، ولكنها كانت ركنا منعزلا عن المجتمع ،

---

[1] عجائب الآثار (3/289) .

[2] ولا نغفل دور الدولة العثمانية في وقت قوتها في نصرة الإسلام ، قبل أن تستحكم عليها الصوفية والبدع .

[3] الانحرافات العقدية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر لعلي الزهراني (226) .

[4] انظر : الانحرافات العقدية (443-444) .

أما في ظل الدولة العثمانية ، وفي تركيا بالذات ، فقد صارت هي المجتمع ، وصارت هي الدين "[1].

* دور العلماء : للعلماء مكانة بارزة في الإسلام لا تعدلها مكانة أخرى ، إذ هم حملة الشريعة ، وورثة الأنبياء ، والمؤتمنون على الرسالة ، والقدوة الحسنة للناس في تطبيق الإسلام ، وإذا تخلى العلماء عن دورهم انتشر الفساد ، واختلط الحق بالصواب ، واندرس العلم ، وتفشت البدع ، وكان لتخلي العلماء على مر الأزمنة دور في انتشار الشرك ، وذلك من خلال :

1- سكوت بعض العلماء

لا شك في أن سكوت بعض العلماء عن الأفعال التي لا تليق يؤدي إلى انقلاب الحقائق ، إذ أن مرتكبيها لو ارتكبوها وهم يعتقدون أنها بدعة لرجيت لهم التوبة والإقلاع ولكن زادوا على ذلك اعتقادهم أن فعل ذلك من إظهار شعائر الإسلام ، وتقرر عندهم بهذا الموقف السلبي من العلماء ، فاستشرى الأمر[2].

يقول الميلي : " وما جعل العوام يستخفون بما وقعوا فيه من الشرك الجلي، إلا الاعتياد ، وجبن جل العلماء عن الجهر بالإرشاد والعادة كما يقال "طبيعة ثانية" ، والإسرار بالعلم إقبار له"[3].

وهذا السكوت له أسباب متعددة :

إما ضعف عن القيام بالواجب .

وإما خوف وجبن من الحكام إذا كانوا على غير الحق .

وإما مجاراة للعامة .

وإما انشغال بإصلاح النفس – زعموا- وهذا كله نقض للميثاق الذي أخذه الله على الذين أوتوا العلم ، قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)(آل عمرآن:187) .

---

[1] واقعنا المعاصر لمحمد قطب (155) .

[2] القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل للأنصاري ص 330، وانظر : موقف ابن تيمية من الأشاعرة لعبد الرحمن المحمود (1/142).

[3] الشرك ومظاهره (57) .

2- علماء الضلال

وهم فسقة أهل العلم ، وجهالهم ، وضرر هؤلاء أعظم ، لأن ظاهرهم العلم والعبادة ، فلا يستبين فسق العالم ولا جهل العابد للناس ، إذ يخلطون على الناس أمور دينهم فيظنون أنهم لن يفعلوا أمرا إلا بعلم قد قام عندهم .

كما أن العالم الفاسق يستخدم علمه لإضلال الناس ، فيستدل بأدلة يلبس بها على الناس ، ويحاول لي أعناق النصوص لما يناسب حاله لئلا ينزل قدره ويسقط جاهه عند الناس[1].

يقول الشيخ صالح آل الشيخ : "وقد جادلت يوما ببلد أفريقي أحد المفتونين من كبار العلماء المجندين لعبادة القبور والسدنة حولها في حالهم ، ومعنى العبادة، ومفهوم الشهادتين ، فقال : أنا أعلم أنكم على الحق ولكن ، سيب الناس تعيش.

إن هذا هو الواقع فالمسألة ليست نصرة للحق بدلائله ، ولكنها سيادة وجاه وسمعة وأموال ، ثم يبحث لتثبيت هذا المقرر سلفا في الدلائل الشرعية ، وإن كانت أحاديث مكذوبة ، وفي الدلائل العقلية ، وإن كانت أوهى من خيوط العنكبوت"[2].

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن : " وهذا الضرب من الناس – علماء السوء – أفسدوا بدعواهم العلم على كثير من العامة دينهم ، لما قلدوهم لهواهم وأحسنوا بهم الظن وفاقا لدنياهم ، فتأمل تجد ما ذكرته واقعا- ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"[3].

وقال الشيخ الميلي مبينا بعض أغراض علماء السوء : " وما جعل بعض العلماء ينتصبون للدفاع عن تدين العامة إلا مجاراة للعوام والتقرب منهم ، ومن مغرضي الحكام لنيل منصب أو حطام ، وهذا ظاهر في هذا الزمان"[4].

---

[1] انظر: رسالة الشرك الأكبر لأسماء السلمان (1/51)
[2] هذه مفاهيمنا ص 4.
[3] القول الفصل النفيس ص 254.
[4] الشرك ومظاهره (58) .

وصدق ابن مسعود – رضي الله عنه – حين قال : " إذا التمست الدنيا بعمل الآخرة ، وتفقه لغير الدين ، ظهرت البدع "[5].

السبب الخامس : اتباع الهوى

واتباع الهوى هو الانحراف عن الحق إلى الباطل ، لزيغ في القلب ، وفساد في العقل ، وهو أصل الزيغ عن صراط الله المستقيم ، قال تعالى: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)(القصص:50) ، ولاتباع الهوى مظاهر ، منها :

* الاسترزاق والتكسب من أصحاب الأغراض الفاسدة ، والأهواء الباطلة، فالسدنة حول القبور لهم دور كبير في تزيين دعاء صاحب القبر بحكاية الكرامات وخوارق العادات حتى يقدموا له النذور فترجع إلى السدنة.

قال الشوكاني – رحمه الله - : " وربما يقف جماعة من المحتالين على قبر ويجلبون الناس بأكاذيب يحكونها عن ذلك الميت ، ليستجلبوا منهم النذور ويستدروا منهم الأرزاق ، ويقتنصوا النحائر ، ويستخرجوا من عوام الناس ما يعود عليهم وعلى من يعولونه ، ويجعلون ذلك مكسبا ومعاشا ، وربما يهولون على الزائر لذلك الميت بتهويلات ، ويجعلون قبره بما يعظم في عين الواصلين إليه ، ويوقدون في المشهد الشموع ، ويوقدون فيه الأطياب ، ويجعلون لزيارته مواسم مخصوصة يتجمع فيها الجمع الجم ، فيبهر الزائر، ويرى ما يملأ عينه وسمعه من ضجيج الخلق وازدحامهم ، وتكالبهم على القرب من الميت ، والتمسح بأحجار قبره وأعواده ، والاستغاثة به والالتجاء إليه ، وسؤاله قضاء الحاجات ، ونجاح الطلبات مع خضوعهم واستكانتهم ، وتقريبهم إليه نفائس الأموال ، ونحرهم أصناف النحائر"[2].

---

[5] ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (92) ، وقال أخرجه عبد الزاق ، وأخرجه ابن وضاح . وقد ذكر د/علي الزهراني التحول الخطير في وظيفة العلماء وانحراف أكثرهم عن القيام بحق الله، وذكر نماذج وأمثلة لذلك في كتابه الانحرافات العقدية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر (593-619) .

[2] الدر النضيد للشوكاني (27 – 28) .

* ومن الأهواء الفاسدة : طلب الجاه والشرف والمكانة في قلوب العامة ، فإن السدنة يعدون لدى العامة الزائرين من أهل الشرف والمكانة دينيا واجتماعيا[3].

وذكر عن أحد أئمة الصوفية المعاصرين أنه رؤي في المطاف حول البيت العتيق وهو يدور مقهقها مع رفيق له ، ومن الناس من تمسح به وقبل يده[2].

* ومن الأهواء : ما ذكره ابن عقيل ونقله عنه ابن تيمية ، وابن القيم ، ومن أتى بعدهما : " لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام ، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم ، فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم ، وهم عندي كفار لهذه الأوضاع ، مثل تعظيم القبور ، وخطاب الموتى بالحوائج ، وكتب الرقاع ، يا مولاي افعل بي كذا وكذا ، وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى "[3].

فهذه الأوضاع توافق أهواء الناس ورغباتهم ولا تكلفهم الكثير من المشاق.

السبب السادس : تأثير الكفار

وذلك من خلال :

* التأثر بالديانات السابقة:

لما اتسعت رقعة البلاد الإسلامية ضمت أجناس مختلفة ، منهم من دخل في الإسلام رغبة فيه ، ومنهم من أظهره نفاقا، ومنهم من بقي على دينه من أهل الذمة، ولبعد بعض الديار عن مراكز العلم كمكة والمدينة والبصرة ، فقد بقي في بعض أهلها رواسب دياناتهم القديمة إلا من ارتحل وطلب العلم من مظانه.

فمزجت هذه الطوائف بين التعاليم الإسلامية وبقايا هذه الديانات الباطلة ، فأدخلت في الدين الإسلامي عقائد وشرائع ما أنزل الله بها من سلطان .

وقد يكون التأثر بمن جاورهم واختلط بهم على مدى التاريخ من يهود ونصارى وبوذيين وبراهمة ومجوس وغيرهم.

---

[3] الدعاء لجيلاني خضر (1/477) .

[2] ذكر ذلك الشيخ صالح آل الشيخ في هذه مفاهيمنا ص 4.

[3] إغاثة اللهفان (1/195) .

ومن الأدلة على تأثر المسلمين بالديانات السابقة : الصوفية في كثير من طقوسهم أخذوها عن البوذية والهندوسية وغيرهم من الوثنيين[1].

جاء في " دمعة على التوحيد " : " بل إنك إذا شاهدت ما يجري اليوم في الموالد والأعياد المسيحية كعيد أبي جورج مثلا، أو شاهدت ما يقع من الزائرين لكنائس القديسين ومعابدهم ، وقارنت ذلك بما يجري في موالد الشيوخ ، وما يقع من الناس في زيارة أضرحتهم ، لما رأيت فارقا بين الوصفين ، ولا اختلافا في المظهرين"[2].

كما أن بعض طقوس القبوريين تعتبر امتدادا لعادات وثنية كانت سائدة في أجدادهم قبل الإسلام ، فكثيرا ما امتزجت التعاليم الأساسية لدين معين بالعقائد المحلية امتزاجا أسفر عن ناتج ذي صورة جديدة يتعذر التعرف على التعاليم الأصلية فيه[3].

* التشبه بالكفار :

لقد دل القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع الأمة على الأمر بمخالفة الكفار، والنهي عن مشابهتهم ، قال الله تعالى: (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) (البقرة :120) ، وقال الرسول : " لتتبعن سنن[4] الذين من قبلكم ، شبرا بشبر، حتى لو دخلوا في جحر ضب لا تبعتموهم " قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال: "فمن ؟"[5].

وقد وقع ما أخبر به النبي ، يقول الشيخ أبو الحسن الندوي : "والحاصل أنه ما سلك عباد الأوثان في الهند طريقا مع آلهتهم ، إلا وسلكه الأدعياء من المسلمين مع الآنبياء والأولياء والأئمة

---

[1] الدعاء لجيلاني خضر (1/473) . وانظر : حكم الاحتفال بمولد خير الرسل للأنصاري (ص329) .

[2] دمعة على التوحيد ص 117.

[3] تأملات في حقيقة أولياء الله الصالحين لحسين أحمد أمين ، مجلة العربي، ع / 226 رمضان 1397 هـ ، ص 131 ، نقلا عن دمعة على التوحيد ص 114.

[4] السنن : بفتح السين والنون : هو الطريق ، والمراد بالشبر الموافقة لهم .انظر : شرح صحيح مسلم (16/219،220) .

[5] رواه البخاري (8/151) [كتاب الاعتصام / باب قول النبي (لتتبعن سنن من كان قبلكم)] ، و مسلم (4/2054) [كتاب العلم/ باب اتباع سنن اليهود والنصارى].

والشهداء والملائكة والجنيات ، واتبعوا سنن جيرانهم من المشركين شبرا بشبر وذراع بذراع.." [1].

ومن الطرائف – ذات المغزى – في هذا التشابه أن الشريف عون عندما استجاب للشيخ أحمد بن عيسى في هدم جميع القباب بالحجاز ، اعترض القناصل الأجانب في جدة على هدم قبر حواء ، بحجة أن حواء أم لجميع الناس وليست أما للمسلمين فقط [2].

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا معقبا على ما ادعاه أحد مشايخ القبورية في تسويغ اتخاذ القبور والأضرحة واسطة للشفاعة : " هذا عين ما كان يحتج به المشركون الأولون وحكاه الله تعالى عنهم... وهو ما يفعله بعض النصارى عند قبور القديسين "[3].

ومن المعلوم أن أهل الكتاب يفرحون بما يفعله أهل البدع والجهل من المسلمين ، مما يوافق دينهم ، ويشابهونهم فيه ، ويحبون أن يقوى ذلك ويكثر، ليقوى بذلك دينهم ، ولئلا ينفر المسلمون عنهم وعن دينهم[4]، فدعموا ذلك وساعدوا عليه .

* دعم الكفار :

يختلط عند الحديث في هذا الموضوع جانبان لا ينفك أحدهما عن الآخر، الجانب الأول : هو مؤازرة أكثر أهل البدع للكفار ، وهذا الجانب على أهميته فليس من أسباب انتشار الشرك ، وتدعيمه[5] .

والجانب الآخر : هو دعم الكفار لهم ، مما ساعد على تمكينهم ، وهذا من أسباب فشو الشرك ، ونأخذ على ذلك مثالا ، وهو دعم الاستعمار للطرق الصوفية، فقد ذكر الجبرتي : أن الناس انكمشوا عن بدعهم في مصر خوفا من الفرنسيين ، ولكن ما إن سمح لهم الفرنسيون بها ، بل شجعوها ، حتى تسارع الناس ملهوفين عليها ، وأعطوهم دعما ماليا لإقامة المولد[6] ، وكانوا

---

[1] نقلا عن جهود علماء الحنفية ص 461 .
[2] انظر: الانحرافات العقدية (ص 304) .
[3] مجلة المنار (3/ص 216- 218) ، نقلا عن دمعة على التوحيد ص 128.
[4] مجموع الفتاوى (27/462 – 464) باختصار ، وانظر: التبرك للشيخ الجديع ص 475 – 478.
[5] ذكر صاحب كتاب الانحرافات العقدية كيف كانت الطرق الصوفية تمثل طابورا خامسا بين صفوف المسلمين (544) .
[6] انظر : تاريخ الجبرتي (2/201) .

يجبرون الناس ويقهرونهم على الاحتفال بهذه الموالد ، ويغرمون من يأبى أن يحتفل بها[1] .

وقال الحاكم الفرنسي في الجزائر : " إن الحكومة الفرنسية تعظم زاوية من زوايا الطرق أكثر من تعظيمها لثكنة جنودها وقوادها، وأن الذي يحارب الطرق إنما يحارب فرنسا "[2].

ولا شك أن الفرنسيون أدركوا ما لتلك البدع من سلبيات ، وما تستنفذه من جهود وأموال ، وما في ذلك من صرف للناس عن الجهاد ، لذا قاموا بدعمها .

* * * * *

---

[1] المرجع السابق (2/242) .
[2] نقلا عن الانحرافات العقدية (539) .

المسألة الخامسة
الأسباب
المسلك الصحيح فيها
وعلاقتها بالشرك

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب :

التمـهيـد : في تعريف الأسباب، وأقسامها، وأحكامها.

المطلب الأول : الأقوال في الأسباب .

المطلب الثاني: الفرق بين السبب والدليل .

المطلب الثالث: ضوابط الأخذ بالأسباب .

المسألة الخامسة
الأسباب
المسلك الصحيح فيها
وعلاقتها بالشرك

تبرز أهمية دراسة هذه المسألة من تبني ابن جرجيس – وغيره من الداعين للتوسل في القبور - لمذهب الجبرية ، وزعمه جواز التوسل بغير الله والطلب منه ؛ لأن الفاعل على الحقيقة هو الله ، وإنما هم أسباب يفعل الله لأجلهم ، ثم

زعمه أن نسبة الفعل إلى الفاعل من باب المجاز العقلي ، وشبهة " المجاز العقلي " من أكبر الشبهات التي تمسك بها القبورية في تبرير شركهم[1].

وستكون دراسة هذه المسألة ، من خلال تمهيد وثلاثة مطالب:
التمهيد في تعريف الأسباب ، وأقسامها ، وأحكامها.
المطلب الأول : الأقوال في الأسباب .
المطلب الثاني : الفرق بين السبب والدليل .
المطلب الثالث : ضوابط الأخذ بالأسباب .

وقد أكثرت من النقول عن ابن تيمية وابن القيم – وإن نقلت عن غيرهما – ؛ وذلك لأن كلامهما – رحمهما الله - في القدر وخلق أفعال العباد في غاية الوضوح والرسوخ ، وفيه حل لإشكالات كثيرة ، وما وجدت أحداً قبل شيخ الإسلام – رحمه الله – فيما اطلعت عليه بيّن هذا البيان في هذه القضايا المهمة التي كثر فيها الكلام ، واختلط فيها الحق بالباطل.

التمهيد :

*** تعريف الأسباب :**

الأسباب جمع سبب ، والسبب لغة : الحبل ، وما يتوصل به إلى غيره ، واعتلاق قرابة[2]. قال تعالى : (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً) (الكهف:85-84) ؛ ومعناه : أن الله تعالى آتاه من كل شيء معرفة وذريعة يتوصل بها ، فأتبع واحداً من تلك الأسباب[3] .

وجاء في " لسان العرب " : " السبب : هو الحبل الذي يتوصل به إلى الماء ، ثم استعير لكل ما يتوصل به إلى كل شيء ، كقوله تعالى : (وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) (البقرة: 166) ؛ أي الوُصل والمودات "[4] .

وقال القرطبي : " أصل السبب : الحبل يشد بالشيء فيجذبه ، ثم جعل كل ما جر شيئاً سبباً "[5] .

---

[1] انظر: ص من هذا البحث .
[2] الكليات : معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء الكفوي (ت 1094 هـ) ، ص (503) ، وانظر : المفردات للراغب ص (220) ، ولسان العرب مادة (س ب ب) (1/458) .
[3] المفردات للراغب ص (220) .
[4] لسان العرب (1/458) ، وانظر النهاية في غريب الحديث والأثر (2/329) .
[5] الجامع لأحكام القرآن (2/206) .

وجاء في " الصحاح " : السبب الحبل وكل شيء يتوصل به إلى أمر من الأمور[1] .

وهو كذلك في الاصطلاح ، أي : هو ما يتوقف عليه المقصود ، ولا يحصل المسبب إلا بوجوده .

ثم السبب قد يكون تاماً ، وهو الذي يكون سبباً وحيداً لوجود المسبب ، فإذا وجد هذا السبب وجب وجود المسبب ، والله هو الخالق للسبب والمسبب ، كما أنه إذا خلق النار في الثوب لزم وجود الحريق عقيب ذلك ، والكل مخلوق لله تعالى[2].

وقد يكون ناقصا : وهو الذي لا يكون سببا وحيدا ، ويحتاج المسبب لسبب آخر غيره ، فلا بد من اجتماع الأسباب لحصول المسبب ، كالنصاب وحولان الحول كلاهما سبب لوجوب الزكاة .

*** أقسام الأسباب**

تنقسم الأسباب أقساماً متعددة بعدة اعتبارات[3] والذي يتعلق بهذه المسألة ، تقسيم الأسباب إلى شرعية دينية ، وكونية قدرية .

الأسباب الشرعية : هي الأسباب المستمدة من الشرع فقط [4].

وتنقسم قسمين :

الأول : ما كان خارجا عن مقدور المكلف ، مثل جعل دلوك الشمس سببا للصلاة ؛ ولا يتعلق بهذا القسم من الأسباب أي خطاب تكليفي .

الثاني : ما كان داخلا تحت القدرة ، وهذا القسم لا بد أن ينظر فيه من جهتين: 1- كون الأسباب مطلوبة الفعل أو الترك ، أو مأذونا فيها ، وهذا يدخل تحت الحكم التكليفي .

2- كونها أسباب في ترتب شيء آخر عليه ، وتعتبر من هذه الجهة من قبيل الحكم الوضعي[5].

---

[1] انظر : إتحاف ذوي البصائر في شرح روضة الناظر (2/213) .

[2] انظر : منهاج السنة (3/269-270) , مجموع الفتاوى (14/19-27) .

[3] انظر في ذلك : السبب عند الأصوليين ، تأليف عبد العزيز الربيعة (1/279-413) ، وذكر د/ عبد الكريم النملة عدة تقسيمات للأسباب باعتبارات مختلفة وذكر السبب عند الفقهاء والسبب عند الأصوليين في كتاب المهذب في علم أصول الفقه المقارن (1/391 – 399) .

[4] انظر : مجموع الفتاوى (8/534) ، المهذب في علم أصول الفقه المقارن (1/395) .

[5] انظر : السبب عند اللأصوليين (1/328) .

وضابط الأسباب الشرعية أننا تحققنا من أنها أسباب عن طريق الشرع وحده، لاعن طريق العلم أو التجربة ، أو الحواس .

الأسباب الكونية : وهي الأسباب الطبيعية التي تؤدي إلى المطلوب بخلقتها التي خلقها الله عليها ، وقد تسمى الأسباب العادية ، وهي مشتركة بين المؤمن والكافر من غير تفريق[1] ، ومن أمثلتها الماء ، فهو وسيلة إلى ريّ الإنسان ، والطعام وسيلة إلى الشبع ، وهذه الأسباب تعرف من طرق كثيرة ، منها : العلم، والتجربة ، والحواس[2].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – مبينا الطريق لمعرفة الناس ما خلقه الله من الأسباب : " وهذا قد يعرف بعضه الناس بفطرتهم كما يعرفون انتفاعهم بالأكل والشرب ، وكما يعرفون ما يعرفون من العلوم الضرورية بفطرتهم ، وبعضهم يعرفه بالاستدلال الذي يهتدون به بعقولهم ، وبعضه لا يعرفونه إلا بتعريف الرسل وبيانهم لهم وهدايتهم لهم "[3] .

*** أحكام الأسباب**

1- أسباب مشروعة : وهي ما كانت سبباً لمصلحة راجحة ، وإن كانت مؤدية إلى بعض المفاسد تبعاً ، مثل : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله ، فإنهما سببان لإقامة الدين ، وإظهار شعائر الإسلام ، وإن أدى إلى نوع من المفاسد كإتلاف النفس والمال[4] .

2- أسباب غير مشروعة : وهي ما كانت سبباً لمفسدة راجحة ، وإن ترتب عليها نوع من المصلحة تبعاً ، مثل : القتل ، فإنه سبب غير مشروع ، وإن ترتب عليه بعض المصالح كميراث ورثة المقتول[5] ، وكل من البيع والربا سبب كوني لكسب الرزق ، ولكن الله تعالى أحل الأول ، وحرم الثاني[6] .

*** الفرق في الحكم بين الأسباب الكونية ، والأسباب الشرعية**

---

[1] انظر : مجموع الفتاوى (8/58) .
[2] ?انظر : الاقتضاء (362) ، القول المفيد لابن عثيمين (1/159) .
[3] الرسالة التدمرية ، ضمن مجموع الفتاوى (3/114) .
[4] انظر : المهذب في علم أصول الفقه (1/393) .
[5] المرجع السابق (1/394) .
[6] التوسل للألباني ص24 .

إن ما ثبت كونه سببا كونياً فإنه يكفي في إباحته ، والأخذ به أن لا يكون منهيا عنه في الشرع ، وفي مثله يقول الفقهاء : " الأصل في الأشياء الإباحة " ، قال ابن عقيل في كلامه عن السياسة الشرعية : " فإن أردت بقولك إلا ما وافق الشرع أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح ، وإن أردت لا سياسة إلا ما نطق به الشرع فغلط "[1].

أما الأسباب الشرعية فلا يكفي في جواز الأخذ بها أن الشارع الحكيم لم ينه عنها - كما يتوهمه الكثيرون - بل لابد فيها من ثبوت النص الشرعي المستلزم مشروعيتها واستحبابها[2]، ويقابلها الأسباب البدعية ، وهي كل ما خالف الشريعة ، وكل ما خالف الشريعة فهو باطل[3] .

قال ابن تيمية : " إن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان :
عبادات يصلح بها دينهم، وعادات يحتاجون إليها في دنياهم، فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التي أوجبها الله، أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع، وأما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه ، والأصل فيه عدم الحظر، فلا يحظر منه إلا ما حظره الله سبحانه و تعالى ؛ و ذلك لأن الأمر والنهي هما شرع الله ، والعبادة لابد أن تكون مأمورا بها فما لم يثبت أنه مأمور به كيف يحكم عليه بأنه عبادة ؟ و ما لم يثبت من العبادات[4] أنه منهي عنه كيف يحكم على أنه محظور ؟ ولهذا كان أحمد و غيره من فقهاء أهل الحديث يقولون : إن الأصل في العبادات التوقيف فلا يشرع منها إلا ما شرعه الله تعالى، وإلا دخلنا في معنى قوله: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ) (الشورى: من الآية21) ، والعادات الأصل فيها العفو، فلا يحظر منها إلا ما حرمه، وإلا دخلنا في معنى قوله : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) (يونس:59).

ولهذا ذم الله المشركين الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله ، وحرموا ما لم يحرمه"[5].

المطلب الثاني : الأقوال في الأسباب :

---

[1] الطرق الحكمية (17-18) .
[2] التوسل للألباني ص30 .
[3] انظر : درء التعارض (1/199-200) ، اقتضاء الصراط المستقيم (276) .
[4] هكذا في الأصل ، ولعلها " العادات " .
[5] مجموع الفتاوى (29/16-17).

لا خلاف بين المسلمين في أن المؤثر[1] الحقيقي في الأشياء كلها هو الله سبحانه وتعالى، وهذا هو مقتضى ربوبيته سبحانه ، وكما مر معنا أن توحيد الربوبية اتفقت جميع الفرق على تقريره ، بل بالغ البعض وجعلوه الغاية من بعثة الرسل ، وفنوا فيه[2] ، يقول ابن القيم – رحمه الله - : " لا نعلم من أتباع الرسل من قال : إنها - الأسباب - مستقلة بأنفسها حتى يحتاج إلى نفي هذا المذهب "[3] .

ولكنهم اختلفوا في تأثير الأسباب ، ومنشأ الخلاف هو اختلافهم في قدرة العبد، وقدرة الرب ، هل تتناول الفعل القائم بالفاعل ، أو تتناول مقدوره ، أو تتناول كلا النوعين ؟[4]

ثم انتقل الخلاف إلى أسباب الأحكام وعللها، وتأثير ذلك عليها ، فانتقل الكلام في هذه المسألة إلى أصول الفقه ؛ لذا تجد أن أكثر من تكلم في الأسباب هم علماء الأصول ، والكلام فيها دقيق جداً ، وقد تعارضت أقوال الفقهاء فيها ، واختلفوا اختلافاً كبيراً، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - : " وأما الفقهاء وأهل الحديث والصوفية وكثير من أهل الكلام؛

---

[1] قال ابن تيمية في بيان معني التأثير إذا نسب إلى الله ، ومعناه إذا نسب للمخلوق : " والمقصود هنا : أن التأثير إذا فسر بوجود شرط الحادث ، أو سبب يتوقف حدوث االحادث به على سبب آخر، وإنتفاء موانع ، وكل ذلك بخلق الله تعالى فهذا حق ، وتأثير قدرة العبد فى مقدورها ثابت بهذا الإعتبار ، وإن فسر التأثير بأن المؤثر مستقل بالأثر من غير مشارك معاون ، ولا معاوق مانع فليس شيء من المخلوقات مؤثرا ، بل الله وحده خالق كل شيء لا شريك له ولا ند له ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن " الفتاوى (8/134) ، وقال ابن القيم : " لفظ المؤثر لم يرد إطلاقه في أسماء الرب ، وقد وقع اطلاق الأثر والتأثر على فعل العبد ، قال تعالى : (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم) قال ابن عباس : ما أثروا من خير أو شر ، فسمى ذلك آثارا لحصوله بتأثيرهم، ومن العجب أن المتكلمين يمتنعون من اطلاق التأثير والمؤثر على من أطلق عليه في القرآن والسنة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لبني سلمة دياركم تكتب آثاركم أي الزموا دياركم ويخصونه بمن لم يقع اطلاقه عليه في كتاب ولا سنة وإن استعمل في حقه الإيثار والاستئثار كما قال أخوة يوسف : (تالله لقد آثرك الله علينا) ، وفي الأثر : " إذا استأثر الله بشيء فاله عنه " وقال الناظم :

استأثر الله بالثناء وبالحمد   وولى الملامة الرجلا

ولما كان التأثير تفعيلا من أثرت في كذا تأثيرا فأنا مؤثر ، لم يمتنع اطلاقه على العبد ، قال في الصحاح : التأثير: ابقاء الأثر في الشيء " . شفاء العليل (ص132) .

والتأثير المقصود هنا : بمعنى الخلق والابداع . انظر : درء التعارض (1/338) .

[2] انظر : (ص   ) .

[3] مدارج السالكين (3/402) .

[4] وهذا ما سيتبين وجه الحق فيه من خلال دراسة هذه المسألة إن شاء الله .

كالكرامية، وغيرهم ، فإنهم يثبتون السبب والحكمة ، لكن كثير من هؤلاء يتناقض فيتكلم في الفقه بلون، وفي أصول الفقه بلون ، وفي أصول الدين بألوان ، ففي الفقه يثبت الأسباب والحكم ، وفي أصول الفقه يسمي العلل الشرعية أمارات خلاف ما يقوله في الفقه، وفي أصول الدين ينفي الحكمة والتعليل بالكلية ، لظنه أن قول القدرية لا يمكن إبطاله إلا بذلك ، والقليل من هؤلاء هو الذي يحقق الحكمة، ويبين رجوعها إلى الفاعل الحكيم ؛ مع حصول موجبها في مخلوقاته "[1].

ومما يؤكد كلام ابن تيمية ما نقله العلاء البخاري في " كشف الأسرار " ، حيث يقول : " وهذه ضروب متشابهة ، ففي السبب معنى العلة ، وفي العلة الشرعية معنى العلامة ، وفي الشرط معنى العلة ، والعلامة تشتبه بالشرط والعلة، ففيهما معنى العلامة ، لا يمتاز بعضها عن بعض إلا بحد وتأمل "[2].

وبعد ما رجعت إلى كتب أصول الفقه، وتقسيماتهم للسبب، وجعلهم إياه من الحكم الوضعي ، ظهر لي أن السبب الذي يتكلم عنه الفقهاء والأصوليون[3] أخص من السبب الذي يتكلم عنه في كتب العقيدة ، وعلى أقل احتمال لا يلتزم – جميعهم - لازم قولهم من جعل السبب هو ما يحصل الأثر عنده لا به ، أو أن الأسباب أمارات وعلامات على الأحكام غير مؤثرة في ذاتها[4] .

وسأذكر في هذا المبحث أقوال الفرق في الأسباب ، ثم سأتناول قول الجبرية بشيء من التفصيل ؛ لأنه القول الذي تبناه ابن جرجيس في " صلح الإخوان " ، وأورد بعض شبهاتهم ، وتبعاً لذلك فصل القول في الرد عليه الشيخ عبد اللطيف .

* **الأقوال في الأسباب إجمالاً :-**

القول الأول : قول أهل السنة: أهل السنة يعترفون بالأسباب ، وأن الله ربط الأسباب بالمسببات ، وأن العبد فاعل لفعله حقيقة وله قدرة واختيار ، وقدرته مؤثرة في مقدورها؛ كما تؤثر القوى والطبائع ، وغير ذلك من الشروط والأسباب[5].

---

[1] الاستغاثة في الرد على البكري (1/327) . وقد أبان هذا التناقض عند الأشاعرة ومن وافقهم ابن المرتضى اليماني في " إيثار الحق على الخلق " ص200- 204 .

[2] كشف الأسرار للبخاري (4/1294) .

[3] في كتب الفقه والأصول .

[4]

[5] منهاج السنة : (3/109) ، والفتاوى : (8/175) ، (12|137-138) .

قال ابن تيمية : " وأهل السنة لا ينكرون وجود ما خلقه الله من الأسباب ، ولا يجعلونها مستقلة بالآثار ، بل يعلمون أنه ما من سبب مخلوق إلا وحكمه متوقف على سبب آخر ، وله موانع تمنع حكمه ، كما أن الشمس سبب في الشعاع ، وذلك موقوف على حصول الجسم القابل له ، وله مانع؛ كالسحاب، والسقف "[1].

ويقول الأصبهاني[2] : " فالأبدان كلها مضطرة إلى الأسباب أبداً ، وذلك في أهل السموات والأرض اضطرهم الله جميعاً إلى الأسباب ، وإن تفاوتت وجوهها في قلتها وكثرتها ، وزيادتها، ونقصانها .

وأما القلوب ، فإنها مضطرة إلى مسبب الأسباب وحده ، أما ترى أن أهل الدنيا اضطروا إلى الأسباب من الأمكنة، والأغذية، واللباس، وسائر ما يرجع إلى معاشهم ، فهذا لأبدانهم ، واضطرت القلوب إلى أن الله تعالى وحده خالق الدنيا ومالكها .

وأن الأسباب عاملة بإذن الله ، فما أذن الله تعالى لشيء كان من غير سبب ، وإذا لم يأذن للسبب لم يعمل ، فالنار بإذنه تحرق ، فإذا أذن لها أن تمتنع من الإحراق امتنعت ، كما أذن لنار إبراهيم عليه السلام ..... إلى أن قال : إلا أن القلب إذا مال إلى الأسباب وكل إليها بقدر ميله إليها ، وفقد من معونة الله وتأييده على قدر ذلك"[3].

وقال أيضا : " أفعال العباد ليست بفعل الله ، وإنما هي مخلوقة له ، والخلق غير المخلوق فالخلق صفة لذاته والمخلوق محدث "[4] .

قال ابن القيم : وقد قال بعض أهل العلم : الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد. ومحو الأسباب – أن تكون أسبابا – تغيير في وجه العقل . والإعراض عن الأسباب بالكلية : قدح في الشرع. والتوكل معنى يلتئم من معنى التوحيد، والعقل، والشرع.

---

[1] درء التعارض (9/29) .

[2] إسماعيل بن محمد بن الفضل ، الحافظ الكبير أبو القاسم التيمي الطلحي الأصبهاني ، ينسب من جهة أمه للصحابي الجليل طلحة بن عبيدالله ، ولد بأصبهان (457) هـ ، يلقب بقوام السنة ، إمام في التفسير والحديث واللغة والأدب ، عارف بالمتون والأسانيد، حافظا عديم النظير، لا مثل له في وقته (ت535)هـ.

انظر : سير أعلام النبلاء (20/80) ، طبقات المفسرين للداوودي (1/37) .

[3] الحجة في بيان المحجة (2/52- 53) .

[4] الحجة في بيان المحجة (1/421) .

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وتقييد . فالإلتفات إلى الأسباب ضربان :
أحدهما : شرك. والآخر : عبودية وتوحيد. فالشرك : أن يعتمد عليها ويطمئن إليها، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود. فهو معرض عن المسبَّب لها. ويجعل نظره، والتفاته مقصوراً عليها .

وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها ، وإنزالها منازلها : فهذا الالتفات عبودية وتوحيد ، إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبب. وأما محوها أن تكون أسباباً: فقدح في العقل والحس والفطرة. فإن أعرض عنها بالكلية: كان ذلك قدحاً في الشرع ، وإبطالاً له .

وحقيقة التوكل : القيام بالأسباب، والاعتماد بالقلب على المسبب ، واعتقاد أنها بيده، فإن شاء منعها اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضية لضد أحكامها، وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها تدفعه[1] .

والأدلة التي تفيد إثبات الأسباب كثيرة جدا ، قال ابن القيم : " ولو تتبعنا ما يفيد إثبات الأسباب من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع ، ولم نقل ذلك مبالغة بل حقيقة "[2] ، ومن أنواعها ما يلي :

* كل موضع رتب فيه الحكم الشرعي أو الجزائي على الوصف أفاد كونه سببا له كقوله تعالى : (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (المائدة:38) ، وهذا أكثر من أن يستوعب .

* كل موضع تضمن الشرط والجزاء أفاد سببية الشرط والجزاء : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (لأنفال:29) .

* كل موضع ذكرت فيه الباء تعليلا لما قبلها بما بعدها أفاد التسبب .

* كل موضع صرح فيه بأن كذا جزاء لكذا أفاد التسبب[3].

القول الثاني : قول المعتزلة : السبب عندهم يوجب الحكم ، والعلة تؤثر في معلولها ، وهم يفرقون بين أفعال

---

[1] ?انظر : المدارج (3/499).
[2] شفاء العليل لابن القيم (317) .
[3] انظر : شفاء العليل لابن القيم (317- وما بعدها) .

الحيوان وغيرها[1] ، وأما ما ينسب إليهم من القول بأن الأسباب توجب مسبباتها بذواتها ، فلا يصح نسبة ذلك إليهم ، لأنهم يقولون : إن الله سبحانه هو الذي خلق السبب وأوجد فيه الأثر[2] ، ويقولون : إن السبب مؤثر بذاته ، ولكن بواسطة قوة أودعها الله فيه ، يكون بها التأثير[3] .

يقول القاضي عبد الجبار[4] : " اتفق كل أهل العدل على أن أفعال العباد من تصرفهم وقيامهم وقعودهم حادثة من جهتهم ، وأن الله عز وجل أقدرهم على ذلك، ولا فاعل لها ، ولا محدث سواهم ، وأن من قال إن الله سبحانه خالقها ومحدثها فقد عظم خطؤه "[5].

ومنشأ الغلط عندهم : اعتقادهم أنهم إذا أثبتوا مشيئة عامة وقدرة شاملة وخلقا متناولا لكل شيء لزم من ذلك القدح في عدل الرب وحكمته[6] .

وقولهم بأن الله سبحانه خلق السبب وأوجد فيه الأثر كلام صحيح ، ولكن الاعتقاد بأن ذلك كافٍ في أن الأسباب توجب مسبباتها ولو لم يأذن الله سبحانه، فاعتقاد باطل [7].

يقول ابن القيم في تفنيد هذا القول : " قالت طائفة : الفعل يضاف إلى قدرة الله سبحانه على وجه الاستقلال بالتأثير ، ويضاف إلى قدرة العبد لكنها غير مستقلة ، فإذا انضمت قدرة الله إلى قدرة العبد صارت قدرة العبد مؤثرة على سبيل الاستقلال بتوسط إعانة قدرة الله وجعل قدرة العبد مؤثرة ، والقائل بهذا لم يتخلص من الخطأ ، حيث زعم أن قدرة العبد مستقلة بإعانة قدرة الله له ، فعاد الأمر إلى اجتماع مؤثرين على أثر واحد ، لكن قدرة أحدهما وتأثيره مستند إلى قدرة الآخر وتأثيره ، وكأنه والله أعلم أراد أن قدرة الرب مستقلة بالتأثير في إيجاد الفعل ، وهذا قد قاله طائفة من العلماء ، وقائل هذا لم يتخلص من الخطأ، حيث جعل قدرة العبد مستقلة بالتأثير في إيجاد المقدور ، وهذا باطل إذ غاية

---

[1] ? يقول ابن تيمية : " بخلاف القدرية الذين أخرجوا عن ذلك أفعال الحيوان ، وبخلاف أهل الطبع والفلسفة الذين يخرجون عن ذلك عامة الكائنات من العلل المولّدات ، وكلاهما باطل " . قاعدة في المحبة (30).

[2] انظر : المسائل المشتركة ص182 .

[3] ?شفاء العليل لابن القيم (93) .

[4] عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، المتكلم شيخ المعتزلة ، أبو الحسن ، صاحب التصانيف ، من كبار فقهاء الشافعية(توفي :514هـ) . سير أعلام النبلاء (17 /244) .

[5] ?المغني في أبواب العدل والتوحيد للقاضي عبد الجبار (8/3).

[6] الفتاوى (8/99) .

[7] شفاء العليل (93) ، وانظر : المسائل المشتركة ص182 .

قدرة العبد أن تكون سببا بل جزأ من السبب ، والسبب لا يستقل بحصول المسبب ولا يوجبه ، وليس في الوجود ما يوجب حصول المقدور إلا مشيئة الله وحده"[1].

قال الشاطبي[2] في شرح هذا الاعتقاد : " أن يدخل فيها – الأسباب - على أنه فاعل للمسبب ، أو مولد له ، وهذا شرك ، أو مضاه له والعياذ بالله ، ..وقد تولى النظر فيها أرباب الكلام "[3].

القول الثالث : قول الجبرية

وهو : نفي تأثير الأسباب والقول بإسقاطها ، وهو توحيد القدرية الجبرية أتباع جهم بن صفوان .

وعندهم أن الله لم يخلق شيئاً بسبب ولا جعل في الأسباب قوى وطبائـع تؤثر ، فليس في النار قوة الإحراق ، ولا في السم قوة الإهلاك ، بل الله سبحانه يحدث هذه الآثار عند ملاقـاة الأجسام لا بهـا ، وليس هناك إلا مجرد الاقتران العادي كاقتـران الدليـل بالمدلول ، فليس الشبـع بالأكـل ، ولا الـري بالشرب . ولا الطاعـات والتوحيـد سبباً لدخـول الجنـة ،

ولا الشرك والكفر والمعاصي سبباً لدخول النار، بل يدخل هؤلاء النار بمحض مشيئته من غير سبب ولا حكمة .

وعندهم أن صدور الكائنات والأوامر والنواهي عن محض المشيئة الواحدة التي رجحت مثلا على مثل بغير مرجح فعنها يصدر كل حادث ويصدر مع الحادث حادث آخر مقترنا به اقترانا عاديا لا أن أحدهما سبب الآخر ، ولا مرتبط به، فأحدهما مجرد علامة وأمارة على وجود الآخر، فإذا وجد أحد المقترنين وجد الآخر معه بطريق الاقتران العادي فقط ، لا بطريق التسبب والاقتضاء، وهذا عندهم هو نهاية التوحيد وغاية المعرفة[4] .

وطرد هذا المذهب مفسد للدين والدنيا ، بل ولسائر أديان الرسل؛ ولهذا لما طرده قوم أسقطوا الأسباب الدنيوية وعطلوها، ولم يمكنهم ذلك، وهو قول الأشعري ومن تبعه من أهل الكلام .

يقول ابن تيمية – رحمه الله - : " وأما الطائفة الثانية فهم شر منهم ، وهم طوائف من أهل السلوك والإرادة والتأله

---

[1] شفاء العليل (93) .

[2] انظر ترجمته (ص74) .

[3] الموافقات (1/201) ، وانظر : التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية (399) .

[4] انظر : المدارج (3/496).

والتصوف والفقر ونحوهم ، يشهدون هذه الحقيقة ، ورأوا أن الله خالق المخلوقات كلها ، فهو خالق أفعال العباد ، ومريد جميع الكائنات ، ولم يميزوا بعد ذلك بين إيمان وكفر ، ولا عرفان ولا نكر ، ولاحق ولا باطل ، ولا مهتدى ولا ضال ، ولا راشد ولا غوي ، ولا نبي ولا متنبىء ، ولا ولي لله ولا عدو .."[1] .

وقولهم هذا مخالف للإجماع ، قال العلاء البخاري : " من أنكر جميع الأسباب وعطلها، وأضاف الإيجاب إلى الله تعالى فقط ، فقد خالف النص والإجماع ، وصار جبريا "[2] .

كما أن إنكار الأسباب قدح في الشرع ؛ يدل على ذلك : ماثبت من إنكار الله تعالى في كتابه العزيز على من ظن أن وجود الأسباب؛ كعدمها، وأنه لا فرق بين ما أمر الله به وأحبه ورضيه ، وبين مانهى عنه وأبغضه فقال تعالى : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (الجاثـية: 21) وغيرها من الآيات[3] .

ومنشأ الغلط عندهم زعمهم أن إثبات الأسباب يتنافى مع إثبات الربوبية لله رب العالمين ، وأن شهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات يقتضي محو الأسباب ، وهذا معنى توحيد الأفعال عندهم[4]، وظنهم أن إثبات الأسباب يتعارض مع إثبات القدر ، ويصح زعمهم لو أثبتنا أسباباً وعللاً مستقلة ، وقد علمت أن أهل السنة لا يقولون إن في المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها، وسبب تام يستلزم مسببه[5].

قال ابن تيمية : " والذين ظنوا هذا أصل شبهتهم أنهم لما أثبتوا أن الله إذا قضى شيئاً فلابد أن يكون ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن ما سبق به علمه فهو كائن لا محالة ، صاروا يظنون ما يوجد بسبب يوجد بدونه وما يوجد مع عدم المانع يوجد مع المانع "[6].

يقول السمرقندي[7] مقررا هذه الشبهة : " إن المعني بقولنا : أسباب الأحكام وعللها أنها أعلام وأمارات على أحكام الله

---

[1] مجموع الفتاوى (8/59) .
[2] كشف الأسرار للبخاري (2/660) .
[3] انظر: مجموع الفتاوى (10/28) .
[4] انظر : المرجع السابق (8/99) .
[5] انظر: مدارج السالكين (3/497) .
[6] مجموعة الرسائل (1/92-93) .

تعالى ، لا أنها موجبات ، وهذا لأن الموجب للأحكام هو الله والشارع لها كما أن الموجد للأفعال والأعيان : هو الله تعالى وخالقها ولا تعلق للوجوب والوجود بالأسباب في حق الله تعالى ، ليظن أنها تصير تتمة القدرة. وإنما الأسباب لمعرفة العباد لوجوب الأحكام بإيجاب الله تعالى إلا أن إيجابه غيب عنا "[1]

وقال محمود شكري الألوسي حاكيا مناظرة بين مقابري جبري وموحد[2] - تبين اعتقادهم أن إثبات الأسباب نوع من أنواع الشرك - : " قال الجبري : إن أهل بلادنا يقولون عنكم وعمن سلك مسلككم من عرب نجد وغيرهم إنكم مشركون ، قال : فبهت الأمير –الموحد- من هذا الكلام ، واستعظمه ، ثم قال – الأمير - : ولم يقولون عنا إنا مشركون ونحن من أخلص الناس توحيدا له سبحانه ؟ قال الجبري : فقلت له : إن أهل بلادنا لا يثبتون للأسباب تأثيراً ، وأنتم تثبتون التأثير والعلل والحكم والمصالح ، فإذا كان الأمر كذلك فقد أشركتم مع الله مؤثراً في الوجود ، وهذا هو الشرك الأكبر .

قال: وأما أصحابنا فعندهم أن السكين عند إمرارها على شيء لا تقطع بل يخلق الله القطع عند ذلك ، وليس في الماء قوة الري مودعة فيه بل الري يخلق عند شربه لابه . . وهكذا في جميع ما يعتقد أنه سبب في الظاهر . فإذا قال القائل مستغيثاً بأحد من الأموات يافلان افعل كذا وكذا فالمقصود الطلب من الله أن يقضي حاجته".

قال الألوسي : " وبعد أن فرغ من هذا الهذيان، وسكت، قلت له: فما أجابك الأمير؟ قال لم يجبني بشيء ، فقلت : كان ينبغي أن يجيبك ويسألك ، من قال هذا الكلام الذي ذكرته ، وعمن نقلته ، وأي دليل لك عليه من الكتاب والسنة وسلف الأمة ؟ وينبغي على قولك هذا أن يطلب من المخلوق كل شيء يطلب من الخالق، وينبغي أن لا يعترض على عبدة الأصنام ، وطلبهم من أصنامهم مايطلب من الله، فإنهم أيضاً كانوا يعتقدون أن أصنامهم وسائط ووسائل وشفعاء، وكانوا (وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)(يونس: من الآية18).."[3].

---

[7] هو : محمد بن أحمد بن علي السمرقندي ، ماتريدي المعتقد ، فقيه حنفي من تلاميذ أبي المعين النسفي، أصولي ، يعد الكاساني من أشهر تلاميذه (ت :539هـ). انظر : تاج التراجم لابن قطلوبغا (ص252) ، الأعلام (6/212) .

[1] ميزان الأصول للسمر قندي (1040-1041) .

[2] وكذلك حكى ابن القيم قريبا من هذه المناظرة في شفاء العليل (238) .

[3] غاية الأماني (2/352-353) .

وقال ابن تيمية في رده على البكري لما أورد مقولة أشبهت ما يورده ابن جرجيس في التخبط في إثبات السبب مايلي :-
" قال البكري : وكثيراً ما تنفى الأشياء في النصوص الشرعية إشارة إلى التوحيد، ويثبتها الباري سبحانه في مواضع أخر اعتباراً بالأسباب وإثباتاً لبساط الحكمة"[1].

ثم قرر ابن تيمية أن هذا كلام باطل ، فإن الله – سبحانه- لا ينفي شيئاً ويثبته إذ الجمع بين نفيه وإثباته تناقض .. لكن المنفي غير المثبت ، فالذي ينفيه في موضع ليس هو الذي يثبته في موضع آخر ، ولكن هؤلاء الضلال يجعلون المنفي عين المثبت ، فيكون المضاف إلى الرب بطريق التوحيد يضاف إلى غيره بطريق السبب والحكمة ؛ ولهذا قالوا : إن كل مايطلب من الله يطلب من غيره بهذا الطريق[2].

وقال–رحمه الله- في بيان زلل هذه الطائفة، ووقوعها في الشرك بعد نفيها الأسباب: " فأشركوا في ربوبية الله ، وفي دعاء الله وعبادته ، حيث جعلوا ما يضاف إلى المخلوق يضاف إليه تعالى فصار حقيقة قولهم أن المخلوق تضاف إليه مفعولات الله كلها ، ويطلب منه مقدورات الرب كلها ، لما في الخلق من السبب والحكمة ، ولم يعلم هؤلاء الجهال أن السبب لا يستقل بالتأثير، بل تأثيره متوقف على سبب آخر، وله موانع ...
وأيضاً أثبتوا أسباباً في خلقه وأمره ونهيه ما أنزل الله بها من سلطان ، بل إثباتها مخالف للشرع والعقل. فضلوا في أسباب لا حقيقة لها ، وفي الإضافة إليها ، وفي تعليق الحوادث كلها بسبب واحد "[3].

وقال في موضع آخر : " فطائفة تضعف أمر السبب المأمور به فتعده نقصا وقدحا في التوحيد والتوكل ، وأن تركه من كمال التوكل والتوحيد ، وهم في ذلك ملبوس عليهم ، وقد يقترن بالغلط اتباع الهوى في إخلاد النفس إلى البطالة ؛ ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك ، فإما أن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة ، وإما أن يتركوا لأجل ما تبتلوا له من الغلو في التوكل واجبات أو مستحبات انفع لهم من ذلك ، كمن يصرف همته في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء ، أو نيل رزقه بلا سعي ، فقد يحصل ذلك ، لكن كان مباشرة الدواء الخفيف

---

[1] الرد على البكري (1/302-303) .
[2] انظر : الاستغاثة في الرد على البكري (1/303) .
[3] الاستغاثة (1/203- 204) .

والسعي اليسير وصرف تلك الهمة والتوجه في علم صالح أنفع له ، بل قد يكون أوجب عليه من تبتله لهذا الأمر اليسير الذي قدره درهم أونحوه "[1] .

المطلب الرابع : الفرق بين السبب والدليل :

نظرا لتخبط الجبرية ومن نحا نحوهم في باب الأسباب وزعمهم أن الأسباب أمارات محضة ، لم يفرقوا بينها وبين الأدلة .

يقول السمرقندي في "ميزان الأصول" : " ويجوز أن تسمى العلة دليلاً ؛ لأنه يحصل بواسطته العلم بالحكم في الفروع عند الاستدلال - الذي هو العلة - وتسمى سبباً لهذا، والله أعلم "[2].

ويقول في موضع آخر : " والسبب : ماهو طريق إلى الحكم ، وكذا الدليل "[3]

وقالوا أيضاً : -" إذا تقرر هذا فعلم أن السبب يوجد الحكم عنده لابه وهو الذي يضاف إليه الحكم . . . ولا شك أن الأسباب معرفات " ، ومعنى معرفات : أي علامة على وجود مسببه ، وهو الحكم [4].

وبناء على ذلك جعلوا الدعاء علامة وأمارة ودلالة محضة على حصول المطلوب المسؤول، وجعلوا ارتباطه بالمطلوب ارتباط الدليل بالمدلول، لا ارتباط السبب بالمسبب ، بمنزلة الخبر الصادق والعلم السابق ، وبمنزلة رؤية الغيم الأسود البارد في زمن الشتاء ، وأن ذلك دليل وعلامة على أنه ممطر .

وقولهم هذا في الدعاء قالوا مثله في حكم الطاعات مع الثواب ، والكفر، والمعاصي مع العقاب ، هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب لا أنها أسباب لذلك .

وهكذا عندهم الكسر مع الإنكسار ، والحرق مع الإحراق ، والإزهاق مع القتل ليس شيء من ذلك سبباً البتة ، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه إلا مجرد الاقتران العادي لا التأثير السببي[5].

---

[1] الفتاوى الكبرى (1/428-429) .

[2] ميزان الأصول للسمرقندي ص870 .

[3] المرجع السابق ص820 .

[4] شرح الكوكب المنير (1/446-447) . وانظر في نقل هذه الأقوال : إرشاد الفحول ص6 ، والمدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص67 للشيخ عبد القادر بن بدران .

[5] انظر : جامع الرسائل (1/88) ، مجموع الفتاوى (8/192) ، الدعاء ومنزلته في العقيدة (1/340) .

وعلى هذا زعم بعضهم : أن أحدهم إذا طلب شيئاً من نبي أو ولي فالله هو المعطي لمن سأل عند الطلب ، ومن أسند التأثير لغير الله فقد أشرك[1].

وهذا القول كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " هو قول من ينفي الأسباب في الخلق والأمر ، ويقول: إن الله يفعل عندها لابها ، وهو قول طائفة من متكلمي أهل الإثبات للقدر؛ كالأشعري، وغيره ، وهو قول طائفة من الفقهاء، والصوفية"[2].

قال الشاطبي : " إن السبب غير فاعل بنفسه ، بل إنما وقع المسبب عنده لابه ، فإذا تسبب المكلف فالله خالق السبب ،والعبد مكتسب له(والله خلقكم وما تعلمون)"[3]

وهذا هو الرأي المعروف بكسب الأشعري . وهو أحد عجائب الدنيا الغريبة والتي هي غير معقولة ولا يصدقها العقل .

مما يقال ولا حقيقـة تحتـه   مقولـة تدنو إلى الأفهــام

الكسب عند الأشعري والحال   عند البهشمي وطفرة النظـام[4]

والحقيقة أنه لا فرق بين الجبر والكسب .

قال الرازي : " وعند هذا التحقيق يظهر أن الكسب اسم بلا مسمى "[5]

وقال شيخ الإسلام : " وما أثبته – الأشعري – من الكسب لا يتحقق الفرق بينه وبين الفعل ، فكأن حقيقة قوله في أفعال العباد هو معنى قول جهم "[6].

وقال السفاريني : " ثم إن الأشعري ومن وافقه منهم أثبت للعبد كسباً ، ومعناه: أنه قادر على فعله وإن كانت قدرته لا تأثير لها في ذلك "[7].

ويؤصل شيخ الإسلام هذه المقالة ، ويقول : " وآخرون يقولون بل الدعاء علامة وأمارة ، ويقولون ذلك في جميع العبادات ، وهذا قول من ينفي الأسباب في الخلق والأمر ، ويقول إن الله يفعل عندها لا بها ، وهو قول طائفة من متكلمي أهل الإثبات للقدر ؛ كالأشعري وغيره ...وأصل هذه البدعة من قول جهم فإنه كان غاليا في نفي الصفات ، وفي

---

[1] غاية الأماني (2/352) .
[2] جامع الرسائل (1/87) .
[3] الموافقات (1/196) .
[4] منهاج السنة (1/459) .
[5] محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص288 .
[6] الرد على البكري (1/212) .
[7] اللوامع (1/311) .

الجبر ، فجعل من تمام توحيد الذات نفي الصفات ، ومن تمام توحيد الأفعال نفي الأسباب "[1].

وقال د. محمد العروسي : " وأصل الخطأ في جعل الفعل حقيقة لله مجازاً للعبد ، وأن العبد غير مختار هو الظن بأن الفعل هو المفعول ، والخلق هو المخلوق ، فلما اعتقدوا أن أفعال العباد مخلوقة مفعولة لله قالوا : فهي فعله. فلما سألهم المعتزلة : أهي فعل للعبد؟

اضطربوا فقالوا : بل هي كسبه لا فعله ، ولم يفرقوا بين الكسب والفعل بفرق محقق .

والصواب الذي يدل عليه الكتاب والسنة ، والذي عليه أئمة أهل السنة : أن قدرة الرب وقدرة العبد تتناول كلا النوعين : الفعل القائم بالفاعل ، ومقدوره .

وذلك أن القدرة هي القدرة على الفعل ، والفعل نوعان : لازم ومتعد ..." فالعبد فاعل لفعله حقيقة وقدرته لها تأثير في فعله ، والله سبحانه جعله فاعلاً محدثاً له فالله سبحانه خالق وفاعل كل شيء بما خلق من الأسباب ، وليس شيء من الأسباب مستقلاً بالفعل ، بل هو محتاج إلى أسباب أخر تعاونه ، وإلى دفع موانع تعارضه ، ولا تستقل إلا مشيئة الله تعالى ، فإنه ماشاء كان وما شاء العبد لم يكن. فما شاء الله كان وإن لم يشأ العبد ، وما لم يشأ لم يكن ولو شاء العبد ، وهذا قول جماهير السنة من جميع الطوائف "[2].

فهذا الاعتقاد هو الذي جعلهم يسوون بين السبب والدليل ، ويجعلون الأسباب أدلة وعلامات . **ويمكن القول بأن هناك فروقا بين السبب والدليل ، منها :**

1- السبب يؤثر في المسبب ، أما الدليل فإنه يخلو عن التأثير في المدلول، ولا يحصل به سوى الوصول إلى المدلول، أو العلم به دون أن يكون له تأثير فيه[3].

2- أن كون الشيء دليلا يقتضي الاطراد بين الدليل والمدلول ، بخلاف السبب فلا بد لتأثيره في مسببه من اجتماع شروط وانتفاء موانع ، فلذا لا يلزم الإطراد بين السبب والمسبب.

---

[1] مجموعة الرسائل (1/88) .

[2] المسائل المشتركة بين أصول الفقه وأصول الدين ص171-172 ، وانظر: شفاء العليل لابن القيم ص131 .

[3] السبب عند الأصوليين (2/77) ، وانظر : كشف الأسرار للبخاري(4/294).

ويقول الشيخ عبد اللطيف في الرد على ابن جرجيس : " وأما اعتقاد تأثير الأدعية المحرمة فعامته إنما تجد اعتقاده عند أهل الجهل الذين لا يميزون بين الدليل وغيره ، ولا يفهمون ما يشترط للدليل من الاطراد "[1].

وعلى كل فإن مسألة الأسباب سواء قال أهل البدع – القبوريون - فيها بقول السلف أم غيرهم لا تعلق لها بعبادة غير الله ، فإن ذلك من خصائص الله- تعالى- باتفاق العقلاء وأهل المعرفة ، كما أن الأشاعرة القائلين بعدم تأثير الأسباب لا يقولون بجواز عبادة غير الله ، فلا يسجد لغير الله ، ولا يذبح لغير الله، ولا ينذر لغير الله، ولا يحلف بغير الله ، ولا يستغاث، ولا يستعان بغير الله[2].

المطلب الخامس : ضوابط الأخذ بالأسباب :

من خلال ماتقدم ظهر أن الأصل هو الأخذ بالأسباب ، وإعمالها؛ لكن الأخذ بها لابد له من ضوابط تقي من الوقوع في الشرك الناشىء من التعلق بها، والاعتماد عليها. ومن أهم الضوابط ما يلي :

1- الاعتقاد بأنها لا تستقل بالمطلوب ، بل تتعاطى من غير ركون إليها ، ومع هذا فلها موانع ، فإن لم يكمل الله الأسباب، ويدفع الموانع لم يحصل المقصود ، وهو سبحانه ما شاء كان وإن لم يشأ الخلق ، ومالم يشأ لم يكن ، وإن شاء الخلق[3]، يقول ابن القيم : " والعلل التي تتقى في الأسباب نوعان ، أحدهما : الاعتماد عليها والتوكل عليها والثقة بها ، ورجاؤها، وخوفها. فهذا شرك يرق، ويغلظ، وبين ذلك.

الثاني : ترك ما أمر الله به من الأسباب ، وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً، وبين ذلك. بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر ، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله سبق به علمه وحكمه، وأن السبب لا يضر، ولا ينفع، ولا يعطي، ولا يمنع ، ولا يقضي، ولا يحكم ، ولا يحصل للعبد ما لم تسبق له به المشيئة الإلهية، ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم. فيأتي بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفلاح، والوصول إلا بها . ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه ، ولا تُحَصِّلُ له فلاحاً ، ولا توصله إلى المقصود عليها. فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً واجتهاداً ، ويُفَرِّغُ قلبه من

---

1 المنهاج162.

2 غاية الأماني للألوسي (2/355) .

3 انظر : مجموع الفتاوى (1/137) .

الاعتماد عليها ، والركون إليها ، تجريداً للتوكل ، واعتماداً على الله وحده. وقد جمع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح. حيث يقول : " احرص على ماينفعك ، واستعن بالله. ولا تعجز" ، فأمره بالحرص على الأسباب ، والاستعانة بالمسبب. ونهاه عن العجز. وهو نوعان : تقصير في الأسباب ، وعدم الحرص عليها ، وتقصير في الاستعانة بالله ، وترك تجريدها. فالدين كله – ظاهره وباطنه ، شرائعه وحقائقه – تحت هذه الكلمات النبوية. والله أعلم "[1].

2- ألا يعتقد في الشيء أنه سبب إلا بعلم وتحقق ، فمن أثبت سبباً بلا علم ، أو بما يخالف الشريعة كان مبطلاً في إثباته آثماً في اعتقاده [2].

قال الألباني : " فهناك شرطان لجواز استعمال سبب كوني ما ، الأول : أن يكون مباحاً في الشرع .

والثاني : أن يكون قد ثبت تحقيقه للمطلوب ، أو غلب ذلك على الظن "[3] .

3- أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يُتخذ شيء منها سبباً إلا أن يكون مشروعاً ، فإن العبادات مبناها على التوقيف ، فلا يتقرب إلى الله عز وجل بالأعمال الشركية أو البدعية أو نحوها [4].

4- أن القيام بالأسباب على نحو ما سبق هو الذي يحقق التوكل ، فمن عطل الأسباب المأمور بها لم يصح توكله ، كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه ، فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنيا، كما أن من عطلها يكون توكله عجزاً أو عجزه توكلاً[5] .

5- وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده ، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها ، كما لا ينفعه قوله : " توكلت على الله " مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به ، فتوكل اللسان شيء ، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء ، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء ؛ فقول العبد : توكلت على الله. مع اعتماد قلبه على غيره مثل قوله: " تبت إلى الله" وهو مصرٌّ على معصيته مرتكب لها[6].

---

[1] المدارج(ج ص)

[2] انظر: توحيد الخلاق للشيخ سليمان بن عبدالله ص175 ، والفتاوى (1/137) .

[3] التوسل والوسيلة ص24.

[4] انظر: المرجع السابق ص171 ، الفتاوى (1/137) .

[5] انظر : الفوائد لابن القيم ص86-87 .

[6] انظر: المرجع السابق .

6ـ إذا لم يوجد من الأسباب في تحصيل المطلوب إلا سبباً محرماً فلا يجوز مباشرته ولا الأخذ به ، وتوحد السبب في حق العبد في التوكل على الله عز وجل فلم يبق سبب سواه ، فإنه من أقوى الأسباب في حصول المراد ، ودفع المكروه ، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق [1] .

7- ليس كل ما أثر مباح : إن من أعظم ما ترتب على زلل أهل البدع في الأسباب اعتقادهم أن كل ما أثر مباح ، بل اعتقدوا أعظم من ذلك بجعلهم ثبوت الأثر لبعض الأسباب أحيانا دليل على مشروعيتها ، يقول شيخ الإسلام في ذلك : " إن اعتقاد المعتقد أن هذا الدعاء[2] ، أو هذا النذر كان هو السبب ، أو بعض السبب في حصول المطلوب لا بد له من دلالة ، ولا دليل على ذلك في الغالب إلا الاقتران أحيانا ، أي : وجودهما جميعا .

وإن تراخي أحدهما عن الآخر مكانا أو زمانا مع الانتقاض أضعاف أضعاف الاقتران ، ومجرد اقتران الشيء بالشيء بعض الأوقات مع انتقاضة ليس دليلا على الغلبة باتفاق العقلاء ، إذا كان هناك سبب آخر صالح ، إذ تخلف الأثر عنه يدل على عدم الغلبة "[3] .

ويقول الشيخ عبد اللطيف في الرد على ابن جرجيس : " وأما اعتقاد تأثير الأدعية المحرمة فعامته إنما تجد اعتقاده عند أهل الجهل الذين لا يميزون بين الدليل وغيره، ولا يفهمون ما يشترط للدليل من الاطراد "[4]

وقال : " فأين ابن جرجيس من هذه العبارة التي فيها أن الاستدلال باستجابة الدعاء وقضاء الحاجة من الشبهات التي حدث الشرك في الأرض بسببها "[5].

وقال أيضا : " فإنهم يبلغهم أن بعض الصالحين عبدوا عبادة، أو دعوا دعاء وجدوا لتلك العبادة وذلك الدعاء أثرا، فيجعلون ذلك دليلا على استحسان تلك العبادة والدعاء "[6].

ومعلوم أن مجرد حصول منفعة ما بواسطة ما لا يكفي لإثبات مشروعية هذه الواسطة ، فبيع الخمر مثلاً قد يؤدي إلى

---

[1] انظر: الفوائد لابن القيم ص86-87 .
[2] يعني به الدعاء البدعي .
[3] الاقتضاء (2/709) .
[4] المدارج162.
[5] المنهاج (145) .
[6] المصدر السابق155.

منفعة صاحبه، وغناه، وثروته ، وكذلك الميسر ... قال تعالى : (يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) (البقرة:219)، ومع ذلك فهما محرمان [1].

" وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان فلا يحل له ذلك ؛ إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به؛ إذ الرسول صلى الله عليه وسلم : بعث بتحصيل المصالح، وتكميلها ، وتعطيل المفاسد، وتقليلها "[2].

قال السهسواني في معرض رده على دحلان عندما قال : " فكما أن الله تعالى جعل الطعام والشراب سببين للشبع والري، ولا تأثير لهما ، والمؤثر هو الله تعالى وحده ، وجعل الطاعة سبباً للسعادة ونيل الدرجات ، جعل أيضاً التوسل بالأخيار الذين عظمهم الله تعالى، وأمر بتعظيمهم سبباً لقضاء الحاجات .

أقول- السهسواني - فيه كلام من وجهين : -

الأول **:** أن هذا قياس مع الفارق ، فإن كون الطعام والشراب سببين للشبع والري معلوم بالعقل والنقل ، وكذلك كون الطاعة سبباً للسعادة ونيل الدرجات ، وأما كون التوسل بالأخيار سبباً لقضاء الحاجات فلا دليل عقلي، أو نقلي .

والثاني **:** أن الكلام في مشروعية التوسل لا في كونه سبباً لقضاء الحاجات ، ولا ملازمة بين الأمرين ، فرب سبب في الدنيا وبال ونكال في الآخرة "[3] .

وقال ابن تيمية : " ألست ترى السحر، والطلسمات، والعين، وغير ذلك ، من المؤثرات في العالم بإذن الله قد يقضي بها كثير من أغراض النفوس، ومع هذا فقد قال سبحانه : (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)(البقرة: من الآية102) ، فإنهم معترفون بأنه لا ينفع في الآخرة ، وأن صاحبه خاسر في الآخرة ، وإنما يتشبثون بمنفعته في الدنيا"[4].

ويقول أيضا في حديثه عن أثر الدعاء : " وإذا ثبت ذلك فليس علينا من سبب التأثير أحياناً ، فإن الأسباب التي يخلق الله بها

---

[1] التوسل للألباني ص26 .
[2] الفتاوى (1/138) .
[3] صيانة الإنسان للسهسواني ص302-303 .
[4] الاقتضاء (2/693) .

الحوادث في الأرض والسماء ، لا يحصيها على الحقيقة إلا هو، أما أعيانها فبلا ريب ، وكذلك أنواعها أيضاً لا يضبطها المخلوق لسعة ملكوت الله سبحانه وتعالى ، ولهذا كانت طريقة الأنبياء عليهم السلام أنهم يأمرون الخلق بما فيه صلاحهم ، وينهونهم عما فيه فسادهم ، ولا يشغلونهم بالكلام في أسباب الكائنات؛ كما تفعل المتفلسفة ، فإن ذلك كثير التعب ، قليل الفائدة ، أو موجب للضرر، والكلام في بيان تأثير بعض هذه الأسباب قد يكون فيه فتنة لمن ضعف عقله ودينه، ويكفي العاقل أن ما سوى المشروع لا يؤثر بحال فلا منفعة فيه ، أو أنه وإن أثر فضرره أكثر من نفعه"[1].

الفصل الرابع

عرض موجز لتتمة الرد على كتاب "صلح الإخوان"

ويشمل :

المبحث الأول : الاستدلالات والشبه التي لم يسبق الرد عليها .

المبحث الثاني : استعراض مجمل لـرد الألوسي عليها .

---

[1] انظر: الاقتضاء (2/691-692) .

من المعلوم أن الشيخ عبداللطيف – رحمه الله – توفي قبل إتمام الرد على " صلح الإخوان " ، فقام العلامة محمود بن شكري الألوسي بإتمامه .
وسأستعرض في هذا الفصل – إن شاء الله – هذه التتمة بإيجاز من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول
الاستدلالات والشبه التي لم يسبق الرد عليها

بعد أن استعرضت " صلح الإخوان " وجدت أن التكرار فيه كثير جدا ، فهو إما أن يكرر الدليل ، وهذا الغالب ، وإما أن يكرر وجه الاستدلال ، بل لا يعد الحق من ذكر أنه لا يوجد في الجزء المتبقي من " صلح الإخوان " استدلالات وشبه لم يرد عليها الشيخ إما بعينها ، أو بإلحاقها بما رد عليه الشيخ لتشابه وجه الاستدلال .
قال الألوسي – رحمه الله - : " فلم يغادر من الحق شيئا إلا وأبانه ، ولا من الباطل إلا ووجه نحوه سنانه ...بيد أنه لم يتيسر له الإكمال والإتمام ، وإن كان ما كتبه كاف في الإفحام والإلزام "[1].
فالشيخ عبداللطيف –رحمه الله- رد على الباب الأول كاملا، وفيه النقول عن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم التي زعم ابن جرجيس أنها تؤيد ما ذهب إليه، وهذا الباب أهم أبواب الكتاب ، وهو الذي ميز ابن جرجيس من بين الخصوم – كما مر في ترجمته -.
أما الباب الثاني : وإن كان أطول من الذي قبله إلا أنه تكرار لما سبق ، وقد رد الشيخ على مقدمته كاملة ، وفيها أهم ما أراد الخلوص إليه من عقد هذا الباب ، ثم رد استدلالاته بالأدلة التي ساقها من القرآن ، وتوقف عند ذلك –رحمه الله-.
وأما استدلال ابن جرجيس بالأحاديث من السنة ، فقد رد الشيخ على أكثرها في أثناء رده على النقول .
ومن الأدلة التي لم يرد عليها وتناولها الألوسي بالرد والتفنيد ما يلي :

[1] فتح المنان (344) .

* **الدليل الرابع** : الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن النبي ذكر في قصة هاجر أم إسماعيل– عليهما السلام -: " أنها لما أدركها وولدها العطش ، فجعلت تسعى ، أي : تركض في طلب الماء، فسمعت صوتا ولا ترى شخصا، فقالت : أغث إن كان عندك غوث "[1].

* **الدليل السادس** : عن النبي أنه قال : " إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة ، فليناد: يا عباد الله احبسوا . فإن لله حاضرا سيحبسه "[2] ، ومثله **الدليل السابع** .

* **الدليل الثالث عشر** : عن أوس بن عبد الله قال : " قحط أهل المدينة قحطا شديدا فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها، فقالت " انظروا قبر النبي ، فاجعلوا منه كوة إلى السماء لا يكون بينه وبين المساء سقف " ، قال: ففعلوا . فمطروا مطرا حتى نبت العشب وسمنت الإبل ، حتى تفتقت من الشحم "[3] .

* **الدليل الخامس عشر** : روى الإمام أحمد في مسنده ، والحاكم في مستدركه على الصحيحين قال : " أقبل مروان يوما، فوجد رجلا واضعا جبهته على القبر. فقال : أتدرى ما تصنع؟ فأقبل عليه، فإذا أبو أيوب الأنصاري - رضي الله تعالى عنه -. فقال : جئت رسول الله ولم آت الحجر، سمعته يقول : " لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله ، ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله"[4] انتهى[5].

---

[1] صلح الإخوان (51) .

[2] صلح الإخوان (52) . والحديث رواه أبو يعلى الموصلي في المسند (9/177) ، وابن السني في عمل اليوم والليلة (239-240) برقم (508) ، والطبراني بنحوه (10/267) . وفي سنده انقطاع ، وممن ضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (10/232) ، والألباني في الضعيفة برقم (655) .

[3] صلح الإخوان (55) . والأثر رواه الدارمي في سننه (1/43) ، جاء في تلخيص الاستغاثة : " ما روي عن عائشة – رضي الله عنها – من فتح الكوة من قبره إلى السماء لينزل المطر فليس بصحيح ، ولا يثبت إسناده ، وإنما نقل ذلك من هو معروف بالكذب ، ومما يبين كذب هذا أنه في مدة حياة عائشة لم يكن للبيت كوة بل كان على عهد النبي بعضه مسقوف وبعضه مكشوف ، وكانت الشمس تنزل فيه كما ثبت في الصحيحين عن عائشة " أن النبي كان يصلي العصر والشمس في حجرتها لم يظهر الفيء بعد " صحيح البخاري (كتاب مواقيت الصلاة/ باب وقت صلاة العصر) انظر : الرد على البكري(1/ 146) .

[4] قال الهيثمي في مجمع الزوائد (5/245) : فيه كثير بن زيد ، وثقه أحمد وغيره ، وضعفه النسائي وغيره ، وقال المناوي في فيض القدير : " وداود بن صالح ، قال ابن حبان : يروي الموضوعات " .

[5] صلح الإخوان (56-57) .

* **الدليل السابع عشر** : الأثر عن بلال – رضي الله عنه - ، أنه أتى قبر النبي ومرغ وجهه على القبر[1].

* **الدليل الثامن عشر** : ما روى الحاكم في المستدرك على الصحيحين : " أن أبا أيوب الأنصاري – رضي الله عنه – غزى قسطنطينية في خلافة معاوية مع ولده يزيد ، فقتل هناك ، ودفنه المسلمون في أصل سور البلد ، قال الراوي : فالروم يزورون قبره ، ويستسقون به إذا قحطوا "[2].

* **الدليل العشرون** : ما ذكره ابن الجوزي من قصة المرأة التي كانت تجتهد في العبادة ، فأتاها الشيطان ، وقال : " إلى كم تعذبين هذا الجسد.." ، وفيه فاعتصمت بقبر الرسول [3].

* **الدليل الثاني والعشرون** : ما ذكره ابن الجوزي في صيد الخاطر ، وفيه"فلجأت إلى قبور الصالحين ، وتوسلت في صلاتي"[4].

* **الدليل الثالث والعشرون** : عن ابن عمر وابن عباس – رضي الله عنهما - : " أن الإنسان إذا خدرت رجله ، فليناد : يا محمد "[5].

* **الدليل الخامس والعشرون** : ذكر ابن الجوزي في كتابه " عيون الحكايات " بسنده إلى بعض التابعين : " أنهم لما أسرهم الكفار وراودوهم على الكفر وامتنعوا، فغلوا لهم زيتا في قدر فألقوهم فيه . فنادوا : يا محمد"[6].

ثم عقد ابن جرجيس فصلا يثبت فيه ويقرر أن النبي وأصحابه عاملوا الأموات معاملة الأحياء ، وساق ثلاثة عشر دليلا لإثبات سماع الموتى ، رد الشيخ على وجه الاستدلال ، ورد على حديث مخاطبة النبي لقتلى بدر ، وكل الأحاديث التي ذكر من هذا القبيل[7] ، ومما لم يرد عليه :

---

[1] صلح الإخوان (57).
[2] صلح الإخوان (57).
[3] صلح الإخوان (57-58).
[4] صلح الإخوان (59).
[5] صلح الإخوان (60) .
[6] صلح الإخوان (60) .
[7] ذكرت هذه الأحاديث لأنها تجمع أوجه الاستدلال ، وهي التي رد عليها الألوسي بالتفصيل ، وغيرها مندرج تحتها فلا فائدة لذكره .

* **الدليل الثاني** : مخاطبة النبـي لأم محجـن - التي كانت تقم المسجد - بعد موتها ، وسؤالها أي العمل وجدت أفضل ؟

* **الدليل السابع** : تعليم الرسول أصحابه السلام على أهل القبور ، وأن يقولوا لهم : " أنتم لنا سلف ، ونحن لكم خلف "[1].

* **الدليل الثامن** : مشروعية تلقين الميت[2].

* **الدليل التاسع** : خطاب المصلين للنبي في قولهم : " السلام عليك أيها النبي "[3].

ثم ساق حكايات وآثار تدل على أن الأرواح متصرفة غير مقيدة ، وذكر حديث عرض الأعمال .

ثم عقد فصلا ذكـر فيـه أحاديث تدل على تبرك الصحابة بذات الرسول ، وبآثاره ، وزعم أن ذلك من التوسل ، ومما استدل به ولم يرد عليه[4] :

* **الحديث الأول** : عن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – قالت : " هذه جبة النبي فأخرجت لي جبة طيالسة كسروانية لها لبنة ديباج، وفرجاها مكفوفتان بالديباج، فقالت: هذه كانت عند عائشة رضي الله تعالى عنها فلما قبضت قبضتها، فنحن نغسلها للمرضى نستشفي بها"[5].

* **الحديث الحادي والعشرون** : أنه كان يشير إلى الحجر الأسود بمحجنه ، ويقبل المحجن[6] .

* **الدليل الرابع والعشرون** : أن السنة المجمع عليها أن المستسقين يخرجون البهائم وأطفالهم وقت الاستسقاء ، وهي ذوات لا تعقل فضلا عن أن تدعوا ، أيقال : إن ذوات البهائم أقرب عند الله وأوجه من ذات نبينا ؟![7].

---

[1] صلح الإخوان (63) .
[2] صلح الإخوان (63) .
[3] صلح الإخوان (64) .
[4] استدل العراقي بأحاديث كثيرة في هذا الفصل تدل على تبرك الصحابة بعرقه ، وشعره ، وغير ذلك ، لكن الألوسي –رحمه الله- لما بين أن هذا لا خلاف في جوازه ، لم يرد مفصلا إلا على ما ذكرت .
[5] صلح الإخوان (77) .
[6] صلح الإخوان (80) .
[7] ?صلح الإخوان (81).

ثم عقد فصلا في إثبات جواز التوسل بالنبي ، رد عليه الشيخ عبداللطيف كاملا.

ثم ساق كلاما طويلا في إثبات الكرامات ، ظنا منه أن ثبوتها يدل على جواز دعاء الصالحين ، وقد فند الشيخ هذه الدعوى ، ومما زاده ابن جرجيس مما لم يرد عليه :

* **قول " فلان شيء لله "** .

أما الفصول التي عقدها لإثبات جواز الحلف ، والنذر ، والذبح لغير الله، فلم يضف فيها شيئا لم يرد عليه الشيخ .

ثم ختم الكتاب بما أسماه : **شبه المانعين** ، وذكر اثنتا عشرة شبهة ، رد الشيخ على مجملها ، ومن الشبه التي لم يرد عليها :

* **الشبهة الثامنة** : أن هؤلاء جعلوا زيارة قبور الأنبياء والصالحين والتوسل بهم كالأصنام ، واستدلوا بقوله ﷺ : " لا تقوم الساعة حتى تعبد اللات والعزى "، وبقوله ﷺ : " لا تقوم الساعة حتى تختلف إليات نساء دوس على ذي الخلصة " اسم صنم –

ثم قال : والجواب : إن كلام الرسول حق ، وقد أخبر النبي ﷺ . ولكن متى ؟ بعد الدجال ، ونزول عيسى ، ويأجوج ومأجوج، وبعد أن لا يبقى على وجه الأرض من في قلبه مثقال ذرة من إيمان[1] .

* **الشبهة العاشرة** : استدلالهم بقوله ﷺ: " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " .

والجواب : أن المساجد جمع مسجد. وهو ما يسجد عليه، كما هو مقتضى اللغة العربية . فالملعون من سجد على القبور واتخذها مسجدا ، أي محل السجود ، بأن تكون نفسها مسجدا . أما إذا اتخذ بجنبها مسجدا أو سجد على الأرض، وهو بعيد عن القبر. أو بين المسجد والقبر فاصل، كما هو الغالب فلا يدخل في هذا الوعيد المفهوم من هذا الحديث- ثم ساق عدة نقولات في تأييد ما زعمه.

---

[1] صلح الإخوان (143).

* **الشبهة الحادية عشرة** : استدلالهم بقوله : " لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو أن أحدهم جامع أمه في الطريق لفعلتموه . قالوا: يا رسول الله : من هم ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ " .

ثم أجاب عن هذه الشبهة بقوله : إن هذا الحديث اتفق العلماء أنه في عمل المبتدعات التي لا تخرج فاعلها من الإيمان ، بدليل قوله : "حتى لو أن أحدهم جامع أمه في الطريق لفعلتموه " ، وبدليل قوله : " لا تزال طائفة من أمتي قائمين بأمر الله لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك " ، وقوله كما في البخاري : " لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ، ولكن أخاف عليكم الدنيا، أن تنافسوها " ، وقوله كما في الصحيحين : " إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب " فهذا الحديث وارد في حق أهل البدع إلى آخر ما قال[1].

* * *

[1] ?صلح الإخوان (149-150).

المبحث الثاني
استعراض مجمل لرد الألوسي عليها

بدأ الألوسي الرد من حيث انتهى الشيخ عبداللطيف – رحمهما الله - ، ولكنه لم يستوعب كل مفردات الأدلة ، ولعل ذلك للأسباب التالية :

1- كثرة التكرار في الكتاب .

2- أن ابن جرجيس يتعسف بحمل الأدلة على ما أراد إثباته . فيرد الألوسي على وجه الاستدلال لكل هذه الأدلة ، ثم يبين أن كل ما ذكر من أدلة لا تدل على ما ذهب إليه .

3- أن تتبع كلام ابن جرجيس كله يحتاج إلى مجلدات ، وهو لا يستحق ذلك ؛ لتهافت أكثر أدلته ، وهي الحكايات والمنامات ، وتهافت استدلالاته بالأحاديث الصحيحة والآيات ؛ لذلك نجد الألوسي - رحمه الله – كثيرا ما يردد : " ثم ذكر كلاما لا حاجة لنا إلى رده وإبطاله ، بل في ذلك تضييع المداد والقرطاس، فلهذا أعرضنا عنه "[1].

فبدأ –رحمه الله- الرد على الأحاديث من السنة حتى وإن كان الشيخ رد عليها ، مثل " حديث الضرير ، قصة العتبي " ، ولا يخل رده – رحمه الله – من إضافة بعض الفوائد[2] ، ويحتاج إلى بحث مستقل لتحقيقه ، وسأعرض في هذا المبحث لبعض ردوده على الأدلة التي ذكرت في المبحث السابق بإيجاز، وأصل الكلام في هذا المبحث للألوسي – رحمه الله - ، فإن أضفـت عبـارة – وهذا قليل جدا - ميزتها بلون مخالف :

*** رده على قصة هاجر أم اسماعيل – عليهما السلام -**

قال الألوسي- رحمه الله - : والجواب أن يقال : " إن كلامنا فيمن يستغاث به عند إلمام مالا يقدر عليه إلا الله ، أو لسؤال مالا يعطيه ويمنعه إلا الله ، وأما فيما عدا ذلك مما يجري فيه التعاون والتعاضد بين الناس والاستغاثة بعضهم

---

[1] فتح المنان (338).

[2] ومن ذلك رده على من زعم أن المجيء للقبر هو بمعنى المجيء للرجل في حياته استدلالا بقوله تعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك) . فتح المنان (354-357)

ببعض فهذا شيء لا نمنعه ، بل نعد منعه جنونا . كما نعد إباحة ما قبله شركا وضلالا "[1].

ثم ذكر القصة كاملة ، وقال : " وعلى كل حال فهذه القصة من أقوى الدلائل على أن سيدنا إبراهيم وال بيته صلى الله تعالى عليه وعليهم أجمعين قد بلغوا من الوثوق بالله والالتجاء إليه مالا يمكن بيانه ولا يسعنا شرحه "[2] .

ثم ذكر دلائل توكل إبراهيم - عليه السلام - ووثوقه بالله ، وبين موضع الشاهد من طلب هاجر ، حيث قال : " فسعت سبع مرات وهي تتشوف بريد الفرج، وكانت كل مرة تتفقد إسماعيل، وتنظر ما حدث له بعدها، فتشاهده في حال الموت ، فرجعت في المرة الأخيرة ، فلما أشرفت على المروة في المرة الأخيرة سمعت صوتا، وأيقنت بحصول ما كانت ترجوه من الله تعالى، فقالت لنفسها "صه" أي : اسكتي عن حديثك الذي تتحدثين به ، فهذا بريد الفرج قد طرق باب رجائي الذي كنت أرجوه ممن لا يخيب من سأله، ولا يطرد عن باب رحمته من التجأ إليه، ومن توكل على الله كفاه .

فلما تحققته بمزيد الإصغاء وتيقنت أنه من رسل رب الأرض والسماء ، قالت : قد أسمعت وتحققت الذي قد أزمعت ، وعرفت أنك حاضر، وإن لم ترمقك النواظر، فأغثني إن كان عندك خير، فقد لحقنا من الجوع والعطش، والضر والضّير.

فإذا هي عند موضع زمزم ، فبحثه بعقبه حتى ظهر الماء بإذن الحكيم الأحكم .

فقد تبين أن هاجر لم تطلب إلا من حاضر محسوس ، ليس ما طلبته ما اختص طلبه بالله سبحانه ، فإنها طلبت من صاحب الصوت ما يسد جوعتها ويروي غلتها ، كما يقول المنقطع في الطريق العادم الزاد والماء إذا مر عليه أحد وأحس به : أغثني بما عندك من ماء وطعام .. أفيقال لهذا : إنه طلبَ مالا يقوم عليه إلا الله ، والتجأ في شدته إلى من سواه؟

وفي زعم هذا العراقي أن هاجر - رضي الله تعالى عنها- طلبت من غائب مخلوق شيئا منع المانعون طلبه من غيره سبحانه ، حتى احتمل عنده أن يكون المستغاث به المطلوب

---

[1] فتح المنان (343).
[2] فتح المنان (344).

منه شيطانا والعياذ بالله تعالى ، فانظر إلى هذا الجهل الوخيم والتجاسر العظيم ، حتى نسب ما نسب إلى بيت النبوة وأهل الصفوة والفتوة ، فقاتل الله أهل الكفر والضلال كيف لعب الشيطان بعقولهم![1]

*** رده على حديث انفلات الدابة**

قال العراقي : " الدليل السادس : روى الحاكم في صحيحه ، وأبو عوانة، والبزار بسند صحيح عن النبي أنه قال : " إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة، فليناد: يا عباد الله احبسوا. فإن لله عبادا حاضرين سيحبسونها " – ومثله الدليل السابع.

وقد رد الشيخ الألوسي على هذا الحديث على فرض صحته ، ومما قال: "والجواب عن هذا : هو الجواب عن سابقه ، فإنه على نمطه ، فإن ما يفيده الحديث نداء حاضر، كنداء زيد عمر مثلا ليمسك دابته ، أو ليرجعها ، أو ليناوله ماءً أو طعاما أو نحو ذلك ، وهذا مما لا نزاع فيه ، غاية ما في الباب أن عمر مثل محسوس ، وهؤلاء لا يرون ؛ لأنهم إما مسلمو الجن أو ملائكة موكلون . لا نداء لأجل شيء لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، وأين هذا من الاستغاثة بأصحاب القبور من الأولياء والمشائخ ؟

وكون المراد بعباد الله غير من ذكر كما زعم بعض المتصوفة : أنهم رجال الغيب ، وأنهم كذا وكذا ، مردود ، بل هو من الخرافات والعياذ بالله تعالى[2].

* وأما قوله: " بل كيف يعلم النبي أمته أن يطلبوا العون من غير الله " - فهذا من أوضح الدلائل على جهله ، إذ قد ذكرنا أن من له قدرة كسبية قد جرت العادة بحصولها ممن أهله الله لها يجوز أن يقال له : أعنى في حمل متاعي، أو غير ذلك . وأما ما سواه فقد نهى الله عنه ورسوله كما سبق.

* وأما قوله : " إن المانع لا يجوز نداء الغائب -الخ " ، فمردود أيضا بما سبق، بأن هؤلاء العباد ليسوا بغائبين ، وعدم رؤيتهم لا يستلزم غيبتهم ، فإنا لا نرى الحفظة، ومع ذلك فهم حاضرون ، فإن علة الرؤية ليس هي الوجود فقط كما حقق ذلك في موضعه.

---

[1] فتح المنان(345-346).
[2] فتح المنان (350).

* وقوله : " ثم ما يدريك أن هذا الغائب -الخ " ، فيه من الجهل والخبط ما يعجز القلم عن ذكره . كيف يكون شيطانا وقد خلق الشيطان للإفساد لا للإصلاح ، وللتفرقة لا للاجتماع[1].

*** رده على أثر فتح الكوة**

قال العراقي: الدليل الثالث عشر: قال ابن الجوزي في كتابه المتقدم: الباب التاسع والثلاثون في الاستسقاء بقبره ، قال : اخبرنا عبد الأول بن عيسى – وساق سنده إلى أبي الجوزاء أوس بن عبد الله قال : قحط أهل المدينة قحطا شديدا فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها، فقالت : " انظروا قبر النبي فاجعلوا منه كوة إلى السماء ، لا يكون بينه وبين السماء سقف " ، قال: ففعلوا . فمطروا مطراً حتى نبت العشب ، وسمنت الإبل . حتى تفتقت من الشحم" .

وقد رد عليه الألوسي على فرض صحته ، ومما قال : " لا دليل في هذه الحكاية على ما قصده العراقي من جواز نداء غير الله تعالى ؛ لأنه لا نداء فيها ، بل فيها : إن الله تعالى رحم أهل الأرض لما كشف عن مرقده بحيث يصله القطر من المطر، كما أن من خواص أجسام الأنبياء جميعا إذا كشفت نزول المطر عليها، ولا يقتضي مثل ذلك نداءهم ودعاءهم في الشدائد.

ولو جاز استسقاؤه في هذه الحالة لما عدل عمر إلى العباس كما سبق قريبا.

هذا كله لو سلمنا صحة مثل هذه الحكاية وإذا لم تصح فالمنع أظهر والجواب أحق[2].

*** رده على أثر أبي أيوب**

قال العراقي: الدليل الخامس عشر: روى الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه على الصحيحين ، قال : " أقبل مروان يوما، فوجد رجلا واضعا جبهته على القبر. فقال: أتدرى ما تصنع؟ فأقبل عليه ، فإذا أبو أيوب الأنصاري -رضي الله تعالى عنه-. فقال : جئت رسول الله ولم آت الحجر، سمعته

---

[1] فتح المنان (350-351).
[2] فتح المنان (363-364).

 يقول : " لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله ، ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله " انتهى . ومثله الدليل السادس عشر.

والجواب : إن هذا لا يدل على مدعى العراقي من جواز الاستغاثة بغير الله حتى في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله .

وقد ذكرنا سابقا ما ورد من الحديث الصحيح الذي رواه الحسن بن الحسن بن علي –رضي الله عنهم- أنه رأى قوما عند القبر فنهاهم ، قال : وقال النبي : " لا تتخذوا قبري عيدا ، ولا تتخذوا بيوتكم قبورا ، وصلوا على حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني"[1] ، إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة ، وهي كلها تعارض ما أورده العراقي لو سلمنا صحته ووروده[2] .

فالمقصود: أن القصة التي رواها العراقي ناقلا لها عن ابن الجوزي لا ثبوت لها إلا في كتب القصص والمواعظ ، وهي لا معتمد عليها. وعلى تقدير صحتها فلا دلالة فيها على جواز نداء غير الله تعالى، كما سبق، فلا يغتر بها في مثل هذا المقام[3].

*** رده على أثر بلال**

الدليل السابع عشر: روى ابن عساكر بسند جيد عن أبي الدرداء قصة نزول بلال بداريا بعد فتح بيت المقدس ، قال : ثم إن بلالا رأى النبي وهو يقول له : ما هذه الجفوة يا بلال ؟ أما آن لك أن تزورنا ؟ فانتبه حزينا خائفا ، فركب راحلته وقصد المدينة ، فأتي قبر النبي فجعل يبكي ويمرغ وجهه على القبر" إلى آخر القصة ، وكان ذلك بحضور الصحابة فلم ينكر أحد عليه . انتهى ما ذكره السبكي في شفاء السقام والقسطلاني وابن حجر وغيرهم.

والجواب : ما ذكره ابن عبد الهادي في الصارم المنكي : من أن هذا الأثر المذكور عن بلال ليس بصحيح عنه ، ولو كان صحيحا عنه لم يكن فيه دليل على محل النزاع .

وقول العراقي: إن إسناده جيد كذب منه – ففي الصارم : " ذكره ابن عساكر في ترجمة بلال ، وهو أثر غريب منكر. وإسناده مجهول. وفيه انقطاع ، وبقى يطعن في إسناد هذا الحديث ويوهنه[4] – إلى أن قال بعد ورقة: والحاصل أن نقل

---

[1] انظر تخريجه في (ص   ) من هذا البحث .
[2] فتح المنان (366).
[3] فتح المنان (367).
[4] يقصد : ابن عبد الهادي في الصارم المنكي .

هذا الأثر بمثل هذا الإسناد لا يصلح الاعتماد عليه ، ولا يرجع عند التنازع إليه عند أحد من أئمة هذا الشأن "[1]. انتهى[2]

*** رده على أثر استسقاء الروم بقبر أبي أيوب الأنصاري -رضي الله عنه-**

الدليل الثامن عشر : ما روى الحاكم في المستدرك على الصحيحين : " أن أبا أيوب الأنصاري – رضي الله عنه – غزى قسطنطينية في خلافة معاوية مع ولده يزيد ، فقتل هناك ، ودفنه المسلمون في أصل سور البلد ، قال الراوي: فالروم يزورون قبره ، ويستسقون به إذا قحطوا "[3].

قال الألوسي : " بعد تسليم صحة الأثر : لا دليل فيه لما يقصده العراقي، فإن استسقاء الروم بقبره لا يكون دليلا على المسلمين في جواز ذلك ، فإن شريعة من قبلنا ليست حجة علينا إلا إذا قصه الله من غير إنكار ، فكيف بفعل من تاه في بيداء الضلال ؛ ولم يميز بين الحرام والحلال "[4].

*** رده على الحكايات التي ذكرها ابن الجوزي**

الدليل العشرون : ما ذكره ابن الجوزي من قصة المرأة التي كانت تجتهد في العبادة ، فأتاها الشيطان ، وقال : " إلى كم تعذبين هذا الجسد.." ، وفيه فاعتصمت بقبر الرسول [5].

ومما قال في الجواب : إن هذه الحكاية لو سلمت صحتها ليس فيها دلالة على المقصود من جواز نداء غير الله فيما هو من الخصائص الإلهية ، ولو دلت فلا يسوغ الاحتجاج بها ، كيف وهي لم تكن ممن يقتدى به ، ولم ينقل عن أحد من أصحاب النبي لا من الخلفاء الراشدين ولا من غيرهم مثل

---

[1] الصارم المنكي (310-16 3)
[2] فتح المنان (368).
[3] صلح الإخوان (57).
[4] فتح المنان (369).
[5] صلح الإخوان (57-58).

هذا الذي روي عن هذه المرأة ، ولا مثل الذي روي عن بلال فيما سبق[1].

الدليل الثاني والعشرون : ما ذكره ابن الجوزي في صيد الخاطر ، وفيه: " فلجأت إلى قبور الصالحين ، وتوسلت في صلاتي "[2].

والجواب أن يقال : إن هذا الدليل من نمط ما قبله ، إذ لا دليل فيه للعراقي على مدعاه ، غاية ما فيه زيارة القبور والتوسل في الأعمال الصالحة، ولا كلام لنا فيهما[3].

*** رده على حديث خدر الرجل**

الدليل الثالث والعشرون : (حديث خدر الرجل) ، وقول العراقي : " فإن الخدر يذهب عنه انتهى ، وهذا ذكروه في مقام تعليم المسلم الأذكار. فلو كان نداء الغائب شركا لكان الشيخان وغيرهما، بل وأصحابه يعلمان الناس الشرك والعياذ بالله".

قال الألوسي : " هذا أيضا ليس مما نحن فيه ، فإنه ليس نداء بما لا يقدر عليه إلا الله ، غاية ما فيه ذكر المحبوب لا طلب شيء منه ، ولا استغاثته ، وإلا لزم أن كل من ذكر محبوبه فقد استغاث به ، وبطلانه ظاهر، ولفظ " الشفاء " : " أن ابن عمر خدرت رجله ، فقيل له : اذكر أحب الناس أليك ، فصاح " يا محمداه " ، فانتشرت رجله " ، وهذا يقتضي صحة ما جربه الناس ، فإن من أصابه الخدر منهم إذا ذكر محبوبه زال بسهولة ؛ لأنه بمسرته تنتفش الحرارة الغريزية . فيندفع الخدر[4]، وفيه يقول أبو العتاهية :

وتخدر في بعض الأحايين رجله

فإن لم يقل: "يا عتب" لم يذهب الخدر .

ثم قال – رحمه الله - : " وأقول : إن هذا كان من مذاهب العرب في الجاهلية، فكان الرجل منهم إذا خدرت رجله ذكر من يحب أو دعاه فيذهب خدرها. قال قال الشاعر**:**

على أن رجلي لا يزال اندلالها

---

[1] فتح المنان (370-371).
[2] صلح الإخوان (59).
[3] فتح المنان (374-375).
[4] فتح المنان (375).

مقيما بها حتى أجيلك في فكري

ثم ذكر أمثلة من أشعار الجاهلية ، وقال : " أفيقال إن هؤلاء الشعراء لما خدرت أرجلهم استغاثوا بمن يحبونه ، لا أرى من يقول بذلك إلا من خدر عقله، وتركب جهله "[1].

*** رده على ما ذكر من أن بعض التابعين لما أسرهم الكفار" نادوا: يا محمد ".**

قال : هذه حكاية مكذوبة فإن التابعين - رضي الله تعالى عنهم - من خير القرون التي شهد لها النبي ﷺ بالخيرية ، فيستحيل أن يخالفوا أمره ويسلكوا خلاف مراده . هذا إذا سلم للعراقي أن الحكاية كما نقلها من غير تحريف ، ولا حذف شيء ، كما هي عادته في منقولاته. عامله الله تعالى بعدله[2].

* ثم بعد ذلك عقد العراقي فصلا يثبت فيه ويقرر أن النبي ﷺ وأصحابه عاملوا الأموات معاملة الأحياء .

قال الألوسي : " يريد العراقي بهذا الكلام إثبات المساواة بين الأموات والأحياء ليغري الناس على ندائهم في الملمات والدعاء ، وهذا يبطله ما ذكره الله تعالى بقوله : (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ)(فاطر: من الآية22) ، وشبه بهم من لم ينتفع بسماع الهدى ، وقال تعالى : (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (النحل:20) "[3].

ثم قال العراقي : وأدلة ذلك كثيرة ، وساق ثلاثة عشر دليلا لإثبات سماع الموتى، منها: أحاديث لا دلالة لها على مقصوده ، ومنها: حكايات الله أعلم بصحتها ، وعلى تقدير الصحة لا يثبت بها مثل هذه المطالب ، ومنها : ماهو أضغاث أحلام[4].

ثم قال الألوسي : " والعجب من العراقي هذا كيف تعرض لهذه المسالة، مع أنه لا تعلق لها بالمقصود، إذ لا يلزم من ثبوت السمع وغيره لهم الاستغاثة بهم، وطلب مالا يقدر

---

[1] فتح المنان (376).
[2] فتح المنان (377).
[3] فتح المنان (378).
[4] فتح المنان (379).

عليه إلا الله تعالى منهم، فإن ذلك لا يطلب من الأحياء حياة حقيقية ، فكيف بغيرهم"[1].

ثم أطال الكلام عن سماع الأموات وذكر الأقوال فيه...ثم قال : "فالراجح قصر السماع على ما ورد "[2].

وقال بعد ذلك : " ومن العجيب : أن كثيرا من الغلاة أهل القبور الذين يندبون الصالحين ويستغيثون بهم ..يعتقدون أن مدعويهم يسمعون الأصوات ، سواء في ذلك من قرب ومن كان في أبعد الجهات "[3].

ثم بدأ بالرد على كل دليل ، وكان رده مختصرا ، ومما قال :

* وأما حديث أم محجن الذي في الدليل الثاني ، فقد اعترف أنه مرسل ، ولو فرض أنه جمع شروط الاحتجاج فلا دليل فيه ؛ إذ يحتمل أن يكون مثل الأول[4] .

وأما ما ذكره في الدليل السابع من تعليم النبي أصحابه السلام على أهل القبور، وأن يقولوا لهم : " أنتم لنا سلف ونحن لكم خلف " ، فقد أجاب عنه العلامة السيد نعمان أفندي الألوسي[5] في كتابه " الآيات البينات " : " إنا نسلم سرا في آخر صلاتنا إذا كنا مقتدين ، وننوي بسلامنا الحفظة والإمام وسائر المقتدين ، مع أن هؤلاء القوم لا يسمعونه لعدم الجهر به ، فكذا ما نحن فيه ، على أن السلام هو الدعاء بالسلامة لهم من الآفات ، وننزلهم منزلة المخاطبين السامعين ، وذلك شائع في العربية كما لا يخفى .."[6].

* **أما مسألة التلقين ، فنقل أيضا من المرجع السابق ، وكان مما نقل** : " اعلم أن مسألة التلقين قبل الموت لم نعلم فيها خلافا ، وأما بعد الموت – فاختلف الأئمة والعلماء فيها ...[7]

---

[1] فتح المنان (380).
[2] فتح المنان (380).
[3] فتح المنان (384) .
[4] فتح المنان (387) . ويعني بالأول مخاطبة النبي لقتلى بدر ، وقد أجاب عنه الشيخ عبداللطيف –رحمه الله- .
[5] تقدمت ترجمته .
[6] فتح المنان (387-388).
[7] فتح المنان (388).

ثم قال الألوسي : وعلى كل حال فإن المانعين لا ينكرون سماع الميت عند الوضع كما سبق[8] .

* وأما ما ذكره من **الدليل التاسع** : من قول المصلي : " السلام عليك أيها النبي " ، فهو دليل عليه لا له ، إذ من البديهي أن النبي لا يسمع هذا السلام كسمع الأحياء ، بل المقصود الدعاء بالسلامة له من الآفات[2] .

وأما ما ذكره في باقي الأدلة ، فبعضه مجاب عنه بمثل ما سبق ، وبعضه لا دليل فيه ، ولا صحة له[3] .

ثم قال الألوسي : " قال العراقي - بعد أن ساق ما يتعلـق بمساع الموتى-: فإن كان عقلك لا يتسع لذلك مع أن قدرة الله تعالى صالحة، فقد ورد أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات كل يوم ، فيمكن أن يكون علمهم بأحوال الأحياء من العرض- ثم ساق آثارا تروى ، منها حديث عن أبي هريرة في عرض أعمال الأحياء على أقاربهم وعشائرهم من الموتى، ومقصود العراقي: الاستدلال بذلك على جواز دعاء الأموات وندائهم في المهمات من أي محل كان ؛ لعلمهم بأعمال أقاربهم"[4].

والجواب أن يقال : إن الله تعالى قد بين هذه المسالة في كتابه بيانا كافيا شافيا بنصوص صريحة لا تحتمل التأويل ، ولا تقبل التحريف والتبديل ، كلها تدل على نفي علم الغيب عن غير الله تعالى.

والآثار التي وردت في عرض بعض أعمال الأحياء على أقاربهم وعشائرهم من الموتى لا تدل على الدعوى بوجه من الوجوه ؛ لأنه من جنس اطلاع الحي على بعض الجزئيات ، وليس هذا ثابتا لكل أحد من الأموات ، فإن الأحاديث لا عموم فيها ولا تدل عليه ، بل هي خاصة بإطلاع البعض على بعض الأعمال لا كلها..[5].

ومن العجب استدلال العراقي وأضرابه بما هو حجة عليهم لا لهم ، فإن هذه الأحاديث فيها أنه يعرض على الميت عمل قريبه وولده ، وإذا كان يعرض عليه فعلمه قاصر على نفس المعروض لا يتعداه إلى غيره. وإذا اختص بالقريب ففيه التنبيه

---

[8] فتح المنان (388).
[2] فتح المنان (389).
[3] فتح المنان (389).
[4] فتح المنان (389-390).
[5] فتح المنان (390-391).

على أنه لا يعلم عمل غير قريبه، وإذا اختص بالعمل دل على أنه لا يعلم غيره من عموم الأحوال . فالأحاديث والقرآن حجة عليهم لا لهم والحمد لله تعالى[1].

* **أما ما يتعلق بتصرف الأرواح**

قال الألوسي : " ثم ساق العراقي من هذا القبيل كلاما طويلا ، كله يدل على أن الأرواح متصرفة غير مقيدة ، وذكر حكايات وآثاراً الله أعلم بصحتها؛ لإثبات عرض أعمال الأحياء على الأموات، كل ذلك حرصا على ما انطوى عليه قلبه من تأليه ما سوى الله تعالى، والالتجاء إلى المخلوق ، وهذا خلاصة ما أطال فيه مما يدل عليه نقله[2].

والجواب أن يقال : **أولا :** إن الروايات قد اختلفت في تعيين مقر أرواح الشهداء ، ففي بعضها : في حواصل طير خضر تسرح في الجنة..، وفي بعضها : على بارق بباب الجنة يخرج إليهم رزقهم من الجنة ، وفي بعضها في قباب في أرباض بفناء الجنة[3]...

قال ابن القيم : مسألة الأرواح بعد الموت عظيمة لا تتلقى إلا من السمع[4]- **..ثم نقل كلاما طويلا لابن القيم عن مستقر الأرواح ، وتعلقها بالبدن، ثم قال** :

" إذا عرفت ذلك فاعلم أن ما نقله العراقي من الآثار والحكايات والمنامات لا تدل على مدعاه ، بعد أن عرفت حال الروح ولوازمها، ومن نقل عنهم العراقي من الأفاضل كابن القيم وابن رجب وغيرهما من أشهر المانعين للاستغاثة بغير الله تعالى ، فإن زعم أن أرواح الصالحين تتصرف في العالم ، وتدبر الأمر ويستعان بها ويستغاث بها، لهذه النقول التي نقلها فذلك من جملة الأدلة على جهله ، وعلى أنه محاد لله ولرسوله وأهل العلم وكاذب على جملة الدين ، فإن الله تعالى قال في كتابه العزيز : (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) (يونس:3)[5].

---

[1] فتح المنان (391).
[2] فتح المنان (391).
[3] فتح المنان (391-392).
[4] فتح المنان (392).
[5] فتح المنان (395) .

ثم نقل كلام ابن القيم ؛ لأنه أكثر من نقل عنه العراقي في هذا المبحث ؛ ليبين أنه مبطل ينقل ما يوافق هواه ، ويحمله على غير مراد قائله : " قال العلامة ابن القيم عليه الرحمة والرضوان – وهو الذي نقل عنه العراقي- ومن أنواع الشرك : طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم ، والتوجه إليهم ، وهذا أصل شرك العالم ؛ فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، فضلا عمن استغاث به وسأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع "[1].

ثم ساق – رحمه الله – كلام ابن عبد الهادي في رده على السبكي لما قال : " إن المبالغة في تعظيمه – أي الرسول ﷺ - واجبه إن أريد بها المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيما حتى الحج إلى قبره ، والسجود له، والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب وأنه يعطي ، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع ، وأنه يقضي حوائج السائلين ، ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء ، ويدخل الجنة من يشاء – قال ابن عبد الهادي : فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك وانسلاخ من جملة الدين"[2].

ثم نقل كلام الشيخ صنع الله الحلبي-رحمه الله- ، ومما قال : " وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في كتاب " الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة" : هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعة يدعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم ويستغاث بهم في الشدائد والبليات ، وبهم تكشف المهمات ، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات ...، وذبحوا لهم الذبائح ونذروا النذور، وأثبتوا لهم فيها الأجور. قال: وهذا الكلام فيه تفريط وإفراط ، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي ، لما فيه من روائح الشرك المحقق ، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق ، ومخالفة لعقائد الأئمة ، وما اجتمعت عليه الأمة[3].

ثم قال : فأما قولهم : إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم فيرده قوله تعالى: (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ)(النمل: من الآية60)،) وقوله : (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ

[1] فتح المنان (395) ، وانظر : مدارج السالكين (1/346).
[2] فتح المنان (397).
[3] سيف الله (15-16).

الْعَالَمِينَ)(لأعراف: من الآية54) ..ونحوه من الآيات الدالات على أنه المنفرد بالخلق والتدبير، والتصرف والتقدير[1].

إلى أن قال : وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة. قال جل ذكره (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) (الزمر:30)، وفي الحديث : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث – الحديث " ، وجميع ذلك وما هو نحوه : دال على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأرواحهم ممسكة...، فدل على أنه ليس للميت تصرف في ذاته ، فضلا عن غيره . فإذا عجز عن حركة نفسه ، فكيف يتصرف في غيره؟ فإنه سبحانه يخبر أن الأرواح عنده ، وهؤلاء الملحدون يقولون: إن الأرواح مطلقة متصرفة (قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ)(البقرة: من الآية140).[2]

ثم قال : فرحم الله علماء السنة ، فلقد كفونا مؤونة كشف ما أورده المشركون من شبهات المبطلين ، فتبين بذلك لمن له عقل بطلان ما يهرج به هذا العراقي مما هو ملحق بالكرامات ، مستدلا بذلك على جواز جعل الصالحين أندادا لله[3] .

* **ثم لما ساق العراقي الفصل الذي ذكر فيه أحاديث التبرك زاعما أنها من التوسل ، رد عليه الألوسي ببيان معنى الوسيلة ، وكان مما قال** : " إن هذا القول صدر عن جهل بمسمى الوسيلة شرعا، فإن الوسيلة في شرع الله الذي شرعه على ألسن جميع رسله، هي عبادته وحده لا شريك له...[4]

ثم بدأ بالرد التفصيلي، وقال :

* الحديث الأول : عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما وفي بعض حديثهما ، فقالت : "هذه جبة النبي فأخرجت لي جبة طيالسة كسروانية لها لبنة ديباج، وفرجاها مكفوفتان بالديباج، فقالت: هذه كانت عند عائشة رضي الله تعالى عنها فلما قبضت قبضتها، فنحن نغسلها للمرضى نستشفي بها" ثم ذكر العراقي عدة أحاديث وآثار كلها تدل إن صحت على التبرك بآثاره ، ليس في ذلك ما يدل على المقصود ، وهو أن المراد بالوسيلة الذوات .

---

[1] المرجع السابق (29) .
[2] المرجع السابق (32-33) . وانظر : فتح المنان (397-398).
[3] فتح المنان (399).
[4] فتح المنان (400-401).

غاية ما فيه التبرك بآثار النبي الشريفة في حياته ، أي : آثار نفسه من أجزائه المقدسة ومما مس أعضاءه الشريفة من ملابسه ، فذلك حق واجب علينا أيها المسلمون ، نفديه بأنفسنا، وذلك من تعظيمه وبالغ تعزيره وتوقيره وشرف وكرم ، وما عدا ذلك لا نقول به ولا نعمل إلا بما ورد[1].

وقد تقدم الجواب عن كل ما ساقه هنا ، وهذا كله حشو وتكرير ، ..وما ذكره في الحديث الحادي والعشرين من أنه كان يشير إلى الحجر الأسود بمحجنه ويقبل المحجن ، فلا دليل فيه على المقصود أيضا ، إذ تقبيل الحجر أمر تعبدي ، وليس تقبيله لكونه وسيلة بين الله والعباد[2].

* **ثم قال** : ومما يقتضى منه العجب ما ذكره في الدليل الرابع والعشرين: من التوسل بالحيوانات في الاستسقاء . فانظر إلى هذا التجري على الشريعة، والخبط وسوء الفهم ، فإن إخراج البهائم والحيوانات في الاستسقاء ليس للتوسل بها إلى الله تعالى ، بل إنها تخرج ليكثر الضجيج والعويل فيكون أقرب إلى الرقة والخشوع ، لا لتكون وسيلة إلى الله تعالى[3].

* **أما قول " فلان شيء لله " فبين الألوسي كيف يقولها هؤلاء ، ومما قال** : "ومن جملة ذكرهم .." لا إله إلا الله ، فلان شيء لله " ، ويذكرون أحد معبوديهم الذين يعتقدون أنهم المتصرفون في العالم ، كعبد القادر والرفاعي والبدوي[4] ..

ثم ساق كلام جمع من الفقهاء في النهي عن ذلك ، ومما قال :

قال ابن عابدين في باب الردة بعد ما ساق كلام شارح الوهبانية :

كذا قول شيء لله قيل بكفره ويخشى عليه الكفر بعض يقرر

" قلت[5] : فينبغي أو يجب التباعد عن هذه العبارة ، وأنه ليس فيه خلاف يؤمر بالتوبة منه والاستغفار وتجديد النكاح ، ثم

---

[1] فتح المنان (403).
[2] فتح المنان (403).
[3] فتح المنان (404).
[4] فتح المنان (411).
[5] أي ابن عابدين .

قال : لكن هذا إن كان لا يدري ما يقول، أما إن قصد المعنى الصحيح فالظاهر : أنه لا بأس به . انتهى"[1].

ثم عقب الألوسي بقوله : وأنت تعلم أن غالب من اتخذ ذلك القول لا يميز بين المعنى الصحيح وغيره[2] .

أما الشبه التي ذكرها في الخاتمة ، فقد فندها الألوسي – رحمه الله – جميعا ، وأكد على ما ذكره الشيخ عبداللطيف في الرد عليها ، ومما قال في ذلك :

الشبه : جمع شبهة وهي في عرف الناظرين : دليل فاسد في نفس الأمر، وقد اختلق هذا العراقي ما ذكره في خاتمته من الدلائل التي زعم أن أهل الحق أقاموها في إثبات مدعاهم : من إخلاص التوحيد لله تعالى ، والمنع من دعاء غيره سبحانه . ولعمر الله لقد كذب في هذه العبارة اليسيرة في عدة مواضع :

منها: قوله بالتعبير بالشبه ، وسيأتي إن شاء الله تعالى إبطال مأورده عليها وصحة الاستدلال بها .

ومنها: إسنادها إلى المانعين ، مع أنه لم يتفوه أحد منهم بالاستدلال بها ، وهم ولله تعالى الحمد في غنى عن مثل ذلك ، كيف والكتاب والسنة ناطقان بإخلاص التوحيد لله سبحانه ، وإبطال ما عليه العراقي من عبادة غير الله تعالى.

ومنها قوله : التي هي من أقوى ما استدلوا به - سبحانك هذا بهتان عظيم- ، إذ قد ذكرنا أنه لم يستدل بها أحد فضلا عن أن تكون أقوى ما استدلوا به ، وهلا نسب ذلك إلى كتاب أو إلى عالم من العلماء ، أو طالب من الطلاب؟

وقد سبق نبذة من دلائلهم في عدة مواضع ، وكأن الذي دعا هذا العراقي إلى هذا الافتراء والكذب : ترويج زيفه على العوام ، إذ لو ذكر دلائلهم القوية وبراهينهم القطعية لانكشف الغبار ، وتميز الليل من النهار[3] .

* قال العراقي : الشبهة الثامنة : أن هؤلاء جعلوا زيارة قبور الأنبياء والصالحين والتوسل بهم كالأصنام ، واستدلوا

---

[1] فتح المنان (412).
[2] فتح المنان (413).
[3] فتح المنان (440-441).

بقوله : " لا تقوم الساعة حتى تعبد اللات والعزى" ، وبقوله : " لا تقوم الساعة حتى تختلف إليات نساء دوس على ذي الخلصة " اسم صنم .

ثم قال- العراقي- : والجواب : إن كلام الرسول حق ، وقد أخبر النبي ولكن متى ؟ بعد الدجال ، ونزول عيسى ويأجوج ومأجوج ، وبعد أن لا يبقى على وجه الأرض من في قلبه مثقال ذرة من إيمان – ثم أخذ يتكلم بكلام حاصله : أن الإشراك بالله سبحانه لا يقع إلا بعد قيام الساعة ، ومقصوده : أن ما يفعله القبوريون مع أهل القبور من الغلو والهجر ليس بشرك ، والشرك لا يقع إلا قرب يوم القيامة[1].

والجواب أن يقال : إن كلام العراقي في هذا المقام قد اشتمل على مالا يخفى على ذوي الأفهام من الخبط والكذب .. ولو أردنا استيعاب ذلك لطال الكتاب جدا ، وها نحن نذكر ما لا بد منه ، روى بريدة عن رسول الله قال: " كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها" ، ففي هذا الحديث تصريح بوقوع النهي في صدر الإسلام عن زيارتها لكونها مبدأ عبادة الأصنام..، سدا لذريعة الشرك ، لكونهم حدثاء عهد بكفر.

ثم لما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها، وعلمهم كيفيتها تارة بفعله، وتارة بقوله[2]...**ثم ذكر – رحمه الله – جملة من الأحاديث في مشروعية الزيارة ، وبين أثرها في رقة القلوب ، وبين جملة من آداب الزيارة الشرعية، ونماذج مما يفعله أهل الزيارة البدعية ، وكيف لبس عليهم الشيطان بما يلقيه إليهم من الحكايات والخرافات.**

ثم قال : وأما قوله : واستدلوا بقوله : " لا تقوم الساعة حتى تعبد اللات " الخ – فكذب صريح ، فإنه لم يستدل أحد من المانعين على عدم جواز نداء غير الله تعالى فيما لا يقدر عليه غيره سبحانه بمثل هذا الدليل ، ومن ادعى ذلك فعليه البيان ، فسقط ما ذكره العراقي من الكلام السخيف[3].

ثم قال : قال العراقي في كلامه على هذه الشبهة : وقد أخبر النبي : "أن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب " ، قال : قال البغوي وغيره: وجزيرة العرب من عدن إلى ديار بكر، فيدخل فيها الحجاز والشام ومصر

---

[1] فتح المنان (488).
[2] فتح المنان (489).
[3] فتح المنان (493).

والعراق – إلى آخر ما قال ، مما يدل على أن مقصده : أنه لم يقع في هذه الأقطار وما حوته من البلاد عبادة غير الله تعالى ، فلا يكون ما عليه هو وأصحابه الذين هم على شاكلته شركا وإلحادا[1].

وقد رد الألوسي على هذه الفرية بكلام طويل بين فيه القول الصحيح في حدود جزيرة العرب ، ثم قال : فتفريع العراقي على ما نقله عن البغوي – والله أعلم بصحته – ليس بسديد ؛ لأنه لم يقل أحد من أئمة هذا الشأن : إن الشام ومصر والعراق من جزيرة العرب ، وهكذا شأن العراقي : التساهل في كل شيء[2].

وقد علمت أن ما ذكره العراقي لا يعد من الجزيرة بوجه من الوجوه ، وكيف يسوغ إدخال العراق ومصر والشام في جزيرة العرب وفي هذه المواضع من عباد الأوثان ما لا يحيط به نطاق الحصر بالإحصاء ، والعراقي قد ناقض نفسه بنفسه.

ثم إنا لو سلمنا أن تلك المواضع داخله في الجزيرة، والحديث الذي أورده يشملها، فلا فائدة له في ذلك؛ لأن الحديث لا يدل على عدم وقوع الكفر في جزيرة العرب، وانتفاء الإلحاد منها. فان الدلالة على ذلك مما لا يحتاج في إبطالها إلى دليل، سيما على زعم العراقي أن العراق والشام ومصر داخلة في تلك الجزيرة.

وقد ارتد عند وفاة النبي بعض قبائل العرب الساكنين في صميم جزيرة العرب، حتى قاتلهم الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه، بعد أن حكم هو والصحابة بكفرهم .

ولا يبعد أن يقال : مراد النبي بقوله : " إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب " ، أن الشيطان لا يطمع أن بعبده المؤمنون في جزيرة العرب ، وهم المصدقون بما جاء به الرسول من عند ربه المذعنون له، الممتثلون لأوامره، المنتهون عما نهى عنه. ولاشك أن من كان على هذه الصفة فهو على بصيرة ونور من ربه فلا يطمع فيه الشيطان أن يعبده.

وأما من تسمى باسم الإسلام ، وتعاطى كل ما نهى عنه النبي فيما يسر ويعلن ، فهو باسم المنافق أحق منه باسم المؤمن ، وإن صام وصلى ، فمن التجأ إلى غير الله وتوكل

---

[1] فتح المنان (494).
[2] فتح المنان (496).

على غيره ودعاه في سره ونجواه ، لم يكن مؤمنا برب العالمين ولا مقرا بوحدانية إله السماوات والأرضين .

فوجود مثل هذا في جزيرة العرب لا ينافي الحديث الصحيح، كما لا يخفى على من له قلب سليم، وعقل رجيح ، وإطلاق المصلين على المؤمنين كثير في كلام العارفين . قال المناوي في " شرح الجامع الصغير " عند الكلام على الحديث السابق ذكره : " يعني من أن تعبد الأصنام . (يَا أَبَتِ لا تَعْبُدْ الشَّيْطَانَ) قال البيضاوي : عبادة الشيطان عبادة الصنم، فجعل عبادة الصنم عبادته؛ لأنه الآمر بها الداعي إليها، وعبر عن المؤمنين بالمصلين[1]..

ويحتمل أن يراد بالمصلين: أناس معلومين بناء على أن تكون "أل" للعهد. وأن يراد بهم : الكاملون فيها، بناء على أن تكون للكمال ، وهم خير القرون ، يؤيد ذلك قوله في آخر الحديث "ولكن في التحريش بينهم"[2].

* **أما جواب الألوسي على الشبهة العاشرة ، فمنه :**

قال العراقي : استدلالهم بقوله : " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" رواه البخاري وغيره – ، والجواب: أن المساجد جمع مسجد. وهو ما يسجد عليه ، كما هو مقتضى اللغة العربية. فالملعون من سجد على القبور واتخذها مسجدا ، أي محل السجود، بأن تكون نفسها مسجدا. أما إذا اتخذ بجنبها مسجدا أو سجد على الأرض وهو بعيد عن القبر ، أو بين المسجد والقبر فاصل ، كما هو الغالب فلا يدخل في هذا الوعيد المفهوم من هذا الحديث- ثم ساق عدة نقولات في تأييد ما زعمه[3].

والجواب : إن العراقي لم يبين كيفية استدلال المانعين بهذا الحديث ، ويُفهم من سياق كلامه أنهم أوردوه دليلا على أن لا يدعي غير الله تعالى ، ولا يلتجأ إلا إليه سبحانه. وأن من التجأ إلى غيره فيما هو من خصائص الألوهية فقد ألحد وتجاوز الحد ، مع أنه لم يعهد أن أحدا استدل على تلك الدعوى بهذا الدليل. ولا قال هذا القول شخص من أرباب التحصيل .

والذي قالوه: إن النبي أراد بهذا الحديث تحذير أمته مما صنع اليهود والنصارى من الغلو الذي أوصلهم إلى الشرك

---

[1] فتح المنان (496-497).
[2] فتح المنان (498).
[3] فتح المنان (511).

والالتجاء ، لا أن نفس بناء المساجد على القبور شرك ، إذ لم يقل ذلك أحد حتى إن السلف كانوا ينهون عن كثرة التردد لتلك الملاحظة[1].

ثم نقل كلام ابن القيم في " الإغاثة " عن النهي عن كثرة التردد على القبر ، وبعض بدع الزيارة ، وكان مما نقله عن ابن القيم قوله :

" وقد حرف هذه الأحاديث بعض من أخذ شبها من النصارى بالشرك، وشبها من اليهود بالتحريف. فقال: هذا أمر بملازمة قبره والعكوف عنده واعتياد قصده وإتيانه ، ونهي أن يجعل كالعيد الذي إنما يكون في العام مرة أو مرتين.

فكأنه قال: لا تجعلوه بمنزلة العيد الذي يكون من الحول إلى الحول ، بل اقصدوه كل ساعة وكل وقت. وهذا مراغمة ومحادة ومناقضة لما قصده الرسول وقلب للحقائق، ونسبة الرسول إلى التدليس والتلبيس بعد التناقض. فقاتل الله أهل الباطل أني يؤفكون؟

ولا ريب أن من أمر الناس باعتياد أمر وملازمته وكثرة انتيابه بقوله: لا تجعلوه عيدا. فهو إلى التلبيس وضد البيان أقرب منه إلى الدلالة والبيان[2].

ثم إن ما ذكره العراقي في حمل الحديث على السجود على القبر مخالف لما ذكره أئمة الحديث ، ففي صحيح البخاري ما نصه : " باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور . ولما مات الحسن بن الحسن بن علي - رضي الله تعالى عنهم - ضربت امرأته القبة على قبره سنة ثم رفعت ، فسمعوا صائحا يقول "ألا هل وجدوا ما فقدوا ؟ فأجابه آخر: بل يئسوا فانقلبوا. حدثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان عن هلال هو الوازن، عن عروة عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - عن النبي قال في مرضه الذي مات فيه : " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. قالت: ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا " انتهى.

فقد أورد البخاري - رحمه الله تعالى - هذين الحديثين للدلالة على مدعاه والاتخاذ أعم من البناء. ومناسبة الأول لحديث الباب: أن المقيم في الفسطاط لا يخلو من الصلاة

---

[1] فتح المنان (512) .

[2] فتح المنان (513) ، إغاثة اللهفان (192/1-193).

هناك . فيلزم اتخاذ المسجد عند القبر، وقد يكون القبر في جهة القبلة فتزداد الكراهة[1].

ثم قال : وما ذكره العراقي من كون مرقد نبي الله إسماعيل في المسجد الحرام عند الحطيم ليس مما نحن بصدده إذ لم يدفن هناك لقصد تعظيمه، والاختلاف إليه للزيارة. بل إن ذلك كان على سبيل الاتفاق ؛ ولذا لا ترى أحدا ممن قصد بيت الله الحرام خطر بباله ذلك القبر، بل لم يكن له أثر هناك أيضا.وكذا يقال في أمر الله تعالى بالاتخاذ من مقام إبراهيم مصلى، فإنه بعيد عما نحن فيه[2].

ثم قال : وما أدري ما قصد العراقي – عامله الله بعدله – بقوله: أما من اتخذ مسجدا في جوار رجل صالح أو ولي في مقبرته، وقصد به الاستظهار بروحه– فعلى ما أظن أنه أراد بالاستظهار: الاستغاثة . وعنى بوصول الأثر: ما يزعمه عباد الكواكب من الاستمداد من روحانياتها. فانظر فهل بعد هذا الشرك شرك عظيم ؟ ومع هذا يقول: لا للتعظيم والتوجه[3].

* قال العراقي: الشبهة الحادية عشرة: استدلالهم بقوله : " لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو أن أحدهم جامع أمه في الطريق لفعلتموه. قالوا: يا رسول الله من هم ، اليهود والنصارى؟ قال: فمن ؟ " ثم أجاب عن هذه الشبهة بقوله: إن هذا الحديث اتفق العلماء أنه في عمل المبتدعات التي لا تخرج فاعلها من الإيمان ، بدليل قوله : "حتى لو أن أحدهم جامع أمه في الطريق لفعلتموه" وبدليل قوله : " لا تزال طائفة من أمتي قائمين بأمر الله لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك" ، وقوله كما في البخاري : " لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ، ولكن أخاف عليكم الدنيا، أن تنافسوها" ، وقوله كما في الصحيحين : " إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب" ، فهذا الحديث وارد في حق أهل البدع إلى آخر ما قال[4].

والجواب أن يقال : إن هذا الحديث من الأحاديث المتفق على صحتها، وأورده البخاري في كتاب الاعتصام من صحيحه[5].

---

[1] فتح المنان (514).
[2] فتح المنان (515).
[3] فتح المنان (516).
[4] فتح المنان (517) .
[5] فتح المنان (517) .

ثم ذكر الحديث وشرحه من فتح الباري ، ثم قال :

فالمانعون يقولون: إن هذا الحديث قاله حثا لأمته على اتباع سنته، ولزوم طريقته، وتحذيرا لهم من موافقة أهل الكتابين الذين كانوا قبل ، وإخبارا بما سيقع بعده من غربة الدين، والعمل بأعمال المشركين ، ولا شك أن المغالاة في المخلوق ليس من الشريعة المحمدية ، بل من عمل اليهود والنصارى ، وهذا الذي أضلهم وأخرجهم عن مرضاة الله . ففي الحديث دلالة صريحة في المنع عما يهواه العراقي من إباحة ما يفعله العوام عند قبور الصالحين ، التي أصبحت اليوم كأوثان المشركين ؛ لأنه من أفعال اليهود والنصارى التي لعنوا عليها، وباؤا بمقت الله وغضبه[1].

ثم قال : أما قول العراقي : إن هذا الحديث اتفق العلماء أنه في عمل المبتدعات الخ.

فجوابه : إن اتفاق العلماء على فرض تسلميه أن الحديث في عمل المبتدعات لا يضر المانعين شيئا؛ لأن المبتدعات تشمل كل ما حدث في الدين ، حتى الإشراك بالله وعبادة غيره سبحانه[2].

ولما خفي المراد بالبدعة على هذا الغر الزائغ عن المحجة وأمثاله وجب بسط القول فيها ، وبيان أقسامها ؛ ليكون الواقف على هذا المقام على بصيرة من أمره ، فنقول :

اعلم أن البدعة لغة : المحدثة مطلقا .

واصطلاحا – إذا قوبلت بالسنة – : يراد بها المحدثة في الدين ، إما بزيادة أو نقصان . وهي السيئة التي ليس لها أصل ظاهر من الكتاب والسنة ، أو سند صحيح استنبطه علماء الامة[3].

ثم أطال في الحديث عن البدعة وأقسامها ، ونقل أقوال العلماء فيها ، ثم قال : قال المحدث الشيخ علي السويدي البغدادي – بعد ذكره الكلام السابق، أقول : ومن أعظم البدع : الغلو في تعظيم القبور، فلقد اتخذوها في هذا الزمان معابد يعتقدون أن الصلاة عندها أفضل

---

1 فتح المنان (518) .
2 فتح المنان (518).
3 فتح المنان (519).

من الصلاة في جميع بيوت الله ، وهم وإن لم يصرحوا، ولكن طبعت قلوبهم على ذلك[1].

والمقصود من نقل هذا الكلام كله : أن البدعة تطلق على كل ما حدث في الدين مما ليس منه ، بل [من العلماء من أدخل][2] في البدع الخبيثة عبادة غير الله تعالى، خلافا لما زعمه العراقي[3].

وأما حديث : " لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي –الخ " ، فالمخاطبون الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، كما نبه على ذلك شراح الحديث ، والحديث من أعلام النبوة ، فقد وقع بين الصحابة من التنافس ما هو معلوم .

وأما حديث : " إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب" فقد تقدم الكلام عليه في الشبهة الثامنة[4].

ثم ذكر رحمه الله ما يفند باقي الشبهة ، وهو مما ذكره الشيخ عبداللطيف في أول الكتاب ، وكرره الألوسي من باب التأكيد ، ثم ختم الكتاب بقوله :

وهذا آخر ما من الله تعالى به من الكلام الذي هو في قلوب أعداء الله كالسهام ..والصلاة والسلام على الحبيب الأعظم ، والشفيع لعصاة أمته حيث لا ينفع الندم، محمد عبد الله ورسوله وعلى آله وصحبه وجنده وأحزابه[5].

* * * * *

---

[1] فتح المنان (522).

[2] في المطبوع : بل من أدخلها . ولم يتضح به المقصود . ولعل ما أثبت أقرب للصواب

[3] فتح المنان (524).

[4] فتح المنان (524-525).

[5] فتح المنان (527).